

وإن قالوا: إنهم أولياء الله مؤمنون عندنا.

فقل: هل أحل الله سبي المؤمنين والمؤمنات والأحرار؟

فإن قالوا: نعم، أعطوك ما تريد منهم، وما لا تريد أن توقفهم على ما هو أعظم منه!!

وإن قالوا: لم يحل الله سبيهم.

فقل: أخبروني عن أطفال المشركين الذين لم يبلغوا الحلم، أليسوا مؤمنين -

زعمتم - فلم تستحلّون سبيهم؟!

فإن قالوا: هو خير لهم نعلمهم الاسلام.

فقل: إنا ندلكم على ما هو خير لهم من ذلك إذا أنتم سبيتموهم، فعلموهم الاسلام والكتاب كما تعلمون أبناءكم، وقولوا لهم: أنتم أحرار مثلنا، ولا تفرضوا عليهم الغلة وتقيدهم، وتعلقوا في أعناقهم الزنارات^(١)، وتنكحوا الجارية منهم بغير مهر ولا إذن ولي، وتزعمون أنها مما ملكت أيما نكح، وأنتم تعطون في أول كلامكم أنهم مؤمنون، فمن أين أحل الله هذا من المؤمنين؟!

الجواب قال أحمد بن يحيى رضي الله عنه: وسألت عن الأطفال وشأنهم جميعاً، أطفال المشركين وأطفال المسلمين، وطوّلت في ذلك وشرحت، فاسمع الجواب وأنصف عقلك.

فأول ما أخطأت فيه أن قولك - زعمت - في أولاد المسلمين أنهم عندك في منزلة آبائهم، فجهلت الحكم والعدل، ولم تميز بين ثواب العاملين، ومن لم يعمل، فجزت عن القضاء، وخالفت القول بالرشد، إذ جعلت حكم من لم يطع الله عز وجل ساعة واحدة، ولم يجاهد في سبيله، ولم تُصبه البأساء والضراء، والحصص

(١) الزنار: ما يوضع على وسط النصارى والمجوس.

والأزل^(١)، والخوف والبلاء، وجميع المكار، مثل من نزل ذلك كله به، فثبته دمه وسفك دماء المشركين، وناله معاندوه بأنكى العقوبات، فجعلته في المنزلة - زعمت - كمنزلة أبنائهم، فوجب عليك في قولك أن منزلة أطفال النبي صلى الله عليه وسلم وعليهم في منزلته ودرجته عند الله عز وجل. وكذلك جميع أطفال المسلمين لهم من المنزلة والثواب مثل ما لأبنائهم.

ونسيت قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (٣٠) [الكهف]، وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. وهذا خطأ من قولك وقلة علم بحكم ربك، لأنك لا تعرف العدل ولا تميز معانيه، ولا قول الله عز وجل: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣]، وقال: ﴿وَلَا خَيْرَ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ (٢١) [الأنعام].

ونحن نقول: إن أطفال المسلمين كلهم في الجنة برحمة ربهم، لا بعمل عملوه، ولا أجر استحقوه، وذلك أنهم لما لم يكسبوا الذنوب، ولم يميزوا الجرائم، ولم يأتوا بالقبائح، ولم ينكروا الواحد، لم تحب عليهم حجة تلزمهم بها عقوبة، و[لما] كان من حكم الله سبحانه أنه لا يظلم ولا يعذب على غير ذنب، كان من جوده وكرمه وسعة ما عنده من الفضل والكرم، أن تفضل على الأطفال جميعا من ولد آدم بدخول الجنة، رحمة منه وتفضلا، إذ لا ذنب عليهم، فلم يميز في الحكمة والكرم إلا الامتنان بالرحمة، إذ لا ذنب تقع عليه عقوبة.

وأما قولك في أطفال المشركين: أنك تقف عنهم - زعمت - وتسير فيهم - زعمت - بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله، فتسبي أولاهم - زعمت - وتغنم أموالهم، فقد أخطأت في الشرح، وهلك في الاعتقاد، وغلطت في القول،

وخالفت الحق، إذ لست ممن جعل الله عز وجل إليه أحكام الاسلام، ولا اختصه بالإمامة، ولا اصطفاه بالولاية، ولا بوراثه مقام الرسول صلى الله عليه، ولست ممن يجب له الحلّ والعقد في الأحكام، ولا يجوز له سبي المشركين، ولا غنيمة أموالهم.

إنما ذلك للذين اصطفاهم الله جل ثناؤه، واختارهم على الأمة، وأورثهم حكم الكتاب والسنة، وافترض إمامتهم على الخليفة، حيث يقول عز وجل: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]. فلست من أولي الأمر، ولا لك حجة يجب بها لك سبي المشركين، ولا غنيمة أموالهم، دون من جعل الله إليه الأحكام، وقلّده أمور الاسلام.

فأما أنت يا مسكين، فإنها أنت رعية مرعيّ محكوم عليك، ولست براع ولا حاكم، بل الحكم عليك لمن هو أولى منك. فاعرف^(١) ما تقول، واعقل ما تأتي وتذر^(٢).

ثم هلك أيضاً، لأنك بينما أنت تناظرنا كيف مصيرهم في الآخرة، وكيف حكمهم أفي الجنة هم أم في النار، إذ وصفت^(٣) تفنياً في السبي وغنيمة الأموال، وأصل سؤالك إنما كان عن الجنة والنار؟ وكيف حكم الأطفال في المنزلتين؟ وسأل ما حكمهم في الآخرة؟ وزعمت أنك تقف عن أطفال المشركين، ولا تنزلهم منزلاً من أحد الدارين. فنقول: نراك الآن قد ناقضت بين قولك، وخلطت في مسائلك، أوليس من قولك: إن الله عز وجل أراد من الخلق أن يكون بعضهم كفاراً، وبعضهم مؤمنين، ثم جئت الآن بقوم آخرين، وزعمت أن لهم حكماً آخر، فصيرت الخلق على ثلاث فرق، بعدما قلت إنهم فرقان. وزعمت أنك تقف عن واحدة لم

(١) في (أ) و (ب): واعرف. ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) في (ب): يقول، واعقل ما يأتي ويذر.

(٣) في (ب): وضعت.

يخلق الله تعالى فعلها - على قَوْد قولك - ولم يقض عليها قضاء، ولم يرد منها إرادة، ولم يحكم فيها بحكم، ولم ينزل فيها كتاباً يعمل به المسلمون، ولا سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤثر عنه.

ونحن نسألك فنقول لك: أخبرنا عن هذه الفرقة الثالثة التي لم يرد الله عز وجل منها إيماناً ولا كفراً - على قولك - ولم يُنزل فيها كتاباً ولا ذكراً، ولا سنة ولا أمراً - على قَوْد قولك - أهم من خلقه فنسيهم، أم من خلق غيره؟ فلم يجب أن يحكم في خلق غيره !!

فإن قلت: هم من خلقه فنسيهم، كفرت وخرجت من الاسلام، لأنه عز وجل لا ينسى ولا يغفل عن أحد.

وإن قلت: هم من خلق غيره، أشركت ووجب سفك دمك.

وإن قلت: بل هم من خلقه.

قلنا لك: فهل ذكرهم في أحكامه وكتبه، أم غفل عنهم؟

فإن قلت: غفل عنهم، كفرت وشهد عليك القرآن بالتكذيب لك ولأهلك

مقالتك من المجبرة، حيث يقول عز وجل: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ (١٧)

[المؤمنون]، وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥)

[المؤمنون]، وقوله: ﴿مَا فَزَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقوله: ﴿وَمَا

تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر: ١١، فصلت: ٤٧]، وقوله: ﴿ثُمَّ

يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِيَکُونُوا شُرَکَا وَمِنْكُمْ مَن يَتَوَفَّىٰ مِنْ قَبْلُ﴾

[غافر: ٦٧]، يعني: الأطفال. وقوله: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ

(٩)﴾ [التكوير]. فهذا كله يدل على أنه عز وجل غير غافل عن الأطفال ولا

غيرهم، وأنه قد ذكرهم لنبیه صلى الله عليه، وجعل لهم حكماً في كتابه.

وإن قلت: إنه عز وجل لم يغفل عنهم، ولم يَدْعُ ذكرهم، ولا الحكم فيهم في حكمته وعدله وكتبه وسنة نبيه صلوات الله عليه، لزمك أنك قد كذبت على الله عز وجل، وخالفت حكمه، وعطلت كتابه، في وقوفك عن أطفال المشركين، ورجعت إلى قولنا بالعدل، وأن الله عز وجل لم يدع شيئاً من الأشياء حتى ذكره في كتابه وسنة رسوله صلى الله، من أسباب الدين، وما تحتاج إليه الأمة في أداء فرضها الذي كلفها، إذ قال: ﴿يَتَّبِعَانَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

والذي كذبت فيه وعطلت من الكتاب، وتركت حكم الله عز وجل في أمر الأطفال خاصة، قولك: إنك تقف عمن لم يقف الله عن ذكره، ولا عن بيان أمره، والحكم فيه، وإنه عز وجل أرسل رسوله محمد بن عبد الله صلوات الله عليه وعلى آله وسلم يقاتل المشركين، فإذا ظفر بهم لم يقتل أولادهم، وذلك الدليل على أنه لو قتل أولاد المشركين، لجاز عذابهم في الآخرة.

فلما لم يقتلهم عليه السلام لم يجز عذابهم في الآخرة، لأن الله عز وجل لا يعذب في الدنيا ولا في الآخرة على غير جرم، وكذلك أولاد الزنا من أهل القبلة، بان لنا من رحمة الله عز وجل وعدله فيهم، أن المرأة الحامل تستوجب أن يقام عليها الحد إذا فجرت، فلا يقام عليها ذلك الحد الواجب حتى تضع ما في بطنها، ثم لا يقام عليها الحد حتى تقطعه، ودليل ذلك واضح على رحمة الله عز وجل له، وأنه إنما أخر عنها الحد لحسن نظره للطفل لا لها.

وكذلك المشركة إذا كانت تحت أحكام الاسلام، فلزمها قتل أو حد من حدود الله عز وجل، التي يجب بها القتل، لم تقتل حتى تضع ما في بطنها، رحمة من الله عز وجل، وعدلاً منه على من لم يذنب، ولم يعص الله جل ثناؤه طرفة عين، ثم إذا وضعت لم يُقَمَّ عليها الحد أيضاً حتى ترضع حولين كاملين وتقطم، فهذا فعل الله

عز وجل وعدله وحكمه في الأطفال كلهم، من ولد آدم كلهم في الدنيا.
ثم زعمت أنه يجوز عندك وفي دينك أن الله عز وجل لا تدري ما هو صانع بهم
في الآخرة - بزعمك - حتى ألزمتك ذلك الشك وصيرتك إلى الوقوف عنهم -
زعمت - بجهلك لعدل الله جل ثناؤه.

وكيف تعرف عدله عز وجل وأنت مجتهد في إطفاء نوره، وعذر من عانده ،
وتكذيب كتابه في حكمته، وإلزامه ذنوب المشركين، والكفار وجميع العاصين؟!
سبحان الله العظيم، ما أشنع ما قلتم !!

وكيف تقف ويحك عن أطفال المشركين واليهود والنصارى، أو واحد من ولد
آدم عليه السلام، والله عز وجل يقول: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ ((٤٦)) [فصلت]،
وقوله: ﴿أَلَا تَنزَرُ وَابِرَةً وَزَّرَ أَخْرَى (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ
سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوَّلَى (٤١)﴾ [النجم]، وقوله عز وجل:
﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْغَتْ رَسُولًا (١٥)﴾ [الإسراء]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ
مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمَةٍ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ [القصص: ٥٩]؟!

فتراه لم يرد أن يهلك البالغين حتى يُعذر إليهم، فكيف يهلك الأطفال البريثين^(١)
بغير جرم؟!

وقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقوله:
﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ (٨١)﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿ثُمَّ نُوَفِّي كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾
[البقرة: ٢٨١، آل عمران: ١٦١]، وقوله: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ

(٩) ﴿[التكوير]، والمؤودة هي: الأطفال، بإجماع الخلق، فالله يقول في دار الدنيا ويذم من قتل المؤودة: ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩)﴾، ثم يعذبها - زعمت - بالنار يوم القيامة، عز عن ذلك العدل الذي لا يجوز !!

ووقفت أنت عن هذا الحكم من شدة ورعك - زعمت - وأنت تفترى على الله عز وجل وتجوّره في كتابه وأحكامه كلها، ثم تتورّع عن ذلك، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾ [الشعراء] !!

فكيف جاز عندك أن تضع كتاباً تقول فيه لمن خدعته من الجهال: إنك تقف عن أطفال المشركين؟!

فليت شعري لأي علة وقفت عند نفسك عنهم، أشككت أن الله عز وجل لا يدخل أطفال المشركين الجنة؟ فيلزمك فيها شككت فيه أن يدخلهم النار، إذ لا منزلة في الآخرة توجد ثالثة غير الجنة والنار، فيبين ظلمه وجوره عليهم، عز عن ذلك العدل الذي لا يجوز !!

أو يكونون عندك لا في جنة ولا في نار، فيلزمك أن في الآخرة داراً ثالثة لم يخبرنا الله عز وجل بها فجعلتها أنت، لأن يجوز كذلك وتخالف الكتاب، حتى تقبل منك المجبرة وقوفك عن أطفال المشركين.

فإن قلت: بدار ثالثة، كفرت وخالفت جميع الفرق، وخرجت من قول أهل القبلية. واليهود النصارى لا يقولون بدار ثالثة في الآخرة. فاختر أي هذه المضايق الخائفة لك شئت، فلا بد لك من القول بواحدة منها، أو التوبة عن الجبر والرجوع إلى العدل الذي سميت ضده: عدلاً، لجهلك بعدل الله عز وجل، فالتوبة خير لك من التهادي في الباطل والعمى.

﴿فَوَقَّ كُلُّ ذِي عِلْمٍ عَالِمٌ (٧٦)﴾ [يوسف]. وهذه حجة باهرة لكم، لا يقدر

أهل الجبر لها على نقض، فاتق الله وإياك أن تكون من الذين ﴿قَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَصْلَحْنَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِنَا صُغْفِيرًا مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَاهُمْ لَعْنَا كَبِيرًا (٦٨)﴾ [الأحزاب]. فاسمع إلى تبرئتهم منهم، ولعنهم إياهم بعد المودة في الدنيا، على الحمية والخطأ الذي أورثهم النار، ﴿فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١)﴾ [المؤمنون].

وأما قولك: إنا نقول: إن أطفال المشركين مؤمنون، فليس ذلك قولنا لا نقول إنهم مؤمنون ولا كافرون، وإنما هم عباد الله سبحانه لم يأتهم رسول فكذبوه، ولم ينزل عليهم كتاب فجحدوه، ولم تلزمهم حجة فأعرضوا عنها، ولم يركبوا الله جل ثناؤه معصية، ولم يعملوا له طاعة، فأوجب الله عز وجل الجنة برحمته لهم، وتفضله عليهم، إذ هو أهل الفضل والاحسان، وإذ لا جرم لهم، ولا ذنب عليهم، ولا حجة لزمهم، فهذا هو العدل وهو الحق، وهو الأولى بالواحد الكريم.

ورحمته عز وجل قد بانت وصحت لهم في الدنيا قبل أن تحيى الآخرة، إذ لم يقتلهم بها وجب على آبائهم وأمهاتهم من الحدود والأحكام، ولم يقتل أمهاتهم بعد لزوم الحدود لهن، لحسن نظره لهم ورحمته إياهم، حتى فطمهم واستغنوا عنهم، فهذا أكبر دليل، وأصح قيل، لو لم يكن لهم ذكر في القرآن غير هذا لكفى، والحمد لله رب العالمين.



أ شبهة في موارث أطفال اليهود والنصارى المشركين]

فأما ما سألت عنه من موارث أطفال اليهود والنصارى وأولاد المشركين، فإننا نقول: إنهم غير مخرجين من موارث أهل ملة آبائهم، لأن ذا أمر قد جرت فيه السنن من رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، إذ قال: «أهل ملتين لا يتوارثون»^(١)، فليس لأحد كلام بعد قول الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد قال الله عز وجل: ﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وليس لأحد أن يخالف السنة والكتاب. وقال عز وجل: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وليس قولنا: إن أولاد المشركين ولا اليهود ولا النصارى مؤمنون ولا كفار^(٢)، ولا يجوز ذلك، إذ لا عمل لهم.

وكذلك أيضا نحن نقول: إن أولاد المؤمنين لا مؤمنون ولا كفار، وإنما الأطفال كلهم حكمهم حكم واحد، هم عبيد الله عز وجل لا حجة عليهم، إنها يدخلهم الجنة جميعاً برحمته وبفضله، على ما قد بينا وشرحنا، والحمد لله رب العالمين.

وعلى أنه قد جاء في تفسير القرآن، حيث يقول: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ﴾ (٨٨) ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ﴾ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) [الواقعة]، فقال أهل التأويل: إن أصحاب اليمين هم الأطفال، ثم قال: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ (٩٢) فَتَرْزُلُ مِنْ حَيْمٍ (٩٣)

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه ج ٢/ص ٩١٤/ح ٢٧٣٦، وابن الجارود في المتقى ج ١/ص ٢٤٣/ح ٩٦٧، والدارقطني في سننه ج ٤/ص ٧٣/ح ١٦، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٦/ص ٢٢٢/ح ١٢٠٢٩.

(٢) في (ب): مؤمنين ولا كفارا.

وَتَضَلِّيَّتُهُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا هُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴿[الواقعة]. فذكروا أن المقربين هم المؤمنون، وأن أصحاب اليمين هم الأطفال، وأن المكذبين الضالين هم الكفار، والعاصون من أهل النار. وجملة الخبر أن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)﴾ [الإسراء]. وهذه الآية توجب اللجنة لجميع الأطفال كلهم جميعاً، والحمد لله رب العالمين.

وأما قولنا نحن والذي نفسره، فإن أصحاب اليمين هم الذين عملوا الأعمال التي ترضي الله عز وجل وتجنبوا معاصيه، والدليل على أنهم أصحاب الأعمال خاصة، قول الله عز وجل في كتابه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَتَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩)﴾ [الانشقاق].



شبهة من مَيِّز بين الكفر والايمان

ثم قال عبد الله بن يزيد البغدادى: ثم سلهم عن بدعتهم في قولهم: إن الله عز وجل لم يخلق الكفر والايان، وإن العباد خلقوه، وليس من خلق الله الايان والكفر ! فسلهم عمن جعل الايان غير الكفر، والكفر غير الايان؟
فإن قالوا: إن الله جعل ذلك.

فقل: أليس قد جعل الكفر غير الايان، والايان غير الكفر، وجعل الله صنعه؟
فإن قالوا: نعم، صنعه خلقه.

فقل: فأخبروني عما كان الله صانعه وجاعله، أليس الله هو خالقه؟
فإنهم لن يجدوا بداً من أن يقولوا: نعم، لأن صنع الله خلقه وجعله.
فإن أعطوك هذا دخلوا في قولك، وأعطوك أن الله جعل الكفر وصنعه وخلقه، ولن يعطوك هذا.

وإن قالوا: إن العباد جعلوا الكفر غير الايان، والايان غير الكفر، ولم يجعل الله ذلك، لم يجعل الايان غير الكفر، ولا الكفر غير الايان.

فإذا لم يجعل هو ذلك، فكيف يثيب على الايان وهو لم يجعله غير الكفر؟
وكيف يعذب على الكفر وهو لم يجعله غير الايان؟

إن الله لم يجعل - في زعمكم - التوحيد حسناً، ولا الشرك بالله قبيحاً، فكيف يقع الثواب على ما لم يحسن الله ولم يقبح؟! ولم يجعله كفراً ولا إيماناً، والله إنها ذكرنا في كتابه أن الثواب على الايان، والعقوبة على الكفر، فهو لم يجعل إيماناً ولا كفراً، فكيف يثيب على ما لم يجعله هو إيماناً ولا كفراً؟!

ولو شاء العباد لصنعوا الكفر إيماناً، والإيمان كفرًا، لأنهم إنما صنعوهما وجعلوهما، وحسّنوهما وقبحوهما، والله لم يصنع ذلك ولم يجعله، ولم يفتح الكفر، ولم يحسّن الإيمان! أفليس لو شاء العباد لجعلوا الكفر إيماناً، والإيمان كفرًا؟!^(١)

وهم الذين يقبحون ويحسنون، فلو حسّنوا الكفر وقبحوا الإيمان، لكان كما صنعوا، لأنه ليس لله فيه صنع. فإذا كانوا يجعلونه فما بالهم لا يغيثون إن شاؤوا ما قبحوا، فيعملونه حسناً ويحسنون ما قبحوا؟!^(٢)

فإن أعطوك أنهم إن شاؤوا فعلوا ذلك، فقد أمكنوك من حاجتك، وأعطوك أن العباد لو شاؤوا لأثاب الله على الكفر الجنة، وعذب على الإيمان، ولو شاء العباد جعلوا الكفر إيماناً، والإيمان كفرًا، ولم يجعلوا لله في ذلك صنعا، وجعلوا الجنة لمن شاؤوا هم، والنار لمن شاؤوا، ولن يعطوك هذا. ولا بد لهم إن أحسنت أن تسألهم. فانظر مواقع هذه المسائل، فإنك إن أحسنت مساءلتهم على هذا الوجه، وقادوا لك هذا الكلام، دخلوا في الزندقة.

وإن قالوا: إن الله إنما جعل اسم الكفر واسم الإيمان، ولم يجعل الإيمان ولم يجعل الكفر، فقل لهم عند ذلك: أخبروني عن اسم الإيمان، أهو الإيمان؟ وعن اسم الكفر، أهو الكفر؟

فإن قالوا: اسم الإيمان هو الإيمان، واسم الكفر هو الكفر، فقد أعطوك أن الله جعل الإيمان والكفر، وصنعها وخلقها، لأن اسم الكفر هو الكفر، واسم الإيمان هو الإيمان، فإذا جعل الأسماء فالأسماء^(٣) هي الأشياء بعينها، فقد جعل أسماءها وأسماءها هي هي. وليس اسم الكفر غير الكفر، وليس اسم الإيمان غير الإيمان. فقد لزمهم لنا أن الله قد جعل الكفر والإيمان، وصنعها وخلقها.

(١) في (أ): والأسماء.

وإن قالوا: إن اسم الكفر غير الكفر، واسم الايمان غير الايمان، والكفر المعنى الذي وقع عليه الاسم، والاسم ليس بكفر ولا إيمان!

فارجع إلى صدر مسألتنا فقل لهم: أفليس العباد جعلوا الايمان غير الكفر، والكفر غير الايمان، وهم جعلوا الكفر قبيحاً، والايمان حسناً، والله لم يجعل ذلك؟! ثم ارفع إلى ما رفعتهم في صدر المسألة، فإنهم لن يجدوا مخرجاً، ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٨٨، ١٤٣].

الجواب قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: إنها هذه المسألة التي طوّلت فيها، إنما كررت فيها المعاني بالفاظ مختلفة، وكلها تقتضي معنى واحداً، ونحن نقول: إن الله عز وجل ذكر الجعل في كتابه ووصفه عز وجل على وجهين اثنين، واضح ذلك في القرآن غير خفي عن أحد، لأنه حجة الله عز وجل على خلقه التي لم تتدبرها المجبرة، ولم يركنوا فيها إلى العلماء، ولم يأخذوا الحق من معدنه، وقلدوا عبد الله بن يزيد البغدادي وغيره أمر دينهم قبل البحث وإنعام النظر، ووطء الحجج والبراهين الشاهدة للحق، فهلكوا عند الله عز وجل.

واعلم أن أحد الوجهين اللذين ذكرت لك أن الجعل على وجهين:

أحدهما: جعل حكم وتسمية، أي: ساهم بفعلهم، وحكم عليهم بفعلهم، لا أنه خلق ذلك ولا قدره، وهو قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة: ٢٤]، أي: سميناهم بفعلهم، وحكمنا عليهم بفعلهم، مثل ما تقول العرب في لغاتها التي قد جعلها الله عز وجل حجة على قوم محمد صلى الله عليه وعلى آله، حين يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، فلو جاءهم بغير اللغة العربية ما عرفوه عنه، ولا لزمته طاعة، فتقول العرب: أضلني فلان، أي: سباني ضالاً.

قال الكميّ بن زيد الأسدي رحمه الله:

فطائفةٌ قد أكفروني بحُبِّكم وطائفةٌ قالوا مُسيءٌ ومُذنبٌ
يعني أنهم سموه: كافراً، ولم يجعلوا فيه الكفر جعلاً.

وكذلك أيضاً الجعل، مثل قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [القصاص: ٤١]، فذلك جعلُ حكم وتسمية، ومثل ذلك: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥، الإسراء: ٤٦]، أي: سميناهم وحكمناهم عليهم بفعلهم، ولو كان عز وجل هو الذي جعل الأكنة على قلوبهم، على ما يعقل من الحجب والأستار، ثم أرسل إليهم^(١) بقرآن، افترض عليهم استماعه والعمل بما فيه، وقد حال بالأكنة بينهم وبين استماعه، لزال الحجة، ولسقط عنهم الفرض.

والشاهدُ على ذلك، قوله: ﴿فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ١٠٨]، غير مجبور ولا مخلوق فعله، وكفى بهذه الآية شاهداً لنا أن من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، غير مجبور ولا مخلوق فعله.

والشاهدُ لنا على ما ذكرنا في الأكنة، إقراركم لنا يا معشر المجبرة أن الأصمّ الذي لا يقدر على السمع، قد زال عنه فرض استماع القرآن والعمل بما فيه، وأنه إن عقل الصلاة بتعليم الإيباء، جازت له وقُبلت، بلا قراءة الحمد وسورة معها، وقد جاءت السنة أن كل صلاة بغير قراءة الحمد فهي خداج، فهذه حجة قاطعة لا حيلة لكم فيها.

وأما الجعلُ الآخر: فهو قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفَافًا مَّحْضُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ﴾ [الإسراء: ١٢]، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ

(١) في (ب): عليهم.

وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩، الملك: ٢٣]. وكلُّ جعلٍ في القرآن على وجهين، لا يوجد فيه وجه غير ما قلنا. فأحدهما: جعلُ حكم وتسمية.

والآخر: جعلُ حتم وجبر وقسر لا يخرج منه.

فأما قولك: من جعل الكفر غير الايمان، والايمان غير الكفر؟!

فإن كنت تريد بذلك: مَنْ خلق الايمان غير الكفر، والكفر غير الايمان؟! فالكفار هم الذين خلقوا الكفر، أي: فعلوه وعملوه وصنعوه.

والشاهد على ذلك أصدق شاهد وأعدله، قول الله عز وجل: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِنْكَاء﴾ [العنكبوت: ١٧]. إلا أن تردّ على الله عز وجل وتكذب قوله، أو تقول ليس هذه الآية في القرآن، فما نعلم لك مخرجاً ولا مغيصاً تلجأ إليه إلا الجحدان، وقد قال الله عز وجل في سورة براءة: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٣]، فلا يقدر أحد من جميع الخلق كلهم أن يدعي أن الله عز وجل بريء من خلقهم ولا من رزقهم، ولا من حياتهم ولا من موتهم، ولا أنه بريء من المشركين في وجه من جميع الوجوه كلها، بالصحة والحجة القاطعة، إلا من فعلهم، وإذا برئ من فعلهم، صح أن ليس له في فعلهم فعلٌ بوجه من جميع الوجوه كلها، ولا سبب من جميع الأسباب كلها، وإلا فهاتوا حجة تدلنا على معنى آخر برئ الله منه غير أفعالهم كلها.

وكذلك قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله: «اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد بن الوليد»^(١). فإن كان فعل خالد بن الوليد هو فعل الله عز وجل، أو لله فيه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ج ٤/ص ١٥٧٧ ح ٤٠٨٤، والنسائي في سننه ج ٨/ص ٢٣٧

ح ٥٤٠٥، وابن حبان في صحيحه ج ١١/ص ٥٤٩ ح ٤٧٤٩، وأحمد بن حنبل في مسنده ج ٢/

ص ١٥١ ح ٦٣٨٢، والنسائي في سننه الكبرى ج ٣/ص ٤٧٤ ح ٥٩٦١.

فعل بمقياس شعرة، لزم النبي صلى الله عليه أنه قد برئ من فعل الله !! ومن برئ من فعل من أفعال الله ولو صغر ذلك الفعل، لزمته البراءة من الله، ومن برئ من الله فقد كفر، ومن كفر فقد صار إلى النار، فقولوا في رسول الله صلى الله عليه ما شئتم. فلعمري لقد افترىتم على الله عز وجل، فهو أجدر أن تفتروا عليه.

وزعمت يا عبد الله بن يزيد البغدادي وأصحابك المجبرة: أن الله خلق فعل المشركين، وخلق - زعمت - صنعه، فكيف يخلق خلقاً ثم يثبأ منه، أيحوز هذا في حكم عادل حكيم، لا، بل هل يحوز هذا على عابث جاهل؟!

معاذ الله !!

أما إذا صدق نفسه، وأنصف عقله، عليم ذلك الجاهل أنه إذا فعل فعلاً، لم يصلح عند نفسه أن يثبأ منه، وإذا لم يجز في حكمة الحكيم الذي لا يظلم، أن يقول في كتابه: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] !! وكان الصواب والعدل والحق أن يقول: ظهر الفساد^(١) في البر والبحر بما صنعت وخلقت، وأردت وقدرت من أفعالي بالناس، ولا يعتفهم في أمر هو خلقه وأراد، فإن في الناس من يميز عليه هذا الحكم.

وقد حكى مثل ذلك من عييه لهم، حيث قال: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ (١٣٤) [طه]. فهذا دليل على العدل، وعلى أن الاستطاعة قبل الفعل.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢، الأنفال: ٥١]، وقوله: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧) [السجدة]^(٢). مع آيات كثيرة، في كل سورة تشهد

(١) سقط من (أ): الفساد.

(٢) في (أ) و (ب): ﴿جزاء بما كنتم تعملون﴾، ولا يوجد في القرآن بهذا اللفظ.

لعدل الله عز وجل، وتنفي عنه الجور والظلم، وخلق أفعال العباد، وإرادة السوء والظلم والفساد، اختصرنا فيها خوف التطويل.

ومن الجعل الآخر^(١) أيضاً الذي هو جبر وحتم، قوله عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، فهذا جعل حتم وخلق - على قَوْد قولكم - لأنكم أيها الخوارج تدعون القول بشيء من معرفة التوحيد، فمن حجتكم في التوحيد - زعمتم - أنكم تقولون: إن القرآن مجعول، وكل مجعول مخلوق. فهذا يلزمكم لنا أحببتم أو كرهتم، لأنه أصل قولكم في التوحيد.

فإن قلتم: وكذلك يلزمنا نحن أيضاً أن كل مجعول مخلوق من غير القرآن، من الجور والظلم، والفسق والكفر، الذي زعمت أن الله خلقه وصنعه، فإننا نقول لكم، راذين عليكم، فإن قصيدة لبيد بن ربيعة الكلابي التي هي سمطه^(٢) التي يقول فيها: عَفَّتِ الدِّيَارُ مَحَلَّهَا فَمَقَامُهَا بَمَنْى تَابَّدَ عَوْلُهَا فَرَجَاهُهَا^(٣)

مجعولة جعلها لبيد بن ربيعة الكلابي وصنعها، والله عز وجل - زعمتم - الذي خلقها كما خلق القرآن، وصنعها كما صنع القرآن - على قَوْد قولكم - فلا بد لكم من أن تُقرّوا بذلك، أو ترجعوا عن دعواكم، لأخذنا بأكظامكم في هذا الموضع، فتقولوا: إن الله عز وجل لم يخلق قصيدة لبيد ولم يصنعها.

فإن قلتم: إن الله عز وجل خلق قصيدة لبيد، على دعواكم أن الله خالق كل شيء. قلنا لكم: وكذلك خلق الله القرآن، فما الفرق بين الشعر والقرآن في الفطرة والصناعة؟ وما فضل أحدهما على الآخر؟ فلا تجدون فرقاً تدفعوننا به، لأن الشعر -

(١) سقط من (ل): الآخر.

(٢) السمط من الشعر: أبيات يجمعها قافية واحدة مغالطة لقواني الأبيات. القاموس، مادة: سمط.

(٣) البيت من معلقة لبيد العامي.

في زعمكم: - الله خلقه والقرآن الله خلقه - زعتم - فجاز لمن صلى بقصيدة لبيد وغيرها من الأشعار، وجاز لمن صلى بالقرآن، لأنه كله - على زعمكم - خلق الله وصنعه، وصنعه خلقه، وخلقه صنعه، على ما قلت يا عبد الله بن يزيد البغدادي في أول مسألتك هذه خاصة.

فإن قلت: إن الله عز وجل افترض الصلاة بالقرآن، ولم يفترض الصلاة بالشعر. قلنا لك: صدقت، ولكن هات لنا حجة تفرق بها بين خلقه للقرآن، وبين خلقه للشعر؟

فإن قلت: إن الفرق من قبل أن القرآن خلقه وحده لم يشركه فيه أحد، والشعر خلقه هو وغيره من الشعراء - على قود قولكم - فعل من فاعلين، وإنه لله خلق وللعباد كسب.

قلنا لك: فقد لزمك أن الله عز وجل شريكاً في خلقه، ولا بد لك أن تقول: إن الله جل ثناؤه وليد بن ربيعة الكلابي صنعا القصيدة، وخلقها خلقتها المعروفة.

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلُّهَا فَمَقَامُهَا بَمَنْى تَابَدَ غَوْهَا فَرَجَامُهَا
فتقول: إنها خلقها جميعاً وصنعاها، فلله نصفها ولليد نصفها - على قود قولك - فيجب عليك أنك قد رجعت عن قولك: إن الله خلق أفعال العباد، وصرت بأنه يخلق نصف أفعال العباد، وانتقض قولك الأول الذي تطاولت به، وانتفخت علينا بسجعه.

وإن قلت: إنك لا تقول إن الله خلق نصف قصيدة لبيد، وليد خلق نصفها الآخر.

قلنا لك: فكيف تقول في القصيدة، من خلقها هي وسائر الأشعار، إذ قد رجعت وكرهت أن تقول: إن الله خلق نصفها، وليد بن ربيعة نصفها، فهل تقول:

إن الله خلقها وحده منفرداً بها، لا شريك له في خلق القصيدة؟! وخلقه صنعه - زعمت.

فإن قلت: نعم، الله الذي تفرد بخلق القصيدة وصنعها وحده، لزمك صاغراً داخراً عاثراً أن الله عز وجل الذي صنع هذا القول، جلّ الله عن قولكم، وهو قول لبيد بن ربيعة:

بل ما تذكّر من نوازٍ وقد نأت وتقطعت أسبابها وزمائها^(١)
 فيلزمك - ويلك - أن الله عز وجل يصنع الغزل ويخلقه - على قود قولك - واحتجاجك أن الله خلق كل شيء من جميع الأشياء من العباد، من كفر أو إيمان، أو طاعة أو عصيان^(٢)، أو شعر، أو غيره، وقولهم الخطأ والخنا، وأن خلقه صنعه - زعمت - وأن ما خلقه فقد صنعه.

فاسمع ما يلزمك من الفضيحة الهائلة في هذه القصيدة، وما ألزمت الله عز وجل من خلقه لها، وإن ذلك يلزمك الشرك، ويخرجك من الاسلام، لما قلت: إن الله يصنع الأشياء كلها ويخلقها.

فاسمع ما يلزمك في ذكر النساء، ووصف أسبابهن، ونعت الخمر، وصفة الإبل والخيل، والقفار، والحل والارتحال، وتقطع الوصال، فيلزمك أن معبودك هو الذي خلق هذا الشعر كله، وكل شعر على وجه الأرض فيه الغناء والقيبح. من ذلك قول لبيد في البيت الثاني:

مُرِيَّةٌ حَلَّتْ بِفَيْدٍ وَجَاوَرَتْ أَهْلَ الْحِجَازِ فَأَيْنَ مِنْكَ مَرَامُهَا^(٣)

(١) معلقة لبيد.

(٢) ني (١): وعصيان.

(٣) معلقة لبيد.

فيلزمك أيها الجاهل بالله عز وجل أنه يشكو الحزن عليها، والغم بفراقها وبُعدِ نأيها، وأن مزارها لا يرومه ولا يقدر عليه لبعد دارها.

البيت الثالث:

فَاقْطَعْ لُبَانَةً مِنْ تَعْرِضٍ وَصَلُّهَا وَلِشَرٍّ وَاصِلٍ خُلَّةَ صَرَامُهَا
فيلزمك أن معبودك - عزَّ الله وتعالى عما قلتم - يعزي نفسه عن طلب
الوصال، ويشكو جفاء المواصل.

البيت الرابع قوله يصف الناقة:

بَطْلَيْحِ أَسْفَارٍ تَرْكَنَ بَقِيَّةً مِنْهَا فَأَحْنَقَ صُلْبُهَا وَسَنَامُهَا
فيلزمك أنه يصف الإبل والمسافرة عليها، وأنه قد أهرَّها بطول الأسفار، التي
لا تقطع المهامه إلا على تلك الحال.

البيت الخامس:

أَفَلَمْ تَكُنْ تَدْرِي نَوَارُ بَنَانِي وَصَّالٍ عَقَدَ حَبَائِلِ صَرَامِهَا
فيلزمك أنه عز وجل يصف مواصلة النساء تارة، ويصف صرم حباتهن تارة
أخرى، ولا يفعل هذا إلا أهل الغزل والطرب والسفه.

البيت السادس:

تَرَاكُ أَمَكْنِيَّةٍ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا أَوْ يَرْتَبِطُ بَعْضُ النَفُوسِ حَمَامُهَا
فتلزمك البلية العظمى أنه يقول مثل هذا القول، الذي يقول فيه أو يرتبط
بعض النفوس حمامها، والحيام في لغة العرب هو: الموت لا شك فيه.

البيت السابع قوله:

بَلْ أَنْتِ لَا تَدْرِينَ كَمْ مِنْ لَيْلَةٍ طَلَّقِي لِذِيذِ لُحُومِهَا وَمُدَامُهَا

فيلزمك أنه - عز وجل عن ذلك - يصف السهر واللذة فيه، باللهر والمدام،
والمدام هو الخمر عند العرب.
البيت الثامن من قوله:

قَدِ بَتُّ سَاهِرِهَا وَغَايَةِ تَاجِرٍ وَافِيَتْ إِذْ رُفِعَتْ وَعِزُّ مُدَامُهَا
فيلزمك أنه يصف الخمر وموافاتها إذا غلت عند الحمار، وأنه يصف السهر
بالليل مع الشراب، لأنك زعمت أن خلقه صُنْعُهُ، فيلزمك أن ما ذكرنا من هذه
العظائم صنع الله عز وجل.
البيت التاسع من قوله:

أُغِيلِي السَّبَاءَ بِكُلِّ أَدَكْنٍ عَاتِقٍ أَوْ جَوْنَةٍ قَدِ دَخَتْ وَقُضَّ خِتَامُهَا
فيلزمك أنه يصنع ويُغلي شراء الخمر، ويذل الثمن في أزقاق الخمر، والأدكن
عند العرب هو: الزق، والجونة هي: الجرة التي تقدح، ويقض خاتم يكون عليها كما
تصف العرب.

البيت العاشر قوله:

بَاكَرْتُ حَاجَتَهَا الدَّجَاجَ بِسُحْرَةٍ لِأَعْلَ مِنْهَا حِينَ هَبَّ نِيَامُهَا
فيلزمك أنه - عز وجل عما قلت - خلق هذا القول وصنعه، وخلقهُ صُنْعُهُ
عندك، وأنه يباكر قبل صباح الديك الخمر، ليعَلَّ منها، أي: يشربها في قول ليبد
يصف نفسه حين استيقظ ندماءه النيام. فزعمت أن الله تعالى صانع هذا القول، ولا
نعلم شركاً في الأرض هو أعظم من هذا الذي وضعت علينا في الكتب، فانظر ماذا
نزل بك.

البيت الحادي عشر قول ليبد أيضاً:

وَعَدَاةٌ رِيحٍ قَدْ كَشَفَتْ وَقْرَةَ قَدْ أَصْبَحَتْ يَبِيدُ الشِّمَالِ زَمَامُهَا

فيلزمك كل بلية وشناعة في صفة خالفك البريء من كذبك، والفرية عليه.

البيت الثاني عشر:

بصُوب صافية وجذب كرينية بمُوتَرٍ تَأْتالُه إِيَّاهُما
فيلزمك أيها المالك في دينه، الصادّ عن صراط ربه، أنه يصف الصبوح من
الصفافية وهي الخمر، ويصف الضاربة بالعود وهي الكرينة في لغة العرب التي ذكر
ليبد، والموتَر هو العود الذي اتخذهُ السفهاء لهواً وطاعة للشيطان.

البيت الثالث عشر من قول ليبد:

ولقد حَمَيْتُ الحَيَّ حَمِلُ شَكَّتِي فُرْطُ وشاحي إذ عَدَوْتُ لِحَامُهَا^(١)
فيلزمك أنه - عز وجل من ذلك - يحمي الخيل وتحمل شكته الدواب وتحمله
- تبارك وتعالى - وأن وشاحه لحامه، أراد بذلك ليبد بن ربيعة الكلابي، أن العرب
إذا نزلوا عن خيولهم لحوائجهم ومخاطباتهم، ربطوها وخلعوا لجامها، فيتوشح
الرجل منهم بلجام فرسه مع سيفه، يتقلده كما يتقلد بحمائل سيفه، وهذه صفة
المخلوقين، عزّ الله وتعالى عما قالت المجبرة علواً كبيراً !!

وإنما احتججنا عليك بهذا القول عمداً، ليعلم من له أدنى عقل أنك يا عبد الله
بن يزيد البغدادي، ومن دان بمثل قولك من أهل الجبر، القائلين إن الله خلق أفعال
العباد كلها، قد بانت فضيحتكم، وسقطت دعواكم، وصح كفركم وباطلكم بما
ذكرنا، وأوجبنا عليكم من الحجة القاطعة، فيما ألزمناكم من شعر ليبد.

ثم نقول لكم: أخبرونا متى خلق الله عز وجل قصيدة ليبد، قبل اكتساب ليبد
لها، أم بعده؟

فإن قلت: إن الله خلق القصيدة قبل اكتساب لبيد لها، وخلقه صنعه - زعمتم -
- لزمكم أن الله عز وجل قد صنع كل ما في قصيدة لبيد من العظام، وكذلك كل
شعر هو صنعه وفعله.

وإن قلت: إن الله عز وجل خلق قصيدة لبيد بعدما اكتسبها لبيد، لزمكم أن
قول لبيد لها كان قبل صنع الله، وأن صنع الله إنما هو تابع لصنع لبيد، فاختاروا أي
هذين القولين شئتم، فأبها ما قلتم به، الزمكم الكفر والخروج من دين الاسلام.
ثم نقول لكم: لا بد لكم أن تقولوا: إن الله عز وجل خلق هذه القصيدة وحده
منفرداً بخلقها وصنعها، لا صانع لها غيره.

فإن قلتم ذلك وأجزئتموه. قلنا لكم: فقد لزمكم في صفة ربكم ما وصف لبيد،
وأن لبيد لا فعل له فيها، وكفرتكم.

وإن قلتم: إن الله عز وجل خلق بعضها، ولبيد بعضها، لزمكم أن معبودكم
خلق نصف ما قال لبيد وصنعه، ونصف ما قالت الشعراء أو صنعت، من وصف
الخمير والمغنيات وجميع البلايا !!

وهذا ما لم يسبقكم إليه الزنادقة ولا المجوس، ولا أحد من الملحدين، ولم تظن
يا عبد الله بن يزيد البغدادى ولا غيرك من المجبرة أنكم تجابون بمثل هذا الجواب
الهاتك لأستاركهم، والمبين لعواركم أبداً !! ولا بد لك من أن تقول ببعض هذا.

وإن قلت: لا أقول إن الله خلق أشعار العرب ولا صنعها، لزمك أنك قد
رجعت عن قولك بالجبر، وصرت إلى قولنا بالعدل، وأن الله لم يصنع أشعار
العرب، ولزمك أنك قد كنت كاذباً علينا في دعواك: أنا مفترون على الله عز وجل.

ثم نقول لك: أليس قد ذم الله عز وجل الشعراء، حيث يقول: ﴿وَالشُّعْرَاءُ
يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا

يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ [الشعراء]. فهل يجوز أن الله عز وجل خلق وصنع من شعرهم ما عاب عليهم وهو خلقه وصنعه؟! وهل هذه صفة حكيم عادل، وهو يقول في كتابه: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٤٤) [البقرة]؟! وكيف يؤدبنا على شيء ثم يفعله، عز عن ذلك وجل!!

ثم نقول لعبد الله بن يزيد البغدادى ولمن قال بقوله: أخبرونا عن القصيدة التي هجا بها عمرو بن العاص رسول الله صلوات الله عليه، فلما بلغ النبي صلى الله عليه وآله خبره قال: «اللهم إني لا أقول الشعر، فإلغنه بكل بيت لعنة»^(١)، فنقول لكم: أليس في قولكم أن الله عز وجل خلق تلك القصيدة؟

فإن قلتم: نعم، لزمكم أن الله جل ثناؤه هو الذي هجا رسوله صلى الله عليه، وهذا كفر من قائله.

وإن قلتم: لم يخلق قصيدة عمرو بن العاص، رجعت عن قولكم، وبأن كذبكم، وصح أن الحق معنا دونكم.

ثم نقول لكم: أخبرونا أليس من خلق شيئا وصنعه، لزمه أنه رب لذلك الشيء؟ فإذا قالوا: بلى.

قلنا لهم: أفجائز عندهم أن يقول القاتل إذا دعا ربه: يا ربَّ الأشعار والقصائد اغفر لي ذنوبي! أو هل يجوز أن يدعو فيقول: يا رب الزنا، يا رب الخمر، يا رب اللواط، يا رب المعازف، يا رب الفواحش، يا رب القتل والظلم، والكذب والربا، والكفر والشرك، اغفر لي ذنوبي!

فإن قلتم: نعم، ذلك جائز أن يُدعَا به.

قلنا لكم: فهل هذه الأسماء حسنة أم قبيحة؟!

فإن قلتم: أسماء حسنة، بأن كذبكم وكفركم عند جميع الأمة، إذ سميت القبيح في العقول: حسناً، وخرجتم من المعقول.

وإن قلتم: لا، بل هي قبيحة.

قلنا لكم: فلم أجزم أنه جائز أن يدعو الداعي بها إلى الله عز وجل، والله عز وجل يقول: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٨٠) [الأعراف]. فيجب عليكم الرجوع إلى ما نوجب عليكم من الحجج القاطعة، التي لا مخرج لكم منها، والحمد لله رب العالمين.

ومن الحجج لنا على عبد الله بن يزيد البغدادى، وعلى من قال بقوله من جميع أهل الجبر والإلحاد في صفة الله جل ثناؤه، أنا نقول لهم: خبرونا عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ [ص: ٢٧]، أليس هذا في القرآن؟!

فإن قالوا: بلى.

قلنا لهم: فأخبرونا عن الكفر والشرك، وجميع المعاصي والفواحش كلها، التي ادّعا عبد الله بن يزيد أن الله عز وجل خلقها وصنعها، وأرادها وقدرها، وكذب المفتري على الله، أليس هي بين السماوات والأرض؟ فلا بد لهم من أن يقولوا: نعم.

فنقول لهم: فخلق الله للشرك والكفر وجميع المعاصي التي ذكرت، أحق هو أم باطل؟ أم خلق ذلك كله لا حق ولا باطل؟!

فإن قالوا: خلقه الله حقاً؟

قلنا لهم: فهو حق كما خلقه الله حقاً.

فإن قالوا: لا، لزمهم لنا ووجب عليهم أن الله عز وجل لم يخلق الأشياء على أمر من الأمور يوقف عليه، فنحن على خلاف الأمر الذي خلقنا الله عليه، فهم لا يدرون لعل الله خلق الناس حميراً والحمر ناساً، وهذا غاية التجاهل والعمى !!

وإن قالوا: لا نقول ذلك، ولكننا نقول: خلق الله جميع ذلك حقاً.

قلنا لهم: فالكفر والشرك، وقول أهل الدهر، وجميع المعاصي حق كما خلقها الله

حقاً؟

فإن أقرؤا بذلك وأجازوه، لزمهم أن القول بأن الله ثالث ثلاثة، وأن له ولداً، وأن يده مغلولة، وأن الشركاء والأنداء والأضداد والأولاد حق. وهذا هو التعطيل والخروج من ملة الاسلام، والبراءة من الله العدل الذي لا يخلق الباطل ولا يصنعه، ولا يقضيه على فاعله، ولا يريد به ولا يرضاه، كما قال عز وجل: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧].

وإن قالوا: إن الكفر باطل، وإن الله خلقه باطلاً.

قلنا لهم: فإنه يجب عليكم من الكفر أعظم من الذي هربتم منه، لأن قولكم: إن الله الذي خلق الباطل تكذيب منكم لقوله، وردّ لكتابه، إذ يقول عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ٢٧]، والكفر والشرك وجميع المعاصي بين السماوات والأرض. فتبارك الله وتعالى عما يقول المجبرون علواً كبيراً !!

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]، فلم يسمي خلقه وصنعه: باطلاً، أفهكذا يقول الحكيم الحسن الفعل، الذي يخبر عن نفسه أنه لا يجوز ولا يظلم، ويقول: ﴿وَمَنْ أَضْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (٨٧) [النساء]، ثم قال: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [الكهف: ٥٦]. فليت

شعري أيها الباطل وأيها الحق، وكلاهما - زعمتم - خلق الله وصنعه، فوالله لا يزيد المجانين على هذا الخبط والتخليط الذي لا يعقل.

إن المجبرة زعمت أن الواحد الحكيم، العدل الذي لا يحور ولا يظلم، يُنزل على رسوله فرائض افترضها على عباده، وحتمها عليهم، ثم يحول بينهم وبين الوصول إليها، ثم يقول لمن افترض عليه الفرائض: لِمَ لم تؤدَّ إليَّ ما أمرتك به؟! وقد خلق بين السماء والأرض أفعال العباد كلها - كما زعمتم ووصفتم - وقال: إنه لم يخلق ذلك باطلاً، وقال: ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، (إنما يقول: باطلاً، أي: همجا لا معنى، لا أنه عنى: السماوات والأرض وما بينهما أنهم باطل في ذات أنفسهم، كذلك هذا للفائدة لا للمعارضة)^(١) - رجع - علينا زعمتم.

فإذا في كتابه أن بعض ذلك الخلق قد صار حقاً، وبعضه قد صار باطلاً، بعدما قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (٢٧) ﴿[ص:]، ثم قال: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا بَصَفْتُمْ﴾ (١٨)﴾ [الأنبياء]، فمثَّل هذا الذي أسندتم إليه هذه القباح، مثل رجل زجاج عمل آنية كبيرة من الزجاج، فلما فرغ منها أخذ لها عموداً، ثم اعترضها من جانب بالخط والكسر، فلما انكسرت قال لها: لِمَ تكسرت؟! والله لأعاقبك العقوبة الموجهة. ثم يجب له من بعد هذا اسم الحكمة والعدل، والنصفة والرحمة، ونفي الجور والظلم، ألا ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (٤٤) ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ (٤٥) ﴿[هود]!! ولا أكفر بالآخرة ممن زعم أن رب الآخرة هذه صفته، واتبع هواه، وترك

(١) سقط من (أ): ما بين القوسين.

القرآن والتدبر لبراهينه، وعجيب مجاريه، وإياه نحمده على ما أوضح لنا في كتبه، وأرشدنا إلى^(١) سبيله، إنه منان كريم.

ثم نقول لعبد الله بن يزيد البغدادي، ولمن قال بقوله من أهل الجبر والفرية على الله عز وجل: خبرونا عن هذه المسألة فإن فيها قطع ما قلتم، وإليه من الأمر ذهبتم، خبرونا عن الكافر، أعاجز هو عن خلق الكفر؟

فإن قلتم: نعم.

قلنا لكم: أفقادر هو على اكتساب الكفر؟

فإن قلتم: نعم.

قلنا: فالشيء الذي عجز عنه هو الشيء الذي قدر عليه؟

فإن قلتم: نعم، لزمكم لنا أنه عاجز عما هو قادر عليه، وقادر على ما هو عاجز، وهذا من أعظم التخليط وأبين الاستحالة والمناقضة.

وإن قلتم: الذي عجز عنه هو غير الذي يقدر عليه، والذي يقدر عليه هو الاكتساب، والذي يعجز عنه هو الخلق، والخلق غير الاكتساب، فقد لزمكم لنا في زعمكم أن اكتساب العباد غير ما خلق الله عز وجل، وهذا ترك لقولكم، ورجوع عن مذهبكم.

ثم نقول لعبد الله بن يزيد: أليس من قولك في أول هذه المسألة التي سألتنا عنها أن اسم الكفر هو الكفر، وأن اسم الايمان هو الايمان، وأن ليس اسماها شيئا غيرهما، فيلزمك لنا أن اكتساب الكفر هو الكفر، وأن اكتساب الايمان هو الايمان، لا غير ذلك على ما قلت، وهذا كتابك الذي وضعت علينا، وقد بان قهْرنا لك،

وقطعنا لحجتك، بأوضح البيان، وأيقن الايقان، لما ناقضت القول، وخالفت الدعوى.

فزعمت أن ليس الأسماء هي شيء غير الأفعال، لأنك زعمت أن ليس اسم الشيء غير الشيء، فيلزمك فيما تدعي من التوحيد أن اسم الله هو الأحرف المعروفة، وهي (ألف لام لام هاء)، فزعمت أن ليس الاسم غير المسمى، ففسد عليك ما ادعيت من التوحيد، إذ زعمت أن معبودك ليس اسمه غيره، فيلزمك أن (ألف لام لام هاء) التي تكتب مرة وتُحكي مرة، تبصرها الأعيان، وتدرکہا الحواس هي معبودك، لما زعمت أن ليس الاسم غير المسمى، وكفى بهذه فضيحة عليك، إذ خرجت من العدل والتوحيد جميعاً.

ومن الحجة عليك قول الله عز وجل يضيف أفعال العباد إليهم، وأنه لم يخلقها ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، فارتفعوا في اللغة العربية وعند أهل النحو، لأنهم فاعلون، ولو كان هو عز وجل خلق أفعالهم، لم يجوز في القرآن العربي إلا أن يقول هو الذي خلقكم كافراً ومؤمناً، فيجب أنه الذي خلق أفعالهم، وهذه من القرآن، ولا يجوز في النحو غيرها.

ومن الحجة عليك أن نقول لك: أخبرنا عن قول الله عز وجل: ﴿فَعَالٌ لَّما يُرِيدُ﴾ [هود: ١٧، البروج: ١٦]، هل هذه الإرادة تامة نافذة محكمة، أنه لا يريد شيئاً من جميع الأشياء كلها، صغر ولا كبر ولا هان، إلا كان ذلك الشيء، أم بعض ذلك يمكنه كونه، ويمتنع كون بعضه؟

فإن قلت: إن الله عز وجل إذا أراد أمراً من جميع الأمور، فلا بد من نفاذ ذلك الأمر، كائناً ما كان، لا يمتنع عليه شيء مما أراد وشاء، وأحب وقضى، وخلق وأمضى. قلنا: كذلك الله عز وجل، ولكن اعرف ما يلزمك في قولك عليه بالجبر، وافهم ما يأتيك في آخر المسألة، فإن فيها فضيحتك وانقطاعك.

ثم نقول لك: قد أقررت ولزمتك أنه لا يمتنع على الله عز وجل شيء ولا يغلبه، إذا أراد وأمر به.

فإن قلت: نعم، قد أقررت ولزمني ما قلتم، لأنك لو قلت غير ذلك كفرت. قلنا لك: فما معنى قوله عز وجل: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (البقرة)، هذا قول جبر جبرهم عليه، أم تخيير منه لهم، إن شاؤوا فعلوا، وإن لم يشاؤوا لم يفعلوا؟ فإن قلت: بل هم مختيرون تخييراً، إن شاؤوا فعلوا وصاروا قردة، وإن لم يشاؤوا لم يصيروا قردة، لزمتك أن الخلق مختيرون تخييراً، من أراد أطاع، ومن أراد عصى، على أن ليس قولنا: إن القوم الذين قال لهم: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ مختيرون في ذلك تخييراً، ولكن قولنا: إنهم مجبورون جبراً وقسراً.

وإن قلت: لا أقول إنهم مختيرون تخييراً، ولكني أقول: إنهم مجبورون جبراً وقسراً، لا بد لهم من ذلك، لأن إرادة الله وأمره لا بد من نفاذه، ولذلك صاروا قردة خاسئين، لا بد لهم من ذلك.

قلنا: صدقت، هذا هو الحق، فما تقول في قول الله عز وجل حيث يقول للناس: ﴿كُونُوا عَوَامِرٍ بِالْقُسْطِ﴾ [النساء: ١٣٥]، هل أراد ذلك منهم جبراً جبرهم عليه، وقسراً قسرهم على فعله؟

فإن قلت: لا، لم يجبرهم ولم يقسرهم، وجب لنا عليك، ولزمتك أن العباد مختيرون تخييراً في الطاعة، غير مجبورين ولا مكرهين ولا مقسورين، وزجعت عن قولك ودخلت مع أهل الحق.

وإن قلت: لست أقول إلا أن الله جبر العباد وقسرهم على أن يكونوا قوامين بالقسط، لا حيلة لهم في ذلك، ولا مخرج لهم منه، لأن إرادة الله جل وعز نافذة، وأمره الأمر الذي لا يرده ولا يغلب، على ما بنيت عليه أصل مسألتك، وقدت عليه

اعتقادك، لزمك لنا ووجب عليك، أن إرادة الله عز وجل لم تنفذ في المشركين ولا الكافرين، ولا في جميع العاصين، من جميع من لم يقم بالقسط كما أمره الله عز وجل، وافترض عليه، ونطق به القرآن، وجاءت به الرسل عن الله جل ثناؤه، وأنه لزمه العجز عن هؤلاء القوم، فلم ينفذ أمره فيهم، ولا قوله لهم: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٣٥]، فعصوه ولم يطيعوه، ولم ينفذوا أمره كما أنفذ الذين قال لهم: ﴿كُونُوا قَرَدَةً حَاسِيَةً﴾ (٦٥) [البقرة]. فيلزمك أنه قَوِيٌّ على الذين جعلهم قردة وقدر عليهم، ولم يقدر ولم يقو على الذين قال لهم: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾، وإنما هو أمر واحد بكلمة واحدة، لا فرق عندهم بين الأمرين وبين القولين، فلا بد لك من تعجيز الله عز وجل الذي لا يعجز ولا يُغلب، وأن الأمر الذي أقررت لنا به، من أن إرادة الله نافذة غير مردودة ولا مغلوبة، لم يتم على ما قلت، وأنها قد انتقضت، لا بد لك من ذلك، ولا حجة لك تدفعنا بها أبداً في هذه المسألة ولا غيرها، حتى ترجع إلى الحق، وتدخل في دين الاسلام من ذي قبل.

فتقر وتعتقد أن الله تبارك وتعالى أراد من القوم الذين قال لهم: ﴿كُونُوا قَرَدَةً حَاسِيَةً﴾ إرادة حتم وقهر وجبر، لا حيلة لهم فيها، ولا مخرج لهم منها، ولا محيص لهم عنها، ولا سبيل لهم إلى تركها بما عصوا، فاختاروا الكفر على الايمان، واستحقوا النكال والمسح باختيارهم، لا بها أراد، ولا بها قضى، ولا بها خلق من فعلهم، وأن القوم الذين قال لهم: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾، إنما أراد منهم القيام بالقسط تخيراً لهم، لا جبراً ولا قسراً، إذ هو الذي لا يمتنع عليه أمر يريده، عز وتعالى !!
ولا فها العجز^(١) عن نفاذ الأمر^(٢)!

(١) في (ل): عجز.

(٢) في (ل): أمره.

فهذا هو دين الله عز وجل الذي تعبد به الأولين والآخرين، وجاء به عنه المرسلون، ونطق به الكتاب المبين، والحمد لله رب العالمين.

وقد قال لنبيه صلى الله عليه يعزيه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، أي: قسراً وجبراً، وإنما خيّرهم ليستحقوا لما خيّرهم إما الثواب وإما العقاب.

قوله: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٩) [يونس].

فإن قال قائل: فأبي إكراه أكبر من السيف؟

قلنا: لم يعن الله عز وجل الإكراه بالسيف في هذا الموضع، إنما عنى: إكراه القلوب وجبرها على الايمان، فذلك ما لا يطيقه النبي صلى الله عليه، ولو كان عنى إكراه الحرب لم يكن للآية معنى !! لأنه قد أكرههم بالسيف بعد البيان والامتناع والأخمية، وبعد الإبلاغ والإنذار، فأمره بقتالهم، وهذا الإكراه ليس هو إكراه القلوب وقسرها على الايمان. ولو كان الأمر على ما قالت المجبرة، لم يجز في الحكمة ولا في العقول أن يقول لمن أكره الناس وفرغ من إكراههم: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٩) [يونس]. فافهم هذا الجواب وانظر فيما ذكرنا لك، ورسمنا لك من الحق، فلن نجد المجبرة سبيلاً إلى نقضه على أهل العدل أبداً، والحمد لله رب العالمين.

ثم قال عبد الله بن يزيد البغدادى: ثم سلهم من جعل الكفر كفراً، والايمان إيماناً؟ فإنهم يقولون: إن الله لم يجعل التوحيد حسناً، ولا الشرك قبيحاً، وكيف يقع الثواب على ما لم يحسن الله ولم يقبح؟!

الجواب قال أحمد بن محبى صلوات الله عليهما: إنا نقول: إن الله جل ثناؤه الذي جعل الكفر كفراً، بالتسمية والحكم لا بالخلق له، وجعل الايمان إيماناً، بالتسمية لا

بالخلق له، وليس لله عز وجل في الايمان فعل، قلّ ولا كثير، إلا الأمر به، والافتراض له، وكذلك ليس لله عز وجل في الكفر فعل، قلّ ولا كثير، بوجه من الوجوه كلها، إلا النهي عنه، والافتراض لتركه، والخروج منه.

وأما قولك: إنا في زعمنا أن الله لم يجعل التوحيد حسناً، ولا الشرك قبيحاً، وقولك: فكيف يقع الثواب على ما لم يحسن الله ولم يقبّح، ولم يجعله كفراً ولا إيماناً، والله - زعمت - إنها ذكر في كتابه أن الثواب [على الايمان] والعذاب على الكفر، فهذا كذب منك علينا، وإسناد إلينا ما لم نقل، وليس من قولنا ما قلت، جل الله وتعالى عن ذلك، وقد حرّفت وخلطت.

وإنما قولنا: إن الله عز وجل جعل التوحيد حسناً بالدعاء إليه، والترغيب فيه، والدلالة عليه، فحسّنه في قلوب الخلائق بالنعت والصفة لثوابه، إذ هو دينه الذي بعث به المرسلين من الأولين والآخرين، الذي لا يقبل غيره، ولا يرضى سواه، ولا يقبل عملاً من سائر الفرائض إلا به، ولا جنة لمن خالفه وقصر منه. وكذلك قبّح الله عز وجل الكفر بالنهي عنه، والتحذير منه، والإعذار والإنذار في تركه والخروج منه، وليس الجعل لذلك إلا جعل حكم وتسمية.

فأما^(١) جعل حتم وجبر وخلق خلقهما، أعني: الايمان والكفر وقسر عليهما العباد، وخلق فعلهما جميعاً من الايمان والكفر، فليس ذلك قولنا في صفة خالقنا، عزّ عن ذلك وتعالى!! ولا ذلك قول الملائكة المقربين، ولا الأنبياء المرسلين، ولا الأئمة العالمين.

وإنما ذلك قول الملحدين، والزنادقة الأردلّين، والمشرّكين والظالمين، وقول عبد الله بن يزيد وأصحابه المجبرة الأخسرين. والشاهد لنا على أن الله عز وجل بريء مما

(١) في (أ): أما.

قالوا، قوله جل ثناؤه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ إِلَيَّكُمْ وَرَزَقَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ (٧) [الحجرات]، يعني عز وجل: أنه حَبِيبُ الايمان إلى من أراد الدخول فيه، بها وصف من جنات النعيم، وشوق إليه من الملك العظيم، والثواب الكريم، وكذلك كرهه الفسوق والعصيان، إلى من أحب ترك ذلك من العالمين، بها أوعده من فعله وعصى فيه، من العذاب المقيم، والنكال الأليم، والمقام في خلود الجحيم. لا أنه جبر أحداً من خلقه على أحد من الأمرين، من الأولين والآخرين. ولو جبرهم على الطاعة أو المعصية جبراً - كما قلتم - لم يجب للمجبورين ثواب، ولا عليهم عقاب.

وأما قولك: كيف يثيب الله على ما لم يجعله هو عز وجل إيانا ولا كفراً؟! فنقول لك أيها المغرور، المغلط في دينه، والتارك لكتاب ربه: هل رأيت رجلاً قط خاط ثياب نفسه، ثم لما فرغ منها أعطى خياطاً آخر أجره ثيابه التي خاطها هو لنفسه؟ أو هل يجوز ذلك في التعارف، أو في اللغة، أو في العقول؟! أو هل رأيت رجلاً قط بنى داراً بيده حتى إذا فرغ من عمارتها أعطى البنّائين أجره ما بنى هو بيده لنفسه؟!

أو هل رأيت جَمَّالاً حمل نفسه وأولاده على جماله إلى مكة، ثم أعطى الجمالين كراء جماله التي يمكنها، ولم يخرجوا معه إلى مكة ولم يسافروا، وأعطاهم الكراء على غير عمل؟!

فهل هذه الصفة تجوز في حكمة حكيم، أو في صفة متقن عظيم؟! أو هل سمعت - أيها المخدوع المعجب بجهله - آية واحدة من كتاب الله عز وجل تشهد بما قلت إنه يثيب أحداً على خلقه، الذي هو تولى خلقه، أو يثيب أحداً على أمر تولى هو عز وجل صنعه دون غيره؟!

أليس آيات القرآن تشهد وتدل على أن الثواب للمطيعين العاملين، وعلى أن العقاب على العاصين التاركين، الذين آثروا الهوى، واختاروا لأنفسهم الدنيا، على الآخرة التي تبقى، فقتلوا الأنبياء وأئمة الهدى، وأشركوا وكفروا وفعلوا كل قبيح باختيارهم وإرادتهم، لا بإرادته عز وجل، ولا خلقه الذي ألزمته أنه خلق فعلهم، بل هو البريء عن ذلك، تبارك وتعالى !!

وقال في غير موضع من القرآن ما لا نحصى، أن العقاب وقع عليهم: **﴿قَدَمْتُ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾** [المائدة: ٨٠]، وبما عملت أيديهم **﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾** [البقرة: ١٠، التوبة: ٧٧]، و **﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾** [الأنعام: ٧٠، يونس: ٤، ٧٠]، قال الله عز وجل: **﴿وَقَالُوا جِئُوا بِآيَاتِنَا لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْشِدُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢)﴾** [فصلت]، وهذه الآية من الشواهد أن هذا الشيء خاص دون عام، يعني به مما أنطق، إذ كان كل شيء لا ينطق إلا أهل النطق لا غيرهم، وإننا احتجنا بهذه الآية، لأنها توجب لنا حجة فيما نحن في ذكره، وحجة لنا عليك في دعواك: أن الله خالق كل شيء، تريدون بذلك أفعال العباد، وجب في هذه الآية أن **﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾** [الرعد: ١٦، الزمر: ٦٢]، وإنها هو خاص لا عام، مع شواهد كثيرة سوف نذكرها في مواضعها إن شاء الله.

وكذلك قوله عز وجل لأهل الجنة: **﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [السجدة: ١٧، الأحقاف: ١٤، الواقعة: ٢٤]، وقوله: **﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)﴾** [الحاقة]، وقوله: **﴿قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾** [الذاريات]، وقوله: **﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا**

لَتَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٧) [النحل]، وقال: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (٣٧) [النور].

فهذا القرآن الذي لا حيلة لك في رده، يوجب أن الجزء لا يكون إلا على المجازي، وإلا لم يجب أن يجزى المجازي على عمل نفسه، ولا يسمى ذلك: جزء، ولا يعرف في لغة عربية ولا غير عربية، ولا يقبله عقل لبيب.

إلا أن يقال لرجل: أعطني جزائي على زيارتك لقبر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، أو أعطني أجري على حجتك إلى البيت الحرام، أو يجوز في اللغة أن فلاناً احتقر بثراً بيده، فلما فرغ منها وخرج ماؤها، قدم إليه رجل من أهل البصرة فقال له: أعطني أجري على برك التي حفرتها لنفسك وبيدك.

وهذا نفس المحال من المقال، فكيف قول عبد الله بن يزيد البغدادى في هذا الموضوع؟! وما حجته على الله عز وجل أن يكون يجزي على فعله هو، ويعاقب على فعله وهو خلقه - زعمت - صنعه، فيجزي على صنعه الذي صنعه دون غيره بالجنة وبالنار، التي إليهما مصير الخلائق، وملك الأبد، أو عذاب الأبد.

فهل يخرج هذا القول في فعل حكيم، أو عادل كريم، ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١، النمل: ٦٤]، فلا حجة لك في هذا ولا خلاص، إلا التوبة والرجوع، فتضيف إلى كل عامل عمله، لقول الله عز وجل: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾ [الزلزلة]. كان هذا القرآن عنى به غير المجبرة، وكأنهم لم يسمعوا قوله عز وجل: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا

(٤٩) ﴿[الكهف]، وكأنهم لم يقل لهم: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ [النساء]، وقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِيرَةِ مُغْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١)﴾ [المدثر].

فلعمري إنهم عند تذكرة الحق، وحجج القرآن، لكالحمير النافرة من الأسد !!
والدليل على ذلك، أنك إذا أنظرتهم ببراهين القرآن هربوا من النظر، ورووا في الحديث أن أسلافهم وكبراءهم قالوا لهم لا تسمعوا القرآن من صاحب بدعة، وأهل العدل والتوحيد عندهم أصحاب البدع، فكيف يعرف القرآن أو يبتدي إلى عجائبه، والنبي الشافي من حججه، من اعتقد هذا الجهل، ودان به من رواة الأحاديث؟! وجعله ديناً عليه يعمل، وبه يحتج. وترك قول الله عز وجل: ﴿يَسْتَأْذِنُ كُلُّ نَفْسٍ مِنْ رَبِّهَا [النحل: ٨٩]، و ﴿مَا قَرَأْتَ فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقوله: ﴿أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]، وقوله: ﴿حِكْمَةً بَالِغَةً فَمَا تُغْنِ التَّذْكَرُ (٥)﴾ [القمر]، وقوله: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقوله: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)﴾ [فصلت].

فنعوذ بالله من الحيرة في دينه، والهجران لكتابه، والعنود عن حقه !! إنه قوي عزيز.
وليت شعري ما الفرق بين من روى هذا الحديث، وبين المشركين الذين كذبوا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، وقالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْقَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)﴾ [فصلت].

ثم قال عبد الله بن يزيد البغدادى: أليس لو شاء العباد لصنعوا الكفر إيماناً، والايان كفراً، لأنه إنما هو صنعهم وجعلهم، وتحسينهم وتقييحهم، والله لم يصنع ذلك. يضيف إلينا أن هذا قولنا - زعم - وقد كرر كلامه في هذا الموضع من كتابه،

بأمر بعضه يكفي، لأننا نعلم ما يريد في أول كلمة يقولها، ولا بد لنا إذا كرر أن نكرر عليه حتى يتبين.

الجواب قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليها: إنا نقول: إن العباد يقدرُونَ على أن يحولُوا الكفر إيماناً، فيخرجوا من الكفر إلى الإيَّان الذي دعاهم الله إليه عز وجل، وكذلك هم قادرون على أن يحولُوا الإيَّان كفراً، فيرتدُّوا عن الإيَّان الذي أمرهم الله عز وجل بالدخول فيه، فيرجعوا عنه ويصيروا إلى الكفر الذي نهاهم الله عنه. إلا أن تقول يا عبد الله بن يزيد البغداذي وإخوانك المجبرة: إن أحداً من الناس لم يرتدَّ قط عن الإسلام، وإن أحداً لم يخرج من الكفر وعبادة الأصنام، ويرجع إلى الإيَّان؟!!

وكفى شهادة القرآن لنا على من آمن، وعلى من ارتدَّ، فأبي حجة لك في هذا؟ وأي قول قد كررت فيه ووكَّدته، حتى كأنك قد جئت بشيء تبهر به أهل العدل، الحماة عن دين الله جل ثناؤه، وأهل الذب عن الإسلام. فهذا يوجب عليك أن العباد يقدرُونَ على أن يجعلُوا الإيَّان كفراً والكفر إيماناً. وجعلهم هو أفعالهم التي لم يخلقها الله عز وجل عن ذلك، وخيَّرهم فيها، وقال: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، بعد إرسال الرسل، وإنزال الكتب، والإعذار والإنذار، ثم قال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

وأما قولك في التحسين والتقبيح، فالحسن عند الله عز وجل فهو الحسن الذي لا ينكر، ولا يخرج من التعارف، ولا مما دعت إليه الرسل، ولا مما جاءت به الكتب.

والقبيح فهو القبيح الذي لا يجهل، مما نهت عنه الرسل، وحرَّمته الكتب.

فالقبيح مثل فريتك على الله أنت وأصحابك المجبرة، من قولكم: إن الله عز وجل - قلتم - خلق زنا الزانين، وإلحاد الملحدين، وشرك المشركين، وقتل الأنبياء،

وأئمة الهدى، وإتيان الأمهات والأخوات والبنات، وأنه أرادته - زعمتم - وخلقته وقدره، ثم غضب منه أشد الغضب، وأعد العذاب الأليم لفاعله، وذمه في كتبه، وعلى السنة رسله، وتبرأ منه، ونسبه إلى قوم براء مما خلق، فقال في كتابه: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقال لهم: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]، وقال لهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، و﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣]، وقوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم]، ثم قال: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٧٣] [المائدة]. فكيف يتهون عن أمر أرادته منهم وقضاه عليهم، وخلقته من فعلهم؟!

ثم قال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ [المائدة: ٧٤]. فمما يتوبون أيها الجاهل المغرور؟! وما يستغفرون؟! أمن فعله، أم من فعلهم، وهو القاتل عز وجل: ﴿لَعَلَّأ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]؟!

فأي حجة أقوى - وبحك - من أن يقولوا له يوم القيامة، ويحتجوا عليه - على قود قولك - لو تركتنا يا ربنا من خلق الكفر فينا، وإرادتك له منا، وتقديرك له علينا، لسلمنا من نارك وعذابك المقيم، الذي لا فكاك منه أبداً، وقد أخبرتنا في كتابك أنك العدل الرحيم، الذي لا يجوز ولا يظلم، وأنتك حسن الفعال.

فأخبرنا يا عبد الله بن يزيد البغدادي لم يعذبهم وقد صدقوا في حجتهم عليه - في زعمك وعلى قولك - إن هذه الصفات كلها صفته، وإن ما حل بهم إنما هو من إرادته وفعله وخلقته، وإنه لولا إرادته ما هلكوا ولا خرجوا من طاعة؟!

فحسبك بهذا العمى عمى، وحسبك بهذا الجهل جهلاً، وحسبك بهذا الكفر

كفرًا!!

فلا في القرآن نظرت، ولا العقول استعلمت، ولا عن أهل العدل قُلبتم، ولا بقول الشعراء تأديت، فأنتم والبهايم في منزلة. قال الشاعر:

أراك لذنبك تستغفر	ألا أيها الملحدُ المجبر
وأنتَ له تارة منكّر	أتستغفرُ الله من فعله
ربي على فعلها يجبر	تقولُ وجدتُ جميعَ الذنوب
بزعمك والخمرُ والميسر	ومنه إذا ما زينت الزنا
ذنوبك منك فلا تُغفر	أمالك عقلٌ إذا لم تكن
وما هو من خلقه منكّر	أضفتَ القبيحَ إلى ربنا
فليم عبثَ كُفّرَ الذي يكفر	وقهرَ اليتامى وسفكَ الدما
فما ذنبُه عند من يفكر	إذا كان فاعله غيرُه
وما عبثَ شكرَ الذي يشكر	وقتلَ الأئمةَ والمرسلين
وكلَّ المعاصي التي تُذكر	نسبتَ إلى الله كفرَ العباد
ك ما كنتَ عن قتله تقصّر	ولو قال ذا قائلٌ في أبيه
وفي الله أنتَ به تجهر	ولو كان فيك لكذبته
م في درك نارٍ إذا تُسعر	ألم تسمعوا قولَ أهل الجحيم
لكي يعملوا صالحاً يُجروا	وقد سألوا ربهم رجعةً
وجاء النذير فلم تشكروا	فقال ألم أكن عمّركم
فقالوا بلى جاءنا مُنذر	ألم يأتكم منذرٌ منكم
وكُنّا من الرسل قد نسخرُ	ولكن غرينا بتكذيبهم
ب بعداً وسحقاً لكم فاصبروا	فثودوا إذ اعترفوا بالذنو
نُ عدلاً ولو أنهم فكروا	وقد أنكروا أن يكون القرا

لَدَهُمْ أَنَّهُ عَادِلٌ وَلَكِنَّهُمْ فِيهِ لَمْ يَنْظُرُوا^(١)

وأما الفعل الحسن الذي سألت عنه، فهو الإجابة إلى كتاب الله عز وجل، وما دعا إليه رسوله صلى الله عليه وآله من الطاعة، التي قال الله جل ثناؤه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٣) [فصلت]. فهذا هو الحسن الذي سألتنا عنه عن تفسير الحسن والقبیح، فتدبر ما قلنا، وما جاءك من حجتنا هذه، القاطعة لدعواك، والحمد لله رب العالمين.

ثم قال عبد الله بن يزيد البغدادي: ثم سلهم فإن قالوا: إن الله إنما جعل اسم الكفر واسم الايمان، ولم يجعل الايمان ولم يجعل الكفر. فقل لهم عند ذلك: أخبروني عن اسم الايمان أهو الايمان؟ وعن اسم الكفر أهو الكفر؟

فإن قالوا: إن اسم الايمان هو الايمان، وإن اسم الكفر هو الكفر، فقد أعطوك أن الله جعل الايمان والكفر، وصنعها وخلقها، فقد أمكنوك من أنفسهم، ورجعوا عن قولهم، لأن اسم الكفر هو الكفر، واسم الايمان هو الايمان، لا أن الاسم غير المسمى، فإذا جعل الله الأسماء، لزمهم أن الأسماء هي الأشياء بعينها لا غيرها، فقد جعل الله أسماؤها، وأسأؤها هي، وليس الاسم شيئا غير الكفر، وكذلك الايمان ليس اسمه غيره، فقد جعل الله الكفر والايمان وصنعها وخلقها.

وإن قالوا: إن اسم الكفر غير الكفر، واسم الايمان غير الايمان، والكفر المعنى الذي وقع عليه الاسم، والاسم ليس بكفر ولا إيمان، فارجع إلى أصل مسألتك، فقل: أليس العباد جعلوا الايمان غير الكفر، والكفر غير الايمان، وهم جعلوا الكفر قبيحاً، والايمان حسناً، والله لم يجعل ذلك؟! ثم ارفعهم^(٢) إلى ما رفعتهم إليه في

(١) لم أنف عليه.

(٢) في (أ): ارفعه.

صدر المسألة، فإنهم لن يجدوا مخرجاً، ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨، ١٤٣].

الجواب قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين: قد قلت ما قلت، فأعمل ذهنك فيما يرد عليك من جوابنا إن شاء الله، فإننا نقول لك: قد أقررت ولزمتك أن اسم الكفر هو^(١) الكفر، وأن اسم الايمان هو الايمان، لا غير ذلك - زعمت - وأن الله جل ثناؤه في قولك الذي خلق الكفر والايمان.

فقد أكذبتك الله عز وجل حين يقول: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣]، وقوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٠٣) ﴿[المائدة].

أفلا ترى أنه تبرأ من جعل هذه الأسماء التي سموها للأنعام، وهو عز وجل الذي خلق أجسامها، فلم يتبرأ من خلقها، وإنما تبرأ مما جعلوه هم، وكفى بهذه حجة !!

وقوله عز وجل: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ (٤) ﴿مَا هُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِبَابِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (٥) ﴿[الكهف].

فإن زعمت أن الله خلق ذلك من فعلهم، لزمك أنه الشاتم لنفسه، والمدعي لها الصواب والأولاد، عز الله وتعالى وتقدس عما تقولون !!

ومع ذلك تدعي أنك من أهل التوحيد - زعمت - ونفي التشبيه !! ومعاذ الله ما يقول بالتوحيد ولا يحسنه^(٢)، ولا يسلم من التشبيه العظيم، والكفر الجسيم، من

(١) في (أ): هو اسم.

(٢) في (أ): يحسنه. مصحفة.

يقول بالجبر، لأنه يلزمك في قولك الذي ادعيت من التوحيد، ما أنا ذاكره، فافهم ما يحل بك.

أرأيت إن سألتك سائل فقال لك: أخبرنا عن الاسم اسم الله عز وجل المعبود الذي تعبده، هل الاسم عندك فيه غير المسمى، أم هو الاسم لا غيره؟

فإن قلت: إن الاسم هو المسمى، لزمك أن (ألف لام لام هاء)، الأحرف المخطوطة الموجودة هي معبودك الذي توحد، والذي له تصلي وتحفد^(١)، وله تصوم وتسجد، فتكفر بهذا القول عند جميع أهل التوحيد، ويلزمك أن معبودك يُسمى فيمحي، ويحرق فيحترق، وتقع عليه الأبوال والأنجاس، ويقع عليها فلا ينتصر، ويحي مرة ويذهب مرة، وتراه الأعين، وتدركه الحواس، ويخط بالأيدي في الكتب، وكفى بهذا بلية عظيمة، وكفراً أعمى.

وإن زعمت أن الاسم غير المسمى، لزمك من أصل أذنك - وأنت راغم الأنف، مفلوج الحجة - أن الذي ادعيت وقلت به، وأكثرته فيه الخطاب، من أن الاسم هو المسمى، أنك قد أبطلت فيه وأخطأت وافترضت، ووجب على أصحابك بلا شك ولا مرية التوبة عن تقليدك أمر دينهم، ولزمهم أن يلعنوك حيّاً وميتاً، وأن يفارقوك في حياتك إن عشت، ويتبرأوا إلى الله عز وجل مما وضعت لهم من الكفر والجهل، وإلا فالنار.

ويلزمك أن الكفر هو غير الاسم الذي يسمى^(٢) به كفراً، وأن الايمان غير الاسم الذي يسمى^(٣) به إيماناً، لأن الاسم غير المسمى في جميع الأشياء كلها،

(١) الحفد: الإسراع في الشيء.

(٢) في (أ): سمي.

(٣) في (أ): سمي.

بأوضح دليل، وأبين برهان، فقد ثبت عليك الفلج، والحمد لله رب العالمين.

وقد بان لنا ولأصحابك جهلك في التوحيد، وصح تشبيهك، إذ زعمت أن اسم الايمان ليس هو شيء غير الايمان، وأن اسم الكفر ليس هو شيء غير الكفر، فاستفدت أنت وأصحابك هذه الفائدة في التوحيد الذي جهلتموه كما جهلتم العدل، واعلموا علماً يقيناً أن التوحيد لا يتم لمعتقده، ولا القائل به، إلا بمعرفة القول بالعدل، وإلا فلا يصلح توحيد إلا بعدل.

ألا ترى كيف أخطأت الخطأ العظيم في التوحيد، ولزمت التشبيه لما احتججت في إبطال العدل، بأن الاسم هو المستى لا غيره، فلزمت الكفر في التوحيد. ففسد عليك اعتقادك وما أذعيت من معرفة التوحيد، قشبت وألحدت، وبان جهلك، وسقطت رئاستك، وهذه التي جثت بها من الخطأ أعظم من جبل أخذ، فقد افتضحت وفضحتك !! إلا أن ترجع أنت. وأصحابك إلى تعلم العدل والقول به، وتنبوا عن الجبر والجهل.

ومن الحجة لنا عليك أيضاً في أن الاسم غير المسمى، أن قائلاً لو سمي دنانير ودراهم وإبلاً وخيلاً وقال: هي عندي، وهو فقير لا دنانير له ولا إبل ولا خيل، لم يحصل معه من تسميته الدنانير والدراهم، والإبل والخيل، قليل ولا كثير.

وكذلك لو قال وذكر خبزاً ولحماً وتمراً وهو جائع، لم ينفعه ذلك ولم يشبعه، لأن الاسم غير المسمى.

وكذلك لو قال: ماء الفرات وهو عطشان، لم يروه اسم الماء دون وجود الماء.

فمن هاهنا وجب عليك أن الاسم غير المسمى، وبطل ما قلت، لأن اسم الله عز وجل غير الله سبحانه، وهذا اسمه مكتوب في المصاحف، يراه الناس وتحيط به الأقطار، إذ الاسم أحرف أربعة، والمسمى لا نظير له ولا عدل، ولا يتجزأ أنجزاء،

تبارك وتعالى الواحد الفرد، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١١)
[الشورى] !! أسأوه تعبير، وأفعاله تفهيم، وهو اللطيف الخبير !!

ثم نقول لك: أخبرنا عن قول أبي جهل بن هشام لعنة الله عليه بالتعنيف منه
لمحمد صلى الله عليه وعلى آله، جاءنا محمد - زعم - بالايان ليدخلنا فيه، هل قول
أبي جهل وتسميته للايان توجب له إيانا، أم لا؟!

فإن قلت: نعم، إن ذلك القول الذي ذكرته اسم الايان يوجب لأبي جهل
إيانا، لزمك أنك قد شهدت له بالايان، ووجب عليك أن النبي صلى الله عليه قتله
بدر وهو مؤمن، إذ اسم الايان هو الايان عندك.

وإن قلت: إنك لا توجب لأبي جهل تسميته للايان إيانا، رجعت عن قولك،
وافترضت عند أصحابك، ولزمتك التوبة من فريتك على الله عز وجل، وبطلت
حجتك.

وكذلك إن قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «الكفر دين الشيطان»،
وسمى كفراً، لزمه - على قَوْد قولك - فعل الكفر، وهل تقول ذلك أم لا؟!

فإن قلت: إن الكفر يلزم النبي عليه السلام حين سمي الكفر: كفراً، كفرت بالله
وأشركت، وخرجت من الاسلام بقولك في النبي صلى الله عليه مثل هذا القول.

وإن قلت: لا يلزم النبي صلى الله عليه بتسميته الكفر: كفراً أنه يكفر، بطلت
حجتك، وانتقض كتابك الذي وضعت لأصحابك على أهل العدل. وكفى بهذه
فضيحة وحجة باهرة !!

والعجب من أصحابك كيف يقيمون على قولك ويعتقدونه ديناً، تذهب فيه
أعمارهم بعد هذا البيان، إلا أنهم اتخذوا دين الله جل ثناؤه عصبية وحمة، واستكباراً
عن الرجوع إلى الحق، مع قولهم إنهم لا يقدرُونَ على تغيير خلق الله وإرادته، لما هم

عليه - زعموا - من المذهب، وأبطلوا قوله لمحمد صلى الله عليه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

فزعموا أن مَنْ علم الله منه الكفر والمعصية، أن الله لا يريد منه الايمان، لأنه إن أراد منه الايمان بطل علمه - في زعمهم - وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ [سبا: ٢٨]، وقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وزعم عبد الله بن يزيد البغدادى ومن قال بقوله من المجبرة: أن الله - عز وجل عن قولهم - لم يصدق في هذه الآية، وأنه أراد من قوم الايمان، ومن قوم الكفر، وردوا كتاب الله صراحاً بلا حجة، إلا بدعوى فاسدة، إذا ما قابلها الرجال من أهل العلم والتوحيد أبطلوها عليهم، وعرفوهم بجهلهم مثل ما قد تسمع، والله يعلم إننا لندع كثيراً من الحجج لكثرتها وترادفها علينا، وتسابقها إلى جوابنا، والحمد لله المعز لدينهِ، والناصر لحقهِ، والموضح لكتابه، والمذل لمن عانده وكفر به.

ثم قال عبد الله بن يزيد البغدادى: ثم سلهم مع هذا فقل: أرايتم إذا كانوا هم يجعلون الايمان والكفر، أليس الايمان طاعة، والكفر معصية؟! فإن قالوا: بلى.

فقل: أفليس هم الذي يصنعون ذلك، وليس الله عز وجل فيه صنع؟

فإن قالوا: نعم.

فقل: أفليس أنتم لا تحتاجون إلى الله فيها، وأنتم أغنياء عن الله في الطاعة لا تحتاجون إلى الله فيها، ولا إلى عون الله عليها، ولم يُعِنِ الله عليها خلقاً قط، ولم يحتج خلق قط إلى الله، والناس مستغنون عن الله فيها. فإن أعطوك هذا، فما أراك أن تريد ترفعهم إلى أعظم من هذا:

فإن قال قوم: إنا مستغنون عن الله عز وجل، لا نحتاج إلى الله عز وجل في طاعة، ولا أن يكفنا عن حرمة، ولم يكف عنها خلقاً، ولم يلطف ليوسف حين قال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤]، وأشباه هذا. فإن أبوا إلا أن يتبادوا فوقفهم على أنهم لا يحتاجون إلى الله عز وجل، وأنهم مستغنون عن الله، وسينقطع هذا الكلام حتى لا يجيبوك.

الجواب قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: اعلم أنك قد أكثر التكرار في هذا الباب، وذلك لما عندك من الغي والجهل بالدين، وكلمة من هذا الذي هذيت به تجزي، وقد أجبته نفسك عنا ببعض قولنا، ولم تكن أحسنت تحتج فيه فتكسره، من أن العون عونان لا غيرهما، عون الدعوة إلى الحق والدلالة لنا عليه.

وعون الله عز وجل لنا بالأسعاع والأبصار، والاستطاعة المركبة قبل الفعل، والألسنة وجميع الجوارح، والصحة والعافية في الأبدان.

فهذه هي عون الله عز وجل الذي أعاننا به، وتفضل به علينا.

ولا غنى بنا عنه في شيء من ذلك، ولا قوام لنا طرفة عين إلا به، ولا سبيل لك إلى وجود عون غيره، إلا ما ادّعت من الجبر الذي خالفت به القرآن، وافتريت به على الرحمن، وليس عون الله عز وجل للعباد شيئاً غير ما ذكرنا، إلا أن تدعي كما ادّعت أن الله - عز وجل عما تسندون إليه - أعانهم على فرائضهم، فقام ببعضها عنهم، فصلّى عنهم بعض الصلوات عند اشتغالهم، وصام عنهم بعض شهر رمضان إذا عطشوا أو جاعوا، أو حج عنهم إذا كسلوا عن الحج وتوانوا، وقاتل المشركين دونهم إذا لزموا بيوتهم، وتحلفوا عن رسول الله صلى الله عليه، أو عن إمام هدى، فيكون ذلك كما قال المصلون الظالمون من قبلكم: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]. فإن كان ما قلت حقاً من العون، (فهذا لعمرك عون ثالث، لا نعرف عوناً بعدما ذكرنا غيره.

فإن قلت: نعم، هذا هو العون^(١) الذي عنه سألت، وهو الذي أريد.

قلنا لك: فقد لزمك الكفر والخروج من الاسلام، بقولك: إن الله عز وجل يصلي بعض صلاة الناس، ويصوم بعض صومهم، ويحج بعض حجهم، ويجاهد الأعداء دونهم، ويتزكى من ماله دونهم^(٢)، إذا لم يدفعوا الزكاة إلى الأنبياء، وأئمة الهدى عليهم السلام. وكفاك بهذا جهلاً وعمى وكفرًا!!
وإن قلت: إنك لا تقول هذا لبيان فساد.

قلنا لك: فأوجدنا عون الله عز وجل للعباد على فرضهم الذي افترض عليهم، أين هو؟ وما هو؟ وكيف هو؟ فلا تجد عونه للعباد غير ما ذكرنا، من تفضله عليهم، والدعاء إلى الاسلام، وما وهب لهم من الأسعاع والأبصار، والألسنة والقوة، والأيدي والأرجل وجميع الجوارح، والصحة والعافية، والقدرة على أداء الفرض بالاستطاعة المركبة فيهم، فلا سبيل لك إلى وجود عون من الله عز وجل للعباد على أداء الفرائض إلا طرحة، أو قيامه ببعضها دونهم، أو الرجوع إلى القول بالعدل كما قلنا، لا بد لك من ذلك، ولا خلاص لك منه، وسقط قولك: إنا سنقطع في مسألتك هذه - زعمت - وفرحت نفسك وأصحابك بذلك، فدونك الآن، فخلص نفسك مما وقعت فيه، ولا خلاص لك من هذا الذي قلنا لك أبداً بوجه من جميع الوجوه، إلا التوبة والرجوع إلى القول بالعدل.

وأما قولك: إنا فينا من يقول إن الايمان لا يستطيع إلا بعون حادث، فلسنا نقول ذلك أيضاً، ذلك قولك وقول أصحابك، إن الاستطاعة - زعمتم - مع الفعل تحدث بحدونه، ولا نقول نحن بأمر حادث، بل فينا الاستطاعة موجودة قبل

(١) سقط من (ب): ما بين القوسين.

(٢) في (أ): دونهم من أموالهم. زيادة سهو لا معنى لها.

فعلنا، ولذلك لزمنا الله عز وجل الحجة، وقد ذكرنا في صدر كتابنا هذا من الرد عليك في الاستطاعة ما فيه أكفى الكفاية، والحمد لله رب العالمين.

ومن الحجة لنا عليك في إبطال قولك، الذي زعمت فيه أن الله عز وجل أراد الكفر من الكافرين، ما يأتيك من كتاب الله عز وجل ما يوجب تكذيبكم، وبراءته عز وجل، من فريتكم عليه، وهو قوله جل ثناؤه: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاجِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨)﴾ [الزمر]. فاسمع إلى قوله عز وجل، حيث يقول القائل: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾، فاسمع إلى جوابه عز وجل، حيث قال: ﴿بَلَى قَدْ جَاءَكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١)﴾ [الزمر].

فلو لم يكن نزل في العدل، وبراءة الله عز وجل من كفر الكافرين، ووضوح شهادة القرآن به أنهم اختاروا الكفر ولم يُرده الله منهم، لكان في هذا أكفى الكفاية، وأوضح البرهان !!

وقوله عز وجل: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر]:
[٧]، وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تَتَلَفُمْ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُحْزَنُ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤)﴾

[يس]. اهَذَا وَيَحْكُ مِنْ أَرَادَ الْكُفْرَ مِنْ عِبَادِهِ؟ جَلَّ عَنْ ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ
 وقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ
 (٦٠) وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ
 تَكُونُوا تَفْقَهُونَ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) أَضَلَّوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ
 تَكْفُرُونَ (٦٤)﴾ [يس]، اهَذَا قَوْلٌ مِنْ أَرَادَ الْكُفْرَ مِنْهُمْ ثُمَّ عَنَفَهُمْ وَعَاقِبَهُمْ عَلَى فِعْلِهِ
 وَعَلَى مَا أَرَادَ مِنْهُمْ؟

اهَذِهِ صِفَةُ الرَّحِيمِ الْحَكِيمِ، الَّذِي أَخْبَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَا يَجُورُ وَلَا
 يَظْلُمُ، وَقَالَ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (١٠٨)﴾ [آل عمران]، وقوله عزَّ
 وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ
 بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨)﴾ [الأعراف]؟

فهذه الآية مَكْذُوبَةٌ لِقَوْلِكَ وَلَمِنْ مَضَى مِنْ قَبْلِكَ وَلَمِنْ بَقِيَ مِنْ إِخْوَانِكَ، إِذْ صَرَّيْتُمْ
 فِي الْفَرِيَةِ عَلَى اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ إِلَى كُلِّ بَابٍ عَظِيمٍ، لَا تَقُومُ لَهُ الْجِبَالُ، بِمَفَارِقَتِكُمْ
 لِلْقُرْآنِ صِرَاحًا، وَمَجَادِلَتِكُمْ بَغَيْرِ الْقُرْآنِ، إِلَّا مَا تَعَلَّقْتُمْ بِهِ مِنَ الْمُشَابَهَةِ الَّتِي جَهِلْتُمْ
 فِيهِ التَّأْوِيلَ، وَالْمَعْرِفَةَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، الَّتِي خَاطَبَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَهْلَهَا، وَفَارَقْتُمْ الْحَقَّ
 وَأَبْغَضْتُمْ أَهْلَهُ، وَقَالَ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ
 مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَنَاطُونَ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]. وَكَفَى بِهَذِهِ الْآيَةِ كَلَامًا^(١) وَبَيَانًا
 وَقَطْعَ عَذْرٍ، لِمَنْ تَخَلَّفَ عَنِ الْحَقِّ وَأَهْلِهِ !! لَوْ^(٢) قَامَتْ نَصَفَةٌ، أَوْ إِعْرَاضٌ عَنْ حِمِيَّةِ،
 أَوْ قِيمَةٍ لِلَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِوَجِبِ حَقِّ، ﴿فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١)﴾ [المؤمنون] !!
 وقوله عزَّ وَجَلَّ: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ

(١) فِي (أ): كَلَامًا. وَالْكَلَامَةُ: الْحِفْظُ. وَلَمْ يَتَضَحَّ بِهَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ. فَلَعَلَّهَا مَصْحُفَةٌ.

(٢) فِي (ب): وَلَوْ. مَصْحُفَةٌ.

تُظْفِقُهُ خَلْقَهُ فَقَدَرُهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرُهُ ﴿٢٠﴾ [عبس].

فنقول لك: ما القول عندك في قول الله جل ثناؤه: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ﴾،
أيجوز من فعل حكيم عادل أن يقتل رجلاً في غير جرم، وهو الذي أراد قتله ثم
يقول: قبح الله فلاناً، ما أشرَّه وما أظلمه، هل يجوز هذا في لغة العرب وفي واضح
العقول؟! العقول!

ثم نقول لك على أثر هذا، أحيان قال عز وجل: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرُهُ﴾، أتقول
إرادته لكفره، أم إرادته لايئانه؟

فإن قلت: هو إرادته لايئانه، صدقت وقلت الحق وهو قولنا، لأن الله عز وجل
قد يسر الكفار كلهم للسبيل^(١)، ودعاهم إلى الطاعة، وعرفهم سبيل^(٢) التقوى،
ودهم على النجاة، فاختاروا الكفر على الايمان، ولزمك أنك قد رجعت عن قولك:
إن الله أراد الكفر من الكافرين.

وإن قلت: إن هذا التيسير من الله جل ثناؤه للكافرين، إنما هو إلى سبيل الكفر
لا إلى سبيل الرشd، أكذبك الله عز وجل بواضح البرهان، وأبين البيان، وأقوى
السلطان، بقوله تبارك وتعالى الذي لم تهتد إليه، ولم تدبر[ه] قط في ساعة من
الساعات: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (٣) [الانسان]، فأخبر عز
وجل أنه هدى الكافرين والمؤمنين، ابتداءً منه ومنته ونعمة، بغير استحقاق
استوجبه، وذلك هدى تعريف ودلالة إلى السبيل، بالكتب والرسل، لا هداية جبر
ولا قسر لواحد من الفريقين.

وأخبرنا في هذه الآية أنه قد بدأ الكفار بالدعاء والهداية إلى الايمان وهم على

(١) في (أ): للكفار كلهم السبيل.

(٢) في (أ): بسبيل.

كفرهم، وهذه سنة الله عز وجل في الأولين والآخرين، أنه يدعوهم إلى دينه، وذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ (١٣) فَأَنْذَرْتَكُمْ نَارًا تَلْقَوْنَ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١)﴾ [الليل].

فاسمع إلى هذا البيان، وإلى واضح هذا البرهان، كيف ذهب عنه وكيف خرجت منه وتركتة صفحاً، فلا يبعد الله إلا من ظلم. ثم يكذبك بعد هذا جميع أهل القبلة بأسرهم أن الله عز وجل ما عني بتيسيره الكفار إلى السبيل، إنه لم يمن بذلك إلا سبيل الهدى والطاعة والرشد، لا اختلاف بينهم في ذلك، ومن رده كفر.

وقوله سبحانه: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمُوتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، أهذا عندك قول من أراد منهم الكفر؟ ثم يسألهم فيقول: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ [وَكُنْتُمْ أَمُوتًا]، وهو الذي أراد كفرهم، سبحانه الله العظيم ما أقبح ما قلتم، وأوضح فساداً!!

وقوله عز وجل: ﴿فَمَا هُمْ عَنِ التَّذْكِيرَةِ مُغْرِضِينَ (٤٩)﴾ [المدثر]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ [المائدة: ٧٤]، وقول المؤمن في سورة يس: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢)﴾ [يس]، وقوله يخبر عن الكفار: ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَيْفًا غَوَيْنَا﴾ [الفصل: ٦٣]. فكل هذه الآيات تشهد على تكذيبك، وتشهد لله جل ثناؤه بالبراءة مما قلت، إنه أراد كفر الكافرين.

ثم قال عبد الله بن يزيد البغدادى: وإن سألوكم أخلق الله الكفر والايان؟

فقل: نعم، خلقها الله عملاً من العباد، ولم يعملها على وجه ما عملها العباد، العباد يزنون ويسرقون، ولم يفعل الله ذلك على ما فعله العباد، ولكن الله عز وجل

خلق عملهم، فخلق الطاعة والمعصية عملاً من العباد، وكذلك كل شيء صنعه العباد وعملوه، فالله خالق عملهم عملاً منهم.

واعلم أنه ليس كلام تكلم به أهل القبلة من الجور أقرب إلى الزندقة، من قولهم: إن الله لم يخلق أفعال العباد، فهو إذاً لم يضحك ولم يُبكِ، ولم يجعل اختلاف الألسنة، ولا خلق السراويل، لأن خلق الألسنة لم يختلف، وإنما اختلفت^(١) اللغات، وإنها كتبت هذه المسألة لتعرف ما يدخل عليهم في هذا الكلام، فأحسن النظر ولا تعجل.

واعلم أنهم إن قادوا كلامهم على هذا، زعموا أن الله لم يخلق ثوباً، ولا سربالاً، ولا نهراً، ولا ضحكاً، ولا بكاءً، ولم يسق الله عطشاً، ولم يطعم الله جاعاً، ولم يجعل الله كناناً من الجبال التي عملها العباد، ولا قصرأ من السهل، وأشباه هذا الذي عملها العباد، ولم يخلق الله كفرةً ولا إيماناً، ولم يجعل الله الايمان غير الكفر، ولا الكفر غير الايمان، ولم يحسن الله إيماناً، ولم يقبح كفرةً، وإن ذلك كله عمله العباد وصنعه، وحسنه وقبحه، ولم يحمل الله في ذلك ولم يجعله، وأشباه هذا فهو أكثر من أن نصفه لك.

الجواب قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليها: قد صح لنا أنك من القوم الذين قال الله جل ثناؤه فيهم: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (١٠٤) [الكهف]. قد فهمنا ما ذكرت من فريتك على الله - عز وجل عما قلت - من أن الله خلق أفعال العباد، فخلق الكفر والايمان، والطاعة والمعصية عملاً من العباد، ولم يفعل ذلك - زعمت - على وجه ما فعله العباد، فقد أجبناك على أشباه هذه المسألة في غير موضع.

(١) في (ل): اختلف.

ومن جوابنا لك المسألة القاطعة التي سألناك فيها عن أيهما أفضل أفعِل الله الذي ليس للعباد فيه اكتساب ولا فعلٌ، أم فعل الله الذي للعباد فيه اكتساب وفعل؟ وتلك حجة لا قوام لمجبر بعدها أبداً، ولا مخرج له منها، وهي قبل كلامنا هذا، فاستغنيا بها عن إعادتها.

وأما قولك: إنه لم يتكلم أحد من أهل القبلة بجور أقرب إلى الزندقة، من قولنا هذا: إن الله لم يخلق أفعال العباد، فنحن نقول: إنه ليس قول أوسط في التعطيل والشرك والخروج من الاسلام جملة، من قولكم: إن الله خلق أفعال العباد، ثم غضب مما خلق وعذب على خلقه، فإذا نظرت في المسألة التي فوق هذا الكلام من هذا الكتاب الذي شرحناه، كان مثلك عند نظرك إليها مثل الرجل الذي ذكروا أنه أشرف على نخل البحرين، فلما رأى كثرتهم واتساعه وعظيم شأنه، قال: امرأته طالق، ما على وجه الأرض نخل هو أكثر من هذا النخل !! ثم سار أياماً حتى أشرف على نخل البصرة، فلما نظر إليها وبان له كثرتها وعظم شأنها، وهول ما عاين منها، وأنها أكثر وأجل من النخل الذي حلف عليه، فلما خاف الخنث - زعم - في يمينه التي حلفها، قال عند ذلك: إن شاء الله، فهذا مثلك إذا نظرت في جوابنا في خلق الأفعال.

وأما قولك: إنه يلزمنا أن الله عز وجل لم يُضحك ولم يبك، ولم يجعل اختلاف الألسنة، ولا عمل السرايل، فنحن نقول: إن الله جل ثناؤه خلق فينا الاستطاعة قبل الفعل، وفوضنا في الحركات بعد الأمر والنهي وحكم الكتاب، فإن شئنا قمنا، وإن شئنا قعدنا، وإن شئنا ضحكنا، وإن شئنا بكينا، وإن شئنا أمسكنا، وإن شئنا فجرنا، وإن شئنا أمسكنا عن الفجور، وإن شئنا آمننا، وإن شئنا كفرنا، وإن شئنا صلينا، وإن شئنا لم نصل، وإن شئنا صمنا، وإن شئنا لم نصم، ولذلك لزمنا الحجة ووجب علينا الحكم من الثواب والعقاب والجنة والنار. شاهد ذلك قوله عز وجل: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٥٤) [يس].

وأما قوله: ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ (٤٣) [النجم]، فإنها يعني بذلك: ما في الدنيا من العبر التي تُضحك وتبكي.

ألا ترى أنه عز وجل قال: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ (٢١) [عبس]، وليس هو جل ثناؤه الذي يحفر قبور الموتى ولا يدفنهم. فعلى هذا القياس يخرج الإيكاء والإضحاك، لأن استطاعة البكاء والضحك موجودة في بني آدم من قبل الفعل.

وقوله عز وجل: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) [العلق]، والله لم يَرِ الأقلام، ولم يستمد بها من الدوى، ولم يخط بها في الألواح ولا في الصحف، وإنما هداهم إلى التعليم، وكذلك هداهم إلى صنعة الدروع وغيرها، ولم يصنعها هو دروعاً، عزّ عن ذلك رب العالمين!

وأما اختلاف الألسنة فهو الدلالة على كل لغة والتعريف بها، لا أنه خلق ذلك الكلام الذي قاله أهل اللغات، وقد جاء في الخبر أن لغة بني آدم افترقت على ثمانين لساناً، فلو خلق كلام المتكلمين، لكان الخالق لقول الكفار: إنه ثالث ثلاثة، ولو كان ذلك منه لم يجز في الحكمة ولا في العدل أن يخلق قولهم إنه عز وجل ثالث ثلاثة، ثم يقول: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٣) [المائدة]. ويلزمكم أنهم لو انتهوا عن قولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، كان القول الآخر الذي صاروا إليه، وانتهوا فيه عن الأول هو خلق الله أيضاً. فإذا هو ينهاهم عن خلقه ويحؤولهم إلى خلقه، وهذا هو المحال، والله عز وجل لا يأمر بالمحال، ثم يغضب - زعمتم - من خلقه وتغضب السماوات والأرض والجبال، فيكدن أن يشققن وينفطرن وينهددن من خلقه - زعمتم - ثم يخلد العباد في النار على خلقه وإرادته وتقديره، وهذه صفة أهل العبث واللعب، والتخليط والمجانين، وليس هذه صفة الحكيم الرحيم العادل، الذي لا خلل في حكمته، ولا عبث في تقديره، ولا حجة لأحد في صنعه وخلقه، عزّ عن ذلك ربنا وتعالى!!

ثم نقول لك: أخبرنا عن إرادة الله عز وجل لكفر خلقه - زعمت - هل هو أهل لما أراد من ذلك؟

فإن قلت: نعم، هو أهل لما أراد من ذلك، لزمك أن الله عز وجل أهل أن يكفر به، وبأن كفره، وحسبك بهذا جهلاً!!

وإن قلت: إن الله ليس بأهل لما أراد من الكفر، لزمك أنه ليس بأهل لما أراد، وفي هذه فضيحتك وانقطاعك، فاختر أي القولين شئت، ففي هذه المسألة وحدها قطع كل مجبر على وجه الأرض.

وأما السراييل التي سألت عنها، فهي أيضاً دلالة الله عز وجل دل عليها المؤمنين، وتعريف عرفهم به، ليتحصنوا بها عن الظالمين، دل الله جل ثناؤه وعز نبيه داود صلى الله عليه، فعملها بيده وقدّر سردها باستطاعته، ولم يخلق الله عز وجل الدروع حلقاً ومسامير، وإنما خلق الله عز وجل عين الحديد، ومن ذلك الحديد عمل الناس الدروع، وكذلك جميع الصناعات، ولم يخلق الدروع فيكون زراداً، ولا السفن فيكون نجاراً، وقد قال: ﴿أَفَرَأَى بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) أَفَرَأَى وِرْثَكَ الْكَرِّمِ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ [العلق].

فهل تقول: إن كل كتاب كتبه أحد من كفر وإلحاد، وتشبيه وجبر، وشعر وغناء، وسفه وفساد، إن الله عز وجل هو الذي كتب ذلك الكتاب، لأن خلقه فعله - زعمت - وفعله صنعه، وأنه فعل خلق أفعالهم؟!

فيلزمك أنه إذا تكاتب سفيهان بالسفه أحدهما إلى الآخر، كان الله عندك هو الذي كتب ذلك الكتاب وخلقته، وكفاك بهذا فرية على الله عز وجل!!

وقد سمعت كيف أخبر عز وجل عن أمره لداود بصنعه للدروع، ولنبيه نوح صلى الله عليهما بعمل السفينة، وأنه لبث سنين كثيرة يعلمها، ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [النحل: ٤٠]، من غير نجار ولا زراد، ولا حداد ولا صانع، فجعلت أنت أفعال العباد كلها فعلاً لله تعالى، لجهلك بعدله وحسن تقديره، وأنه لا يعذب على صنعه، وعلى أمر اضطرّ العباد إليه، وقد أعلمناك أن الجعل في كتاب الله عز وجل على وجهين:

جعلٌ حكم وتسمية.

وجعلٌ حتم لا مخرج منه.

وقوله عز وجل: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (١٢) [الزخرف]، فذلك في الفلك خاصة جعلٌ دلالة وتسمية، لا أنه نجرها ولا دسرها، ولا أنهم يركبون الفلك لا بد لهم من ركوبها حتماً، إنما الأمر إليهم، إن شاؤوا ركبوها، وإن شاؤوا تركوها، تخييراً لا جبراً.

وإنما أخبرهم بالنعمة فيها سخر لهم من العידان، والدلالة على عمل النجارة والمسافرة على وجه الماء. فهذه نعم يجب أن تُشكر^(١) ويُعترف لمن تفضل بها. وكذلك ما اعتلت به من العطشان والجائع والعاري، فالله عز وجل الذي خلق الطعام والشراب، وأمر بالاحسان إلى الجياع والعطاش، ولم يطعمهم من طريق الضيافة والتلقيم، ولا حمل الكؤوس إلى أفواههم، ولا النسيج لثياب العارين، وإنما أمر بالاحسان من بعضهم إلى بعض، وحضّ عليه، وقال: ﴿وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، فهذا إطعامه وفضله وكسوته ونعمته. وقال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ

(١) في (ل): يشكر.

لَا تُخْصَوْهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ [إبراهيم]، وهذا هو وجه القول وإصابة المعنى، لا ما ذهبت إليه، من أن الله عز وجل هو الذي يفعل جميع أفعال العباد، وأنه - زعمت - الذي خلق السفن والدروع، وغير ذلك من أعمالهم التي عملوها بأيديهم، واتخاذهم للأصنام.



اشبهة في قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾

فإن قلت: إنه قد قال في كتابه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٦) [الصفات]. قلنا لك: إنه خلق الذهب والفضة، والنحاس والحديد، والخشب والحجارة التي عملوا منها الأصنام، فصوّروها وقدروها ونحتوها، وليس ذلك الذي عملوا بأيديهم فعلاً لله عز وجل، وإنما فعله خلق الأشياء التي منها عملوا، ولو كان فَعَلَ فعلهم، لوجب لهم عليه أن لا يندبهم إلى طاعة، ولا يسألهم عن تقصير، ولا يعذبهم على غير جرم، وهو الذي فعل جميع أفعالهم، وقد أخبرهم أنه لا يبور عليهم ولا يظلمهم، وأنه يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر، فأَيُّ عسر أعسر مما قلتم؟! وأي ظلم أكبر مما ذكرتم؟! عزّ عن ذلك اللطيف الخبير!!

ثم قال عبد الله بن يزيد البغدادى: ثم سلهم عند ذلك كيف جعل الله السراييل التي تقي الحر وتقي البأس؟ وكيف جعل الله من الجبال أكنائاً مما لم يكن فيه ذكر إلا بعمل الناس، أفَعَلَ الله ذلك الخلق ووصله، وغزل القطن والكتان وحاكها؟! فإن قالوا: لا.

فقل: كيف جعل الله السراييل؟ فإنهم لن يجدوا بدءاً من أن يقولوا: خلق الله عمل الناس^(١) وجعل عملهم.

فقل: أفليس الله جاعل عملهم وخالقه وصانعه؟

فإن قالوا: نعم، فقد أعطوك بأن الله خالق أعمال العباد وصُنْعهم، وهذا قولنا وهو العدل.

(١) في (ب): عمل الله. مصحفة.

فإن أبوا أن يعطوك هذا، فأعد عليهم المسألة فقل: كيف جعل الله إذا السراويل التي تقي الحر، والتي تقي البأس؟

أهو خلق الخلق وصنعه ووصله، وهو الذي غزل وحاك وخاط الثياب؟
فإنهم لن يعطوك هذا ولن يجدوا بداً أن يجعلوا صنع الله فيها خلق الله لأعمالهم، وجعل الله لأعمالهم هو صنعه.

ثم سلهم عن قول الله سبحانه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ﴾ [الزخرف: ١٢]، كيف جعل الله الفلك؟

فإن قالوا: خلق الشجر.

فقل لهم عند ذلك: أليس إذا رأينا خشبة أو شجرة قلنا هذه فلك؟
فإن قالوا: نعم، فهذا ما لا يقبله أحد، ويعلم من سمعه أنه كذب، ولن يعطوك هذا.
وإن قالوا: جعل الله لعمل العباد وصنع الله لعملهم، فهو قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ﴾.

فقل لهم حينئذ: هذا قولنا إنا نقول: إن جعل الله^(١) للفلك جعله لعملها، وكلها جعل الله، وجعله فهو خلقه، لأن الله جاعل ما خلق، وخالق ما جعل، وخلقه وجعله وصنعه للأشياء واحد، لم يصنع الله شيئاً لم يخلق، ولم يخلق الله شيئاً لم يجعله.
وإن ذهبوا يلوون ألسنتهم بشيء، فسلهم كيف جعل الله الفلك، أهو شق الخشب وصورها ونحتها؟!

فإنهم لن يعطوك هذا ولن يجدوا جواباً، إلا أن يقولوا: جعل الله لها، خلق العباد^(٢) لها.

(١) سقط من (أ): الله.

(٢) في (أ): خلق الله لعمل العباد.

الجواب قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: قد فهمنا ما سألت عنه من إصافتك إلى الله جل ثناؤه خلق السرايل التي تقي الحر والبأس، وعمل الأكنان والسفن، وغير ذلك من أفعال العباد، التي أضفت فعلها إلى الله جل ثناؤه، وتريد بذلك أن تلزمنا أنه عمل الزرادة والتجارة والخياطة والخرازة، لتثبت أنه الذي فعل الزنا والشرك والكفر، وجميع المعاصي، جل الله وتعالى عما قلت، قدوس قدوس رب العالمين !!

وأما قولك: إنه يلزمنا إذا أنكرنا عليك أن الله بريء مما أضفت إليه، أنه لم يجعل كناناً من الجبال التي عملها العباد، وكذلك السفن والدروع وغيرها، وكذلك نقول: إن العباد هم الذين^(١) حفروا بعض الكنان التي في الجبال، وعملوها بمعاولهم وأيديهم، وقوتهم المركبة فيهم، وإن الله عز وجل لم يعملها ولم يحفرها بالمعاول، وإنما جعل الأكنان والكهوف التي هي في الجبال مخلوقة بلا معاول ولا كلفة، قال لها كوني فكانت من آخر ساعتها.

فذلك فعله عز وجل المخلوق في الجبال، والعباد إنما عملوا أكنانهم التي حفروها بعد الدهور الطويلة، والتعب والنصب وكذلك القصور، ولم يقولوا لها: كوني فكانت، وليس لله جل ثناؤه في فعلهم لها فعلٌ غير ما أعطاهم من القوة التي اختاروا بها ما أرادوا، فهذا قولنا.

والدليل على ذلك، قوله عز وجل: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، وقوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠)﴾ [الشعراء].

أفلا تراه كيف أضاف اتخاذ المصانع إليهم، وعاب عليهم اتخاذها لعلهم

(١) في (أ): العباد الذي. مصحفة.

يخلدون، ولم يقل كما قلت: إنه خلق ما عملوا فيها. فهذا شاهد من كتاب الله جل ثناؤه. وزعمت أنك لا تستطيع أن تكتب علينا كل ما يدخل في مسائلك، لأنها - زعمت - تكثر، وأنت أيها المسكين المغرور لم تظن أنه يحل بك منا ما حل، ولا ينزل بك ما نزل، وليس صبي من صبيان أهل العدل تهوله مسائل أهل الجبر، لأن الحق إنما جعله الله عز وجل حقا في نفسه بالحد، والباطل جعله باطلاً في نفسه بالحكم والتسمية، لا بالخلق والجبر، فمحال أن يزهد حق ويثبت باطل، وإنما الذي يزهد الباطل ويثبت الحق، وكذلك قال رب العالمين: ﴿بَلْ تَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ (١٨) [الأنبياء].

وإلا فأوجدنا إن كنت صادقاً قوي الحجة أين موضع خلق الله لأفعال العباد؟ حتى نعرف كيف ذلك الخلق، وكيف صورته؟ وأين موضعه؟ وأين يكون؟ حتى نفرق لنا بينه وبين فعل العباد، ولو بمقياس شعرة، فلن تجد ذلك أبداً بنور الله وبراءته من قولكم.

وأما قولك: أن نسأل^(١) عن قول الله عز وجل: ﴿جَعَلَ لَكُم سَرَائِيلَ تَقِيكُمْ الْخَرَّ وَسَرَائِيلَ تَقِيكُمْ بِأَسْكُمُ﴾ [النحل: ٨١]، فقلت: كيف جعل الله السرايل؟ وكيف خلقها لهم، وهم الذين عملوها كما عملوا الكفر والايان؟

فإن قلنا لك: - زعمت - أن الله خلق الشجر الذي يكون منه الثياب، وخلق الحديد الذي يكون منه السرايل، فتسألنا - زعمت - هل يجوز إذا رأينا حديداً أن نقول: هذا سرايل، وإذا رأينا شجرة قطن أو قطناً أو كتاناً، قلنا: هذه سرايل تقينا الحر، ولم تغزل ولم تنسج ولم تحك ولم تعمل، وإذا رأينا جبلاً مصنوعاً ليس فيه كنز قلنا: هذا كن.

(١) في (أ): تسأل.

فإذا قلنا: نعم - زعمت.

قلت: فهذا ما لا تقبله العقول، ولا يمتري فيه أحد أنه كذب.

الجواب قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: فجوابنا لك: أنه يلزمك في هذه الدعوى مثل ما يلزمنا لك، وقد علمت وعلم أهل العقول أنا لا نقول: إن الحديد ولا القطن ولا شجر القطن يجوز في اللغة أن تسمى: سراويل تقينا الحر، وسراويل تقينا البأس، ولا يجوز أن يقال لجبل ليس فيه كن: إنه كن، هذا باطل فاسد، محال من المقال، لا يقوله أحد، ولا يذهب إليه متكلم.

ويلزمك أن الله عز وجل خلقها منفرداً^(١) بخلقها، ثم أوجدها فعمل العباد منها السراويل هم منفردون بعمل ذلك، لأن الله عز وجل الذي فعلها لم يعمل الدروع حلقاً مدورة، ولا سترها بمساميرها دسراً، ولا جعل لها الجيوب ولا الأكمام، ولا حاك الثياب بالأنيار^(٢) والأداة، ولا خاطها بالإبر والأجلام^(٣)، ولا جعل لها الجيوب والأكمام، ولا حفر الكهوف في الجبال بالمعاول، وإنما خلق الله عز وجل الحديد الذي منه عملت الدروع، وخلق الشجر، وخلق فيه القطن الذي منه عمل الناس الثياب وحاكوها، هم منفردون بعمل ذلك كله، والحديد والشجر وجميع ما خلق الله من الأشياء التي منها اشتق العباد ما عملوا، كل ذلك موجود غير معدوم ولا مفقود، تبصره الأعيان، وتحسه الأيدي، وتدركه جميع الحواس، وتوقن به العقول، ويوجد جسماً مجسماً، مرئياً مدركاً، حاضراً معروفاً، لا شك فيه ولا مرية.

(١) في (أ): منفرداً.

(٢) الأنيار: جمع نير، وهو الخيوط إذا اجتمعت.

(٣) الأجلام: جمع جَلَم، وهو ما يميز به الصوف.

وعند ذلك يلزمك أيها المفترى على الله عز وجل الفرية العظيمة في قولك: إنها خلق الكفر والشرك، وجميع القبائح والمعاصي، كما خلق الحديد وشجر القطن. والكهوف الموجودة في الجبال من خلق الله عز وجل وتقديره، وأنتك تلزمه عز وجل أنه خلق الدروع وحاك الثياب، وعمل السفن والصناعات، والكهوف المحفورة.

فنقول لك أيها المفترى على الله: أوجدنا الكفر والشرك، والزنا والخنا، وقول الكفار: إن الله ثالث ثلاثة، وإن له - عز وجل - صاحبة وأولاداً، وكذلك توجدنا قتل الأنبياء وأئمة الهدى، كما أوجدتنا الحديد الذي منه عُمِلت الدروع، والشجر الذي منه عُمِل القطن، والخشب الذي منه عُمِلت السفن، وجميع ما ذكرت، حتى نبصره بالآعيان، ونلمسه بالأيدي^(١)، وتدركه جميع الحواس، ويكون جسماً موجوداً معروفاً، قد تميّز من قبل فعل الآدميين له، كما تميز الحديد وشجر القطن، وغيره من قبل عمل الآدميين له، فتوجدنا جسماً معروفاً مقدوراً عليه، ومنظوراً إليه، أو مسموعاً صوته، أو مشمومة رائحته، أو مدركاً ذوقه، أو ملموساً بحاسة، أو محوياً^(٢) بقطر من الأقطار، كما أوجدتنا الحديد والقطن والخشب، وغير ذلك مما خلق الله عز وجل.

لا بد لك من ذلك، وإلا لزمك أنك تناظرنا على أمر محال، وخلق لا يدرك ولا يعرف، ولا يوجد متجسماً ولا مرئياً ولا ملموساً، فتكون دعواك باطلة بلا بينة، ولا أمر تشهد عليه العقول والألباب، ولا تدركه الحواس، ولا يوجد في لغة العرب، ولا يوجد في كتاب ولا سنة، وإنما هذه نزغة من نزغات الشيطان، ألغاه في قلوبكم وعلى ألسنتكم، لتثبتوا بها حجة المشركين والكافرين، والزناة وقتلة الأنبياء، وجميع

(١) في (أ): وتلمسه الأيدي.

(٢) في (أ): وعويا.

العاصين، وأن تكون الحجة على الله لهم لازمة، وعليه قائمة، بها خلق لهم - زعمت - وفيهم، من الشرك والكفر، والزنا واللواط، وجميع المعاصي.

فأخذوا كل هذه الفواحش والكبائر، من فواحش قد وجدوا ربهم - زعمت - قد سبق إلى فعلها، وخلقها قبل خلقهم لها، فمنها عملوا، ومنها أخذوا، ولولاها ما وجدوا كفرا يكفرونه، ولا شركاً يُشركونه، ولا زناً يزنونه، ولا لواطاً يلوطونه، ولا قتلاً يقتلونهم، ولا عصياناً يفعلونه.

كما أنه عز وجل لو لم يخلق لهم الحديد وشجر القطن، والتراب والماء، والحجارة والأدم^(١)، والصوف والشعر والجبال، لم يجدوا حديداً يعملون منه الدروع، ولا شجر قطن يحوكون منه الثياب، ولا صوفاً يعملون منه الأكسية، وغير ذلك من الأثاث، ولا تراباً ولا ماء^(٢) يعلمون منه القصور، ولا خشباً يعملون منه^(٣) الأبواب والسقوف.

ومن الحجة لنا عليك في أن الاستطاعة قبل الفعل، وأن أفعال العباد في قولنا: نحن غير خلق الله عز وجل، وأنه بريء من خلقها، وأنها فعلهم هم تفردوا بها، لا فعل رب العالمين، عزّ عن ذلك وتعالى !!

ف نقول لك أيها المجبر ولإخوانك المجبرة: خبرونا متى خلق الله عز وجل الاسلام، أقبل إرسال الرسل، أم بعد إرسال الرسل؟

فإن قلتم: إن الله جل ثناؤه خلق الاسلام قبل إرسال الرسل، لزمكم أن الاستطاعة قبل الفعل، ولزمكم أيضاً أن إرساله لأولهم وهو آدم عليه السلام، أن

(١) الأدم: الجلد.

(٢) سقط من (ب): ولا ماء.

(٣) في (أ): بها.

الصيام والصلاة والحج والعمرة والجهاد وجميع الفرائض، قد كانت معروفة موجودة، محدودة مخلوقة، قبل أن يرسل الله عز وجل بها آدم عليه السلام.

ثم يلزمكم أيضاً أن يقال لكم: خبرونا عن هذه الفرائض التي زعمتم أنها مخلوقة قبل بعثة آدم عليه السلام، كيف هي؟ وما هي؟ وأين هي؟ أفي أرض؟ أم في سماء؟ وكيف صورها؟ وهل تُدرك ببصر؟ أو تحس بسمع؟ أو تنال بلمس؟ أو تذاق؟ أو تشم باستنشاق؟

فإن قلتم: إنها موجودة في الأوهام، من غير أن تدرك بالحواس.

قلنا لكم: فقد نراكم قد أوجدتمونا قديماً موجوداً في الأوهام آخر مع الله عز وجل، لا يُدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، فيه الصفة التي وصفت^(١) بها الواحد، الذي ﴿أَيَسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وهذا كفر بالله العظيم، وخروج من الاسلام، وإبطال الوحدانية، ودعوى إلهين اثنين صفتها واحدة لا فرق بينهما، لأنكم ادعيتُم شيئاً ليس له حد ولا غاية تعرف، ولا نهاية يوقف عليها، ولا تدركها الحواس، ولا تُعلم هذه الصفة إلا للواحد القديم الأزلي، الذي ﴿أَيَسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، تبارك وتعالى.

فهذه حجة لازمة لكم، ودامغة لدعواكم^(٢)، ولا مخرج لكم منها.

وإن قلتم: إن الله عز وجل خلق الاسلام بعدما أرسل الرسل، لزمكم أن الاستطاعة قبل الفعل أيضاً، وأن الله جل ثناؤه أرسل رسله يوم أرسلهم، وليس معهم اسلام يدعون الناس إليه، ولا هدى يوجب لهم الطاعة، ولا تقوم لله به على بريته حجة، لأنه - زعمتم - إنها خلق الاسلام بعد إرسال الرسل، فوجب عليكم

(١) في (أ): وصفهم.

(٢) في (أ): لازمة لك. وفي (ب): ودامغة لدعواك.

أنه أرسل إلى الناس رسلاً غير مسلمين، إذ لا إسلام معهم، وإنما خلق - زعمتم - بعد إرسالهم، وكفى بهذا كفراً وجهلاً من قائله !! وفيه خروجكم من دين الإسلام. وإن قلتم: خلق الله عز وجل الإسلام مع إرساله للرسل، لا قبل ذلك ولا بعده، رجع عليكم القول الأول، والمطالبة لكم من خصومكم بأنه لا بد لكم أن تجدونا الإسلام، الذي ادعيتم أنه خُلق مع إرسال الرسل، بحدوده وشخصه، ولمسه وذوقه، وسمع صوته وحسه، والنظر إلى صورته وإدراكه، وإحاطة الأنظار به، حتى يعرف ويوجد، ويوقف على صورة ذلك الخلق، إن كان خلقاً لله عز وجل!!

وإن قلتم: إنه لا يدرك إلا بالصفة لا غيرها، لزمكم أنه واحد ليس كمثله شيء، لأنه قد انتظمته صفة الله عز وجل الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] - في زعمكم - لأن كل شيء خلقه الله عز وجل من الخردة فما فوقها من السماوات والأرض، لا بد له من ستة حدود تحوي كل مخلوق خلقه الله عز وجل، وهي القدام والخلف، واليمين واليسرة، والفوق والتحت. فهذه الحدود لا بد لها أن تحيط بكل مخلوق، لأن الخالق عز وجل لا حد له، ولا قدام ولا خلف، ولا يمين ولا يسرة، ولا فوق ولا تحت.

فهذا الفرق بين الخالق عز وجل وبين المخلوق، وما ليس له حدّ يدرك بالحواس، فليس هو خلقاً لله عز وجل. وهذا أكبر الدليل على أن أفعال العباد غير مخلوقة، ولو كانت مخلوقة لكانت بائنة، بمعنى تحيط به الحدود والأقطار^(١) دون فاعليها، وإنما أفعال بني آدم حركاتهم وفعلهم هم، لا فعل الله عز وجل ولا خلقه. وكذلك الكفر يلزمكم في خلقه من الحجة مثل ما لزمكم في خلق الإسلام

(١) في (ب): ثابتة لمعنى تحيط الأقطار.

سواء، إن ادعيتُم أنه خُلِقَ قبل الكفار، طالبناكم بشخصه^(١) وحدّه، ولمسه ودرك الحواس جميعاً له.

فإن لم تأتوا على ذلك ببرهان، لزمكم توحيدُه، لما جعلتموه بصفة الواحد، ولا بد لكم من أحد هذه الثلاثة الوجوه التي ذكرنا لكم، ليس لها رابع، وليس لكم من واحد منها مخرج.

فاعرفه ما قلت يا عبد الله بن يزيد البغدادي لإخوانك، من قولكم لهم: إن ليس قول أقرب إلى الزندقة - زعمت - من قول أهل العدل: أن ليس أفعال العباد مخلوقة!!
فأي القولين الآن أقرب إلى قول الزنادقة؟!

بل أيهما هو الزندقة؟

بل أيهما هو الشرك الأعظم الذي جعلتم الله - عز وجل - عن قولكم فيه - شريكاً لكل مشرك، أو فاعل فاحشة، أو مرتكب لعظيم كفر، فجاز حد^(٢) قولكم قول أهل الأصنام، وفات من^(٣) جميع الأنام، وأخرجكم من قبة الاسلام، فلا يبعد الله إلا من ظلم.

قال الله: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تُنْكِرُونَ (٦٦)﴾ مُنْكِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ [المؤمنون]، وقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ (١٠٥)﴾ [المؤمنون]. أهذا عندك قول من أراد أن يكفر به؟! أو قول من خلق الكذب والاستكبار، وعذب عليه؟! ثم سمى نفسه: عادلاً لا يظلم، ثم قال: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٣].

(١) في (أ): بشخصه.

(٢) سقط من (أ): حد.

(٣) سقط من (أ): من.

وأما اعتلالك بقوله عز وجل: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦، الزمر: ٦٢]، فقد أعلمناك أن هذا خصوص لا عموم. والدليل على ذلك ما يلزمك الاقرار به، أحبيت أو كرهت، وهو قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

فنقول لك: أخبرنا عن الدهرية المعطلة، الذين زعموا أن ليس لهم خالق، أليس هم شي أم لا؟!

فإن قلت: أن ليس هم بشيء، أكذبك جميع الخلق، وخرجت من حد الكلام، ودخلت في العبث.

وإن قلت: هم شيء.

قلنا لك: فهل هم يسبحون الله؟

فإن قلت: نعم، بانت فضيحتك، وأكذبك جميع الخلق، لأنهم معطلة يجحدون الخالق، وهم الذين ذكر الله عز وجل في كتابه، حين قال: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا هُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٢٤) [الجاثية].

وإن أقررت أنهم ليس يسبحون الله جل ثناؤه، قلنا لك: قد صدقت، وفي صدقك هذا يلزمك أن ليس كل شيء يسبح الله عز وجل، وإنما عنى بعضاً دون بعض. وكذلك قوله: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦، الزمر: ٦٢]، إنما عنى ما خلقه جل وعز، لا ما خلق العباد. وفي هذا كفاية لمن عقل.

وإنما خلق الله جل وعز الأجسام والأعراض، لا غيرهما مما يعرف، وليس له عز وجل خلق ثالث يعرف إلا الأجسام والأعراض، إلا ما قاله عز وجل: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨) [النحل]، ولا يقوم عرض إلا في جسم، ولا جسم إلا في عرض.

فإن قلت: إن الأعراض لا تدرك بالحواس، ويلزمكم لنا فيها مثل ما لزمنا لكم في خلق أفعال العباد.

قلنا لكم: فإن جوابنا لكم في ذلك أن الأعراض ترى وتسمع وتدرك، وليس أفعال العباد ترى ولا تسمع، ولا تدرك بصورة ينظر إليها، ولا جسم متجسم، إلا أن يقول قائل: إن القتل يرى بمعنى غير حركة الآدمي، (أو أن الصلاة ترى بمعنى غير حركة الآدمي، أو أن الزنا يدرك بمعنى غير حركة الآدمي)^(١)، أو شيء من جميع أفعال بني آدم يقال فيه: إنه يدرك أو يرى بمعنى آخر غير حركة الآدمي^(٢)، فلا يوجد السبيل إلى ذلك أبداً، إلا أن توجدونا شمسين في وسط السماء.

وكذلك الزنا ليس هو شيء يدرك ولا يحس، غير التقاء الفرجين، وحركة الفاعلين تكون مع ذلك، ولا يوجد خلق كما افترت إلا أجسامها، فأجسامها خلق الله عز وجل.

وكذلك الزكاة ليس هي شيء يحس ولا يدرك، غير دفع الدينارين والدرهم والحبوب، من يد رجل إلى رجل، فأين خلق الزكاة؟ أوجدنا إن كنت صادقاً حتى نعرفه بصورته، ولن نجد ذلك أبداً.

وكذلك الجهاد ليس هو شيء يحس ولا يدرك، إلا الرجل يضع السيف ويرفعه، ويرسل السهم ويمسكه، ويمد الرمح ويصرفه، فأين خلق الله عز وجل لقتل الأنبياء، وسفكه الدماء، وفعله لجميع القبائح من الأشياء التي قلت فيه؟!

هل هو إلا ما ذكرنا من حركات بني آدم التي برئ الله عز وجل منها ومن خلقها، حيث يقول عز وجل: ﴿وَتَخْلُقُونَ أَفْكَاءَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وتلك الحركة

(١) سقط من (ب): ما بين القوسين.

(٢) سقط من (أ): غير حركة الآدمي.

فهي^(١) فرع الاستطاعة التي ركبها الله عز وجل في خلقه، وهي القوة التي وهب لهم، ثم حظر بالأمر والنهي المؤكد، والبرهان المشدد، أن لا يستعملوا تلك القوة - التي وهب لهم، وفوضهم فيها، مخيرين غير مجبورين في إمساكها ولا إرسالها - إلا في جميع ما يرضيه، وأن لا يعملوا^(٢) بها شيئاً مما يسخطه.

وأعدّ الجنة لمن أطاعه، وأعد النار لمن عصاه، وأرسل بذلك الرسل، وأنزل به الكتب، وأعذر وأنذر، وحذر وكرر، ﴿لَيْهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْتَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيْتَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢]، فمن ادّعا بعد هذا شيئاً يريد به إسقاط الحجة عن الكفار والعصاة، ويلزم الله عز وجل الظلم والجور؟! فقد كفر بآيات القرآن، وهو قوله عز وجل: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣]^(٣)، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥].

وقلت أنت أيها المجبر: إنه أراد الكفر من الكفار، وقد كررنا هذه الآيات، لأنها حجة الله عز وجل، ولا حجة أقوى منها، وقد وجدنا الله تبارك وتعالى قد كرر القول في غير موضع من كتابه، لتأكيد الحجة والإبلاغ في الموعظة، وفي أقل مما قلنا به كفاية، وانقطاع لكل مجبر على وجه الأرض، والحمد لله رب العالمين.

(١) في (ب): هي.

(٢) في (أ): وأن يعملوا.

(٣) في (أ) و (ب): ﴿وما اختلفوا إلا من بعد...﴾، ولا توجد آية بهذا اللفظ.

ومن الحجة عليكم في قولكم: إن الله عز وجل خلق الاسلام قبل إرسال الرسل، أنه يلزمكم أنه قد كانت صلاة موجودة من غير مصل، وزكاة موجودة من غير متزك، وصيام موجود من غير صائم، وحج موجود من غير حاج، وعمرة موجودة من غير معتمر، وجهاد موجود من غير مجاهد، وأمر بمعروف، ونهي عن المنكر من غير قائم بذلك، وهذا هو الخروج من المعقول، وهو يبطل قولكم: إنه فعل من فاعلين، بأوكد حجة، وأوضح برهان.

وإن قلتم: إن الله خلق الاسلام بعد إرسال الرسل، لزمكم أن الاستطاعة موجودة قبل الفعل لا بد من ذلك، لأنه يلزمكم أن الرسل قد دعتمكم إلى أمر قبل فعلكم له، إذ ليس من شأنها عليها السلام، ولا من^(١) عدل من خلقها تبارك وتعالى الدعاء إلى ما لا سبيل إلى دركه.

وإن قلتم: إن الله خلق الاسلام مع إرسال الرسل، لزمكم أن توجدونا صورة الاسلام وحسّه ودركه قبل أن يفعل.

فإن قلتم: إنه لا يدرك إلا بالصفة، لزمكم أنه إله^(٢) موجود فيه، مثل صفة الله تبارك وتعالى، فلا خلاص لكم من هذه الثلاثة الوجوه، وفيها انقطاع قولكم، وبيان جهلكم، وفريقتكم على خالفكم، ومفارقتكم لكتابه صراحاً، وظلمكم لأهل العدل، وكذبكم عليهم:

إلا أن ترجعوا وتوبوا، ويكون قولكم: إن الله عز وجل لم يخلق أفعال العباد، لا الصالح منها ولا الطالح، وإنه بريء من ذلك كله، إلا ما أمر به، ونهى عنه، وهو متعالٍ عن خلق أفعال العباد، متنزه عن خلق الفواحش، وجميع الشرك والظلم

(١) في (ب): في.

(٢) في (ب): أن الإله.

والكفر، وقتل الرسل وأئمة الهدى، وإلا فالنار لا شك فيه، لقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٨) ﴿[الأعراف]، وقوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٣]، وقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٨) ﴿[آل عمران]، وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١].

أفلا تسمع إلى قولهم وإقرارهم أنهم الذين فرطوا، وأنهم قد دعوا بالحسرة على ذلك التفريط، ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ (٣١) ﴿[الأنعام]، ولم يقولوا ما قلت: يا حسرتنا على ما خلق الله من أفعالنا !! ولا على ما أراد منا !! وقوله: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فِرْدَوْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ (٦١) ﴿[ص].

فنقول لك: أخبرنا عمن قدّم لهم ذلك، أهو المرید لكفرهم؟

فإن قلت: لا، رجعت عن قولك بالجبر.

وإن قلت: نعم، المقدم لعذابهم هو المرید لكفرهم، لزمك أن خالقتك يدعو على نفسه بعذاب النار، هذا من أعظم كفر قال به قائل !! فالحمد لله المعز لدينه، والموضح لبراهينه، والناصر لأهل طاعته، والذابين عن كتابه، وهو القوي العزيز.

واعلم علماً يقيناً أنه لا حد لفعل بني آدم يدرك إلا حد فاعله، وليس هو بشيء بائن عن فاعله، إنها هي الحركات الموجودة فيهم، وهي فرغ لاستطاعتهم، والاستطاعة فعل الله عز وجل التي عليها البنية، والحركات فعلوها بإرادتهم واختيارهم، بعد الأمر والنهي من الخالق الحكيم.

ولو كانت أفعال العباد قائمة موجودة وحدها على الانفراد، بائنة عن الأجسام، ثم وصفتها المجبرة بصفة غير ما قلنا، للزمها أن تثبت لها الحدود والأقطار.

وإن لم تجدها^(١) ونفت عنها الحدود على الانفراد، لزمها أنها قد وجدت كما وجدت الصانع القديم. وهذا أبطل باطل يكون، وفيه القطع لكل مجبر على وجه الأرض، إذ لا حجة تفسد ما قلنا، ولا تقطع ما به احتجاجنا.

والدليل على ذلك، قوله عز وجل: ﴿وَتَخْلُقُونَ أَفْكَاءَ﴾ [العنكبوت: ١٧]. فإنما ذلك الإفك حركاتهم، ولو كان الإفك شيئاً غير حركاتهم، منفرداً عن حركاتهم، لوجب أنهم يخترعون عيون الأشياء، ويخرجونها من العدم إلى الوجود، كفعل الواحد الحميد، فلا يقدر على ذلك إلا الله الكبير المتعال، الذي لا يعجزه شيء. وهو الولي الحميد.

ويلزمكم أيضاً في قولكم إن قلتم: إن الله عز وجل خلق الاسلام مع إرسال الرسل، أن يقال لكم: إن الرسل متفاوتون في البعثة، وكل رسول منهم بينه وبين صاحبه المدة الطويلة، والسنون الكثيرة، فلا يجوز لكم أن تقولوا: إنه خلق الاسلام إلا مع إرسال الأول منهم، وبقاء من بقي بلا اسلام، حتى يُخلق له اسلام جديد يكون معه.

فإن قلتم: إن خلق الاسلام الأول يجزي من بقي.

قلنا لكم: فقد وجدنا مع كل واحد منهم شريعة تخالف الأخرى، وأحكاماً تخالف الأحكام التي من قبلها، وهذا ينقض^(٢) عليكم ما ادعيتم من خلق الاسلام الأول، لأن مع كل نبي أمراً غير أمر صاحبه، وشريعة غير شريعة صاحبه. فأين الخلق الذي ادعيتم من أن الاسلام مخلوق، فلا يجوز ما قلتم، وإنما الاسلام أمر ونهي، وشرائع وأحكام، تحدث بحدوث النوازل في كل عصر وزمان، فالاسلام

(١) في (أ): تجدها. مصحفة.

(٢) في (أ): ينقض.

دين الله عز وجل، وهو أمرٌ أمرٌ به، لا خلق خلقه، والشرائع مختلفة لحكمة المتعبد لعباده، وتصريفهم من الأمر على ما أَرَادَهُ، ولو كان الاسلام مخلوقاً، لكانت شرائعه شيئاً واحداً، لا تختلف ولا تنتقض عن الحلقة الأولى التي فطرت عليها، والحمد لله رب العالمين.

وإن أُبَيِّتَ إلا أن الله الذي خلق أفعال العباد، قلنا لك: فإنه يلزمك أن توجدنا شركاً وكفراً وزناً وقولاً: إن الله ثالث ثلاثة، وإن له ولداً وصاحبة، عز عن ذلك !! وكذلك توجدنا قَطَعَ الطرق، وأخذ الأموال، ونقب الحوانيت، وغلّ الزكوات، وقتل الأنبياء والمرسلين، وعباد الله الصالحين، فتوجدنا ذلك كله من خلق الله له.

كيف خلقه^(١)؟

فأين وجده العباد حتى اكتسبوه كما قلت؟

وأين هو؟

وهل تراه الأعيان؟

أو هل تسمعه الأذان؟

أو تدركه العقول منفرداً؟

وهل تدركه الأيدي والأرجل؟

وهل يُدْرَكُ بالذوق أو الشم؟

وهل تحويه الفكر؟

وهل تقع عليه الخواطر؟

وهل تحويه الأقطار منفرداً، كما تحوي سائر الأشياء المحوية الموجودة؟! حتى

(١) سقط من (أ): خلقه.

يصح لك، وتبين حجبتك فيه، ونعلم نحن وأصحابك أنك صادق في دعواك، أن الله خلق الشرك والكفر وجميع المعاصي، فيصح ذلك لنا ولك ولجميع الناس. كما صح الحديد الذي قلت الذي منه عملت الدروع، والشجر الذي حدث منه القطن فعملت منه الثياب، والخشب الذي عملت منه السفن، كما قلت، وصح لك لعمرى.

وهذا حق أن الحديد الذي عملت منه الدروع، وشجر القطن، وخشب السفن، والأكنان في الجبال، كل ذلك موجود، ومنه عمل الناس جميع الصناعات التي عملها بنو آدم، إنها عملوها من^(١) أشياء وجدوا الله عز وجل قد سبق إلى خلقها وإحداثها، واقتطارها من قبلهم، فأخرجها من العدم إلى الوجود، لم يشاركه في خلقها أحد، ولم يسبقه إليها صانع. فعمل الناس منها جميع ما عملوا من الصناعات، التي لا تقوم الدنيا ولا تعمر إلا بها وبعملهم لها.

وذلك من الدلائل العظام على التوحيد أن أحداً لا يحدث جسماً، ولا يبتدع صنع شيء من جميع الأشياء المجسمة، ولا يقدر على إحداث ذلك كله إلا الله القوي العزيز، فمن صنعه وخلقه وفطرته واختراعه عملوا، ولولا ما وجدوا من ذلك، ما قدروا على شيء يعملون منه مصالحهم، لأن هذه الأشياء مشاهدة مرئية موجودة، تدرك لا شك فيها من درك الحس^(٢)، من الشم والذوق، والسمع والبصر.

وأما الشرك الذي ذكرت أنت وإخوانك المجبرة، وجميع المعاصي التي ادعيت أن الله عز وجل خلقها، وأخرجها من العدم إلى الوجود، فيلزمكم لنا أن تأتوا عليها بدليل وبرهان، أضوا وأوضح من نور الشمس الطالعة، حتى يتبين للناس

(١) في (أ): في.

(٢) في (أ): الحس. مصحفة.

صدقكم، ولن تجدوا ذلك أبداً، ولن تقدروا عليه، لأن المعنى الذي ذهبتم إليه فسميتوه: خلقاً لله - عز وجل عما قلتم - إنه حركات العباد التي يتحركون بها بالقوة التي فيهم، والله عز وجل إنما خلق الاستطاعة وهي القوة المركبة في بني آدم، وهم فيها مخيرون، إن شاؤوا تحركوا بها، وإن شاؤوا لم يتحركوا.

فالاستطاعة من الله عز وجل موهوبة، منة ونعمة، والحركات ليست من الله عز وجل، وإنما هي فعلهم هم لا فعل الله عز وجل.

وشاهد ذلك القوي الواضح من كتاب الله عز وجل، قوله: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٣٠) [النور]. فلو كان الله عز وجل هو الخالق لنظرهم إلى المحارم، والخالق لحركاتهم في الفروج التي يتحرك بها^(١) الآدميون، لم يجز في الحكمة ولا في العدل أن يقول للمؤمنين: ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾، وإنما نهاهم عز وجل عن أمر هو إليهم مالكون له، إن شاؤوا فعلوه، وإن شاؤوا لم يفعلوه.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (٢) [الحجرات]. ولو كان الله عز وجل خلق حركاتهم بالأصوات، لم ينههم عن خلقه، وإنما نهاهم عز وجل عما يعلم أنهم يقدرون على تركه.

والله عز وجل فلم يخلق حركات العباد، وهي الزنا الذي تحركوا له، والقتل الذي تحركوا له، والشرك الذي تحركوا له، وحرركوا فيه ألسنتهم وأيديهم، وقالوه بأفواههم وأهوائهم، وكذلك جميع الظلم والفواحش التي حركوا فيها جوارحهم وحواسهم، وقد حظر الله عز وجل عليهم أن يستعملوا تلك الحركات إلا في

(١) سقط من (أ): بها.

الطاعات، والكف عن المحرمات، فعصى من عصي، فوجبت له النار، وأطاع من أطاع، فوجبت له الجنة. إذ ليس ثمَّ جبر ولا إكراه، ولا خلق فعلٍ. والله عز وجل لم يخلق شيئاً من جميع أفعالهم، ولو خلقها لكان شريكاً لهم، وإذا كان لهم في شيء من أفعالهم، قلَّ أو كثر، شريكاً لم يكن إلهاً، ولزمه من الجور والظلم، والخروج من الحكمة والعدل، في عذاب مَنْ خلق فعله، ما يلزم الجائرين.

ودليل ذلك أنا نقول لك: هل يعذب الله عز وجل داود عليه السلام في عمل الدروع التي قتلت، أو يعيب ذلك عليه؟! وهل سمعته قال: لمْ فعلت ولمْ عملت الدروع؟! وإنما أخبر أنه علّمه صنعة الدروع، ولمْ يخبرنا أنه هو الذي خلق الدروع. وكذلك آدم صلى الله عليه لمْ يعذبه الله عز وجل في حوك الثياب، ولا الجرث، ولا فيما عمل من الصناعات.

ولا قال لنوح صلى الله عليه قولٌ تعنيف في عمل السفينة، ولا عذبه على عملها، ولا سمعته في شيء من كتابه قال لمؤمن ولا لكافر: لمْ عملتم الدروع؟ ولمْ عملتم الأكنان في الجبال؟ ولمْ عملتم الآلات؟ إلا أن يعملوها لباطل أو معصية لله جل ثناؤه، فهناك يقع التعنيف ويجب العذاب.

وإنما قال لهم عز وجل: لمْ كذبتُم رسلِي، وأعرضتم عن كتبي، وألحدتم في صفتي، وشبهتموني بالجائرين؟! ولمْ قتلتم أنبيائي والأئمة من خلفائي، والمؤمنين من أصفائي؟ ولمْ كفرتم بي وعبدتم غيري؟ وخالفتم أمري ونهيي؟!

فهذا يوجب أن ليس لأجل خلقه لما خلق يعذب عباده، إنما يعذبهم لما خلقوه هم، وأتوه عامدين بأهوائهم وإرادتهم وحركاتهم. فهذا جوابنا لك على دعوائك في خلق الكفر، الذي زعمت أن الله عز وجل خلقه وأراد.

وهذا ما لا يخرج لك منه، لأننا سألناك أن توجدنا شركاً^(١) وكفراً وظلماً وفواحش مخلوقة، منها أخذ العباد ما عملوا، ومنها اكتسبوا ما به كفروا، كما أوجدتنا الحديد والقطن والخشب والأشياء المخلوقة الموجودة، التي احتججت بها علينا في مسائلتك هذه.

ولن تجد شركاً ولا كفراً ولا فسقاً ولا فواحش أخذ منها العباد ما عملوا، ولا منها اكتسبوا ما به أحدثوا.

فلا سبيل لك إلى وجود ذلك أبداً، حتى تناول النجوم من أعنان السماء بكفك، ولن يكون ذلك أبداً، وفي هذا بطلان قولك، ولزوم^(٢) حجتنا لك، ووجوب النار عليك، إلا أن ترجع وتتوب عما قلت أنت ومن تبعك، والحمد لله رب العالمين.

وأما قولك: إن الله عز وجل الذي خلق الكفر والايان، على وجه غير ما خلقه العباد عليه، وإن العباد - زعمت - يزنون ويسرقون، وهذا - زعمت - لا يجوز على الله، ولا نعلم أحداً اجترأ على ما اجترأت عليه، من هذا القول الفاحش الذي استخرجته^(٣) من عقلك.

فنقول لك أيها الأعمى في دينه، والجاهل بربه، فقل أيضاً إنه قد يجوز أن يرى على غير وجه الحقيقة، من المعاينة غير نظر الأعيان، ويُسمع على غير وجه (الحقيقة من المعاينة غير نظر الأعيان، ويسمع على غير وجه)^(٤) من حقيقة السمع غير سمع

(١) في (ب): شريكاً.

(٢) في (أ): ولزومك.

(٣) في (أ): استجزته.

(٤) سقط من (أ): ما بين القوسين. وفي (ب): غير وجهه. والصواب ما أثبت.

الآذان، وأنه تشاهده^(١) الخليفة بالحواس [على غير وجه] من حقيقة المشاهدة، والحس المحسوس الذي يُعقل من غير حس ولا مشاهدة^(٢)، وكل هذا محال لا يجوز، كما استحال ما قلت.

وأخبرنا ما الفرق بين قولك هذا الذي ضاهيت فيه قول النسطورية من النصاي وبين قولهم، إذ زعمت النسطورية أن عيسى صلى الله عليه ابن الله على معنى - زعموا - غير معنى الولادة.

فنقول لك: هل يلزم النسطورية بهذا القول كفر أم لا؟!

فإن قلت: إنه يلزمهم الكفر بهذا القول، لزمك مثله، لأنك زعمت أن الله عز وجل فعل الزنا والسرقه على وجه غير ما فعله العباد.

وإن قلت: إنه لا يلزم النسطورية بهذا القول كفر، خرجت من قول أهل الصلاة، وفارقت أهل الاسلام.

وإن قلت: إنه يلزمهم بهذا القول الكفر، لزمك مثله سواء، لأنهم جاؤوا بكلام محال، وجئت بكلام محال مثله، لا فرق بينهما في وجه من الوجوه.

وقد قال علي بن الحسين رحمه الله عليه: «ليس في محال القول حجة، ولا في المسألة عنه جواب»، فقد أعظمت الفرية بقولك هذا على خالقك، فلا يبعد الله إلا من ظلم، وكيف يلزم خالق الزنا والسرقه وجميع المعاصي عيب ما خلق؟!

• وكيف لا يفسد قوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (١٤) [المؤمنون]؟!

فإن قلت: إنه لا يلزمه عيب ما خلق.

(١) في (ب): شاهد.

(٢) في (أ): ومشاهدة.

قلنا لك: وكذلك لا يلحقه^(١) حمد ما خلق.

فإن قلت ذلك، خرجت من الاسلام، ومن قوله: ﴿اشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا﴾ (البقرة: ١٥٢) وكيفما قلت لزمك فيه الكلام حتى ترجع إلى الحق، فنقول: إن الله عز وجل لم يخلق شيئاً من جميع ما افترته عليه فنفلجك.

ثم نسألك فنقول لك: هل العقول المركبة فينا تدلنا على غير الحق أنه حق؟ وعلى غير الباطل أنه باطل؟

فإن قلت: نعم، إن الأشياء تخالف العقول، وإن العقول لا تميز الحسن من القبيح، ولا الحق من الباطل، خرجت من حدّ مَنْ يُكَلِّمُ، وأكذبك جميع الخلق، لأنك يلزمك إن قلت بهذا، أن العقول لا تميز الليل من النهار، ولا القحط من الأمطار، ولا الظلمة من الأنوار، ولا السّوام من الأشجار، ولا غير ذلك مما تحوي الأقطار.

وإن قلت: لا يجوز ذلك أن تستحيل الأشياء في العقول، وتقلب على غير وجوها حتى لا تميزها العقول، لزمك أن الذي قلت باطل وكفر، من أنه يخلق الزنا على معنى غير الزنا، والسرقة على معنى غير السرقة. وفي هذا كفاية، والحمد لله رب العالمين.

ثم نقول لك: أليس تقرر لنا أن الله عز وجل (الأسماء الحسنی؟

فإن قلت: نعم.

قلنا لك: أفليس قد افترض الله عز وجل^(٢) أن ندعوه بأسمائه الحسنی، حيث قال: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠؟

(١) في (أ): يلزمك يلحقه.

(٢) سقط من (أ): ما بين القوسين. سهواً.

فلماذا قلت: نعم.

قلنا لك: فهل يجوز لنا ولك أن ندعو الله^(١) عز وجل فنقول له: يا خالق الكفر والشرك، والزنا واللواط، والأشعار والغناء، وجميع المعاصي اغفر لنا.

فإن قلت: نعم، ذلك جائز أن يُدعَا به.

قلنا لك: فما الفرق بين الأسماء الحسنى، والأسماء القبيحة، حتى نعرف بعضها من بعض؟!

فإن قلت: إن هذه الأسماء التي ذكرنا حسنة جميلة، لا عيب في الدعاء بها، لزمك أن الزنا والشرك والكفر، وجميع الفواحش والمعاصي كل ذلك حسن جميل لا عيب فيه، ولا عيب على من دعا الله عز وجل به، وسَمَّاهُ خالفاً له.

وإن قلت: إن هذا الدعاء لا يليق بالله - عز وجل^(٢) عما قلتم - وأنه لا يجوز أن يدعَا به، لقبحه وشناعته وكذب من دعا به. لزمك أن حجتك علينا فيه كاذبة، باطلة فاضحة، وأنت مبطل في قولك: إن الكفر والمعاصي كلها خلق الله - عز وجل عما قلت، وافترت أنت ومن تبعك على مقاتلتك - وكفى بهذا كفراً وصدوداً عن القرآن أن يضاف إلى الله جل ثناؤه ما برئ منه، وعَنفَ فيه إبليس وجنوده، وأوجب لهم على آتيانه النار التي لا تطفأ، ﴿فَبَعْدًا لِلظَّالِمِينَ (٤١)﴾ [المؤمنون]!!

وأما قولك: إن الله عز وجل خلق الأسماء كلها، فالرد عليك أنا نقول لك: أخبرنا عن اسم محمد صلى الله عليه، هل هو المعنيّ في خلق الله عز وجل له؟!

ولما قالت قريش من تسميتها النبي صلى الله عليه أنه: مَذْمَمٌ، فالله عز وجل قد سمّاه: محمداً واحداً، وسمّته قريش: مَذْمَماً، فقال صلى الله عليه: «ألا ترون إلى نصر

(١) سقط من (أ): الله.

(٢) في (ب): جل ثناؤه.

الله عز وجل لي على قريش، حين سمّوني: مذمّماً ويلعنون مذمّماً، وأنا محمد».

فقول لك: إذا كان الله عز وجل هو الذي خلق اسم محمد، وخلق اسم مذمم، أي عيب على قريش في قولها لمحمد عليه السلام إنه مذمم؟!

وكلاهما خلق الله عز وجل (وحد المسلمون الله - زعمتم - قد سباه: محمداً فسموه بذلك، ووجد المشركون الله عز وجل)^(١) - زعمتم - قد سباه: مذمّماً فسموه بذلك، فإذا عليهم والله الخالق زعمتم^(٢) للاسمين، والفاعل للقولين، والمريد للمعنيين؟!

فإنكم تنقطعون هاهنا ولا تجدون حجة تدفعوننا بها. إلا أن تجسروا^(٣) فتزعموا أن الله^(٤) عز وجل هو الذي سمّى رسوله صلى الله عليه: مذمّماً، فبين جهلكم وكفركم لجميع من صلى القبلة، وكفى بهذا جهلاً وخروجاً من الحق!!

ثم قال عبد الله بن يزيد البغدادي: ثم سلهم عن الأصنام من خلقها وجعلها أصناماً؟

الجواب قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: نحن نقول: هل خلقها أصناماً وأوثاناً وأنصاباً فسمّاها بذلك الاسم؟! وكان ذلك الاسم تُدعى به، وتعرف به قبل أن يعبدها من نحتها، وجعلها صوراً من المشركين في الزمان الأول، وفي زمان قي دار بن إسحاق؟

فإن قلت: إن ذلك كان اسم الحجارة، تعرف في العرب قبل ابتداء من ابتدعها،

(١) سقط من (أ): ما بين القوسين.

(٢) سقط من (أ): زعمتم.

(٣) أي: تقدموا.

(٤) سقط من (أ): الله.

وعبادة مَنْ عبدها. أكذبك جميع الخلق وشهدوا على بطلان قولك، لأنها لم تزل تعرف بأن اسمها: حجارة وصخر وصفوان وصفاء، وغير ذلك من الأسماء.

فلما نحتها الكفار بأيديهم، وصوروها^(١) بحر كائهم، وسموها أصناماً وأوثاناً، وسموها بالأسماء المحدثّة، منها: اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، وأساف ونائلة، ويعوق ونسر، وغير ذلك، وهي التي ذكرها الله عز وجل في كتابه، وعنفهم على اتخاذها وتسميتها، مما دل على براءته من خلق ما خلقوا فيها، من التقدير والتصوير، والخرط والنحت، فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣)﴾ [النجم].

كانك - يا لك الويل - لم تسمع هذا القول في^(٢) كتاب الله قط ! ولم يخطر لك على بال ! حين زعمت أن الله عز وجل خلق (الأصنام، وذهب بجهلك إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ [الصافات]، وإنما عنى بهذه الآية: أنه خلق)^(٣) الحجارة وجميع الأشياء التي عملت منها الأصنام، إذ لا خالق للأصل غيره، وإنما وقع العيب والتعنيف عليهم في نحتها وتقديرها، وتصويرها وعبادتها، لا غير ذلك. وقوله: ﴿لَا تَذَرْنَّ أَهْمَكُمْ وَلَا تَذَرْنَ وِدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَصْلَحُوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤)﴾ [النجم] غرّفوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً (٢٥)﴾ [نوح].

(١) في (أ): وصورها.

(٢) سقط من (أ): في.

(٣) سقط من (أ): ما بين القوسين. سهواً.

أفلا تسمع أيها المغرور إلى قوله عز وجل: ﴿يَمَّا خَطْبَيْنَاهُمْ أُغْرِقُوا فَأَذْخَلُوا نَارًا﴾، ولم يقل: إنهم أدخلوا النار بخلقه لفعلمهم! فسبحان الله العظيم ما أجهلك وأجهل من أصغى إلى قولك!! ﴿وَسَيَعْلَمَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (٢٢٧) ﴿الشعراء﴾، ﴿وَيُلْكَمُ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ (٦١) ﴿طه﴾.

فاسمع إلى تفسير الفرية، فلو كان الله عز وجل هو الذي خلق الفرية - كما زعمت - للزمه أنه قد خاب، عز وتعالى عن ذلك!! لقلوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾، لأن من خلق الكذب فهو كاذب، وكذلك قال عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) ﴿[الشمس]﴾، (فلو كان الله عز وجل هو الذي دساها، للزمه أنه شتم نفسه وخيبها، حيث قال: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾^(١))، ولا تدسية أعظم من الكفر! وقد زعمت أنه أراد منهم الكفر وخلقهم، وخلقهم - زعمت - فعله وصنعه، فيلزمك في هذه الآية أنه دساهم بالكفر، وأنه يلزمه أنه قد خاب من دساها.

وبالله لو لم يكن لنا في القرآن غير هذه الآية، لكانت كافية قاطعة لكل مجبر على وجه الأرض، ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٨) ﴿هود﴾.

ثم قال عبد الله بن يزيد البغدادى: ثم سلهم عن وجه ما وضعوا مما أخطأوا فيه تأويل قدرة الله عز وجل، فإنهم عابوا علينا أن قلنا: إن كل شيء أخبرنا الله به أنه لا يكون أو يكون، فإنه لا يجوز على الله عز وجل أن يقول: إنه إن شاء كان، على وجه [أنه] إن شاء كان ما يجهل وما لا يعلمه^(٢)، لأننا متى قلنا ذلك، قلنا: لا ندرى لعل

(١) سقط من (ل) ما بين القوسين.

(٢) العبارة غير واضحة المعنى.

الله إن شاء قال الباطل، تعالى الله ربنا وتبارك، لقد حملنا أهل البدع على أن تكلمنا بكل قبيح ما يُدخِل عليهم هم في كلامهم، مع أن الله تبارك وتعالى قد وصفه بعض الكفار، فقالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤]، فوصف كذبهم.

ولولا ذلك ما وصفنا كذبهم، لأننا متى قلنا: إن القيامة إن شاء الله لم يُقمها، قلنا: إن الله كذب. وإن قلنا: إن الله إن شاء لم يفعل [ما وعد]، قلنا: إن شاء الله أخلف الميعاد، ولا يجوز على الله هذا، إلا أن يشاء أن يكون غير ما علم أنه يكون، ولا يشاء أن يخلف وعده، ولا يشاء أن يتخذ الولد، ولا يشاء أن يتخذ معه إلهاً، تبارك وتعالى!! لا يجوز على الله هذا

الكلام في قول العدل، إنها يشاء أن يكون ما علم أنه يكون، ولا يشاء أن ينقص ملكه، ولا يشاء أن يغير صفته، تعالى عن ذلك علواً كبيراً!!

الجواب قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: زعمت أننا وضعنا خطأً أخطأنا فيه تأويل قدرة الله عز وجل، بأننا عبنا عليكم - زعمت - أن كل شيء أخبر الله عز وجل منه أنه لا يكون أو يكون، فإنه لا يجوز على الله عز وجل أن نقول: إنه إن شاء كان، على وجه أنه إن شاء كان ما يبطل وما^(١) [لا] يعلم.

وقد فهمنا هذا القول من أوله إلى آخره، فأجزأنا ذلك عن إعادة قولك، لأنك إنما مدارك على الفرية على الله عز وجل، وعلى إبطال كتابه، وعلى إبطال أمره لخلق بالايان، والرجوع عن الخطأ، والتوبة عن الكفر والظلم، واجتهاد رسله في دعاء الكفار، إلى أن لا يعلم الله عز وجل منهم الكفر، وأن يدعوا الكفر والشرك، ويرجعوا إلى الايمان والهدى والطاعة.

وإنك^(١) إنما تريد في قولك: إن من علم الله منه الكفر، أنه ليس له حيلة في الرجوع إلى الايمان بوجه من الوجوه - زعمت - لأن ذلك العلم الذي علمه الله عز وجل عندك هو الحائل بينهم وبين الايمان - زعمت - وهذا كفر غلطت فيه، وخالفت القرآن، وجهلت كيف العلم به، ولم يبلغه عقلك. وذلك أن المجبرة أنزلوا العلم بمنزلة الشيء المانع الدافع لهم، الحائل بينهم وبين طاعة الله عز وجل، فالتوبة عن خطأهم، وتركهم قوله جل ثناؤه، بعدما علم أن القاسطين يكونون^(٢) لجهنم خطباً. فأخبر تبارك وتعالى أن علمه ليس هو المانع ولا الحائل دون الاستقامة على طريق الهدى، وأنهم إنما هلكوا وصاروا خطباً لجهنم باختيارهم واتباع أهوائهم، لا بعلمه عز وجل الذي قلت: إنه حال بينهم وبين الطاعة. فقال جل ثناؤه: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) وَالَّذِينَ اسْتَفْهَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦) لِيَقْنَطُوا فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨)﴾ [الجن].

وقد أعلمناك أن تأويل الفتنة في القرآن يخرج على عشرة وجوه في كتاب الله، والله عز وجل لا يفتن المستقيمين، ولا يضل المطيعين، لأنه عز وجل إنما أخبرنا أنه لو استقاموا على الطريقة، لأحسن إليهم وأسكنهم جنته، ولم نخبرنا أنهم إن استقاموا فتنهم، على جهة ما ذهبتم إليه من الإغواء.

ألا ترى أنهم لو استقاموا على الطريقة، لم يعلم منهم الكفر الذي صيرهم به خطباً لجهنم، وأنهم لو أرادوا الهدى لم يعلم الله عز وجل منهم الكفر.

والشاهد على ذلك لنا، أن الله عز وجل إنما افترض على الخلق الخروج من

(١) في (ب): إنك.

(٢) في (ب): كانوا.

الكفر، ولم يفترض عليهم الخروج من العلم، ولو كان الأمر على ما ذُهِبَتْ إليه عقولكم الصدنة، لم يميز للحكيم العادل، الذي لا يظلم أن يقول: ﴿فَمَا هُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٠) ﴿[الانشقاق]، ويقول: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ [المائدة: ٧٤]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (٦٤) [النساء].

وليس في القرآن من أوله إلى آخره آية واحدة، تشهد لكم على أن علم الله عز وجل هو الذي منع الناس عن الايمان، وحال بينهم وبين الطاعة، ولا حملهم على الكفر. فإن وجدتم آية واحدة تشهد لكم بذلك، فالقول قولكم، أو وجدتم آية توجب أن الله عز وجل قال لأحد من خلقه من الأولين والآخرين: ادخلوا النار بما علمت منكم، وادخلوا الجنة بما علمت منكم. لأنه جل وعز إنما يعاقب ويثيب على الأعمال، لا على علمه بالأعمال.

وقد أجبناك في العلم في أول كتابنا بما فيه الكفاية، إلا أنك تكرر مسائلك فلا نجد بداً من أن نكرر ما قد انقضى فيه الجواب، لأن لا نعتلق علينا بحجة، أو نقول: قد تركوا بعض مسائل.

وأما قولك: إن الله عز وجل لو شاء لفعل ما لا يجوز فعله، من أن لا تكون القيامة، وأن يتخذ الولد، وأن يُخْلَف الوعد، وأن يبذل القول، فهذا كله قولكم أنتم، وهو لازم لكم. وليس أهل العدل والتوحيد يقولون هذا القول، هم أعرف بتوحيد الله سبحانه وأقوم بعدله، من أن يقال لهم هذا القول، أو تُسَبَّح إليهم، بل هذه صفتكم أنتم، وصفة إخوانكم الأشقياء، المجرة الجهلاء.

وأما قولك: إن أهل البدع حملوك على أن تكلم بما لا تريد، ونحن نقول على

أهل البدع لعنة الله ولعنة اللاعنين، وكيف يكون أهل البدع من قام بالقرآن، وعرف تأويله وتزييله، وعكمه ومتشابهه، وأخذ الحق من معادنه، الذين قال الله عز وجل: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧]، وقوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَبِطُونَ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

ثم نقول: أأنت أعرف بعدل الله، أم موسى صلى الله عليه؟!

فإن قلت: إنك أعرف من موسى، كفرت.

وإن قلت: إن موسى صلى الله عليه أقوم بعدل الله منك، وأعرف بدينه، فما تقول في موسى صلى الله عليه لما قتل القبطي، ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص: ١٥]، ولم يقل: هذا من قضاء الله عز وجل وإرادته! يجب في هذا القول أنك أعلم من موسى صلى الله عليه، وأقوم بعدل الله عز وجل!!

وكذلك قال الله عز وجل لمحمد صلى الله عليه: ﴿قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ فَإِنَّمَا أَصِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ [سبا: ٥٠].

وقال يعقوب صلى الله عليه: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

أو لا ترى أن الله عز وجل قد نفى عن الأنبياء صلوات الله عليهم ما ألزمته، وأن ليس واحد منهم أضاف ذنبه إلى خالقه كما أضفت.

وأما قولك: إنا أخطأنا في صفة قدرة الله، وليس القول كما قلت، ولكننا نقول: إن الله عز وجل قد صدق في قوله، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣]، وما أشبه هذه الآيات في القرآن.

فإن كان ذلك إنها دلنا به على إثبات قدرته، وأنه لو شاء لحال بين الكفار وبين

الكفر، حتى لا يقدرّون على فعله، بالجبر منه لهم والقهر، ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً، أي: جبراً وقسراً، ولا يرسل إليهم الرسل، ولا ينزل عليهم الكتب، ولكن لم يكن ذلك من حكمته، وإنما أخبرنا بقدرته على ذلك وأنه لا يفعله، حتى يروا أنهم إنما فعلوا ما فعلوا من المعاصي، عن غير غلبة له عز وجل، ولا ضعف كان منه عنهم.

فأما قوله: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١٣) [السجدة]، فإن المجبرة يتعلقون بهذه الآية، ثم لا يقرّون ما بعدها، وهو قوله عز وجل: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٤) [السجدة]، فصّح أنه بما كسبوا، لا بفعل الله عز وجل، ولا بإرادته لمعصيتهم، مع أن هذه الآية إنما حكمها من أحكام الآخرة، وليست من أحكام الدنيا.

ألا ترى كيف قال عز وجل، وعنى أن المخاطبة في الآخرة لا في الدنيا: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١٣)، يعني: ممن عصى في الدنيا وخالف أمره، ثم قال بعد هذا: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾، فصّح أنه في الآخرة تكون هذه المخاطبة، والعدل في الآية قائم بنفسه، لا جبر فيه لا قسر، ولا فرج للمحد مجبر، والحمد لله رب العالمين.

وأما قولك: إنه يلزمنا أننا نقول: إن الله عز وجل لو شاء لم يكن ربّاً، وإنه لو شاء لظهر للناس، وما قد ذهبَ به في هذا الموضع من الخطأ والتخليط، فأهل العدل أعلم بالله عز وجل وتوحيده الذي أنت به جاهل، فلن يقولوا مثل ما قلت، وإنما يجب عليك لو استعملت الأدب والحكمة أن تخاطبنا بما قلنا. فأما ما ليس هو من قولنا، فلم يكرره وتكثر فيه الكلام!!؟

ولكن وجدت جهالاً لا يميزون عليك قولك، وقلدوك أمر دينهم فأهلكتهم،

فلا يبعد الله إلا من ظلم. وهيئات شُرُفَ الحق وعظم قدره وقدر أهله، من أن تحطفه أيدي الباطل، أو يقتاتوا^(١) على أهله بحجة، «فاربع على ظَلْعِكَ»^(٢)، و«قَسَّ شَبْرَكَ بِفَتْرِكَ»^(٣)، وأخرج مما قلنا، وافهم ما به أجبننا، وادع من استطعت من أهل الجبر، فإنكم لا تقومون بحجة واحدة من هذا الكتاب، ولا تقدرون لها على دفع ولا نقض، بحول الله وقوته.

وهذا قول مُدَلٍّ^(٤) واثق بفلجه، لأن دين الله عز وجل لا تقوم له الجبال، وما كان من الله عز وجل فلن يُغلب أبداً، وغيره دين الشيطان، ودين الشيطان إلى البوار والدمار والدبار والخسران، فلا يقوم الباطل للحق أبداً.

وسألت عن أم موسى صلى الله عليه وعن فرعون لعنه الله، وقد أعدت هذه المسألة، وقد مضى جوابنا لك في هذا الكتاب بما فيه الكفاية.

وذكرت الاستطاعة في قتل موسى صلى الله عليه، وقد أجبنناك أيضاً في باب الاستطاعة بما فيه الكفاية، وأوضح البرهان، وما لا يقدر له أحد من المجبرة ولا غيرهم على نقض أبداً.

ونحن نقول لك في الاستطاعة أيضاً: أخبرنا هل افترض الله عز وجل على الناس عندما بعث إليهم محمداً صلوات الله عليه وعلى آله أن يقولوا: لا إله إلا الله، وأن يقرُّوا أن محمداً رسول الله؟

(١) الإفتئات: الاختلاف.

(٢) مثَّل مشهور، معناه: تكلف ما تطيق. يضرب لمن يترعَد فيقال له: لا تجاوز حدك في وعيدك، وأبصر تفصلاً وعجزك عنه. مجمع الأمثال للميداني ١/ ٤١٠.

(٣) هذا مثلٌ عربي بمعنى المثل السابق، والفترة ما بين طرف الإبهام وطرف المشيرة من الأصابع، والشبر معروف.

(٤) المدل مأخوذ من الدل، وهو السكينة والوقار.

فإذا قلت: نعم.

قلنا لك: فأخبرنا هل افترض الله عز وجل عليهم من ذلك ما يقدرُونَ عليه
ويمكنهم، أم ما لا يقدرُونَ عليه ولا يمكنهم؟

فإن قلت: إن الله عز وجل افترض عليهم أمراً لا يقدرُونَ عليه ولا يمكنهم،
لزمك أنه افترض عليهم ما لم يجعل لهم السبيل إليه ولا المقدرة، وأنه قد أبطل في
قوله في كتابه، ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ
(١٠)﴾ [البلد]، أي: عرفناه طريق الخير والشر، والحق والباطل، ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ
(١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُ رَقَبَتِي (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤)
يَتَبَسَّاءَ ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥)﴾ [البلد]. فأني دلالة إلى السبيل أعظم من هذه الدلالة؟!
ويكفيك أيضاً قوله عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]،
و﴿إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧].

وإن قلت: إن الله عز وجل افترض عليهم أمراً يقدرُونَ على اتباعه وفعله
ويمكنهم، بطلت دعواك في الاستطاعة أنها مع الفعل، ولزمك أن الاستطاعة قبل
الفعل، ولولا ذلك لما افترض الله عليهم أمراً لا يقدرُونَ عليه، من قبل أن تقع
استطاعتهم فيه مع فعلهم، فيلزم أنه يكلف الفروض قبل وجود الاستطاعة، وهذا
ما لا يجوز في عدل ولا حق، ولا حكمة ولا عقل، وهذه وحدها تكفي من عقل.



[شبهة في قوله: ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾]

ثم قال عبد الله بن يزيد البغدادى: ثم سلهم عن قول الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (٩٧) [آل عمران]، فقل: أخبرونا ما الحج عندكم؟ أليس هو الطواف بالبيت، والموقف في عرفات والمشعر، وقضاء تلك المناسك بمكة وبمنى؟
فإن قالوا: بلى.

فقل: أخبروني عن له مائة ألف دينار وألف جبل، وأشبه ذلك، وهو صحيح يستطيع الحج، وهو بالبصرة أو بخراسان أو ببلد من البلدان ناحية^(١) عن تلك المواقف والمشاهد.
فإن قالوا: نعم.

فقل: أفليس يستطيع الطواف بالبيت، ووقوفاً في تلك المواقف، وهو مقيم في بلده لا يأتي مكة ولا يقربها، أفليس قد يستطيع الطواف بالبيت وهو مقيم ببلده ولم يذهب، فيكون مقيماً بخراسان؟!

الجواب قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: زعمت أنه لا يكون حج الرجل، ولا يستطيع أن يطوف بالبيت، ولا يأتي جميع المناسك وهو في بلده، وكذلك لا يجوز في غيره من أهل خراسان ولا العراق ولا مصر، ولا غيرها من البلدان، تريد بذلك - زعمت - أن الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل، وذلك خطأ منك وجهل بالاستطاعة كيف هي؟

وقلت: هل يستطيع من بالبصرة ومن بالكوفة وغيرهم أن يحجوا وهم في بلدانهم؟

ونحن نقول: إن الله جل ثناؤه لم يفرض الحج على من بالبصرة، ولا على من بالكوفة، ولا غيرهم، أن يحجوا وهم في بلدانهم.

ولكننا نسألك: هل يستطيع من بالبصرة ومن بالكوفة ومن بخراسان أن يقوم الرجل منهم فيرمي بالحجارة إلى رأس نخله^(١)، وإلى رأس جداره، ويطوف بيته أشواطاً، ويحلق رأسه، ويشرب في بثره التي في داره، ويفعل ما أراد، من مجيء أو ذهاب، أو تكبير أو تهليل، أو قول أو عمل، أو ذبيحة؟

فإن قلت: لا يقدر على ذلك أحد من أهل هذه البلدان التي سميت، أكذبك جميع الناس، وخرجت من حد من يُكَلِّم، وبأن جهلك.

وإن قلت: نعم، هم يقدرون على ما ذكرتم هم وغيرهم من أهل البلدان.

قلنا لك: فقلك هي الاستطاعة التي هي مركبة في الآدمي، بها يعمل جميع المناسك إذا صار إلى مكة.

فإن قلت: إن الاستطاعة منه لا تكون إلا مع فعله، لزمك لنا أنك قد أقررت أن الاستطاعة قد كانت موجودة فيه في بلده، وإنما عليه المسير والمسافرة، حتى يؤدي المناسك وفروض الحج، بالاستطاعة التي أقررت أنها موجودة فيه قبل أن يخرج من بلده، وقد قطعناك في الاستطاعة بما قد شرحناه في صدر كتابنا هذا، بما كان فيه الكفاية، غير أننا لا نجد بدءاً كلما أعدت مسألة أن نعيد الجواب فيها.

وأما قولك لنا: هل يستطيع العباد الكفر والايان جميعاً؟

فجوابنا: أن هذا قول محال، لأنه لا يجوز أن يكون القائم قاعداً، ولا القاعد قائماً في حالة واحدة، ولكننا نقول: إن العباد يستطيعون أن لا يؤمنوا، ويستطيعون أن لا يكفروا، وإن دخلوا في الايمان وقبلوه ودانوا به، استطاعوا بعد ذلك الخروج منه إن أرادوا، لأنك تعلم كيف حكم الاسلام في المرتد، وهذا أكبر دليل على أن المؤمن يقدر أن يرتد، وكذلك إذا دخل العباد في الشرك واعتقدوه، استطاعوا بعد ذلك^(١) تركه والخروج منه إلى الايمان.

وهذا مُشَاهَد معروف لا ينكره أحد، أن المؤمن إذا شاء كفر، وأن الكافر إذا شاء آمن، وليس [كذلك] قولك: إن من عَلِمَ الله عز وجل منه الكفر لا يستطيع الايمان، هذا القول الذي قلت لا يجوز، لأنه نفس الجبر الذي هو دينك ودين إخوانك، وليس هو دين الله عز وجل.

والشاهد على بطلان دعواك، قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤)﴾ [النساء]، وقوله في المنافقين: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧)﴾ [التوبة].

أَفْتَرَاكٌ ويحك ما تدبرت هذه الآيات قط، ولا أفكرت فيها، ولا استمعت [إلى برهان عدل الله جل ثناؤه، وبراهته من ذنوب الظالمين !! وكأنك ما رأيت ولا سمعت بكافر أسلم، ولا بمؤمن ارتد عن الاسلام، ولم تسمع بحكم المرتد، ولا بذكره في القرآن، ولا قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُم عَن دِينِهِ

(١) في (أ): استطاعه تركه.

فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴿[المائدة: ٥٤]﴾. فذكر عز وجل أنهم يرتدون باختيارهم، ويؤمنون باختيارهم، لا جبراً ولا قسراً.

ومن الحجة في قولكم: إن الله عز وجل خلق بعض الناس كافراً، وبعضهم مؤمناً، وهذا أعظم الفرية على الله جل ثناؤه، وأوضحه ردّاً لكتابه!!

فنقول لك عند ذلك: أخبرنا عن قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧]، ما يريد بهذا القول، وما هذه الزيادة التي ذكر أنها مزيودة في الكفر، هل تلك الزيادة منه زادها في الكفر، أم هي من الكفار زادوها هم في الكفر؟ فإن قلت: إن الله عز وجل زادها في الكفر.

قلنا لك: فأخبرنا عن خلقه لهذه الزيادة التي زادها في الكفر - زعمت - بعدما خلق الله الكفر - عز الله عما قلت - كيف هي وما صورتها؟ وأين المقدار الذي بان لك منها في الزيادة في نفس الكفر؟ وهل هي موجودة أم لا؟

فإن قلت: إنها موجودة محدودة من قبل زيادتها في الكفر، لزمك أن تُعرفنا بها حتى نعرفها، كما عرفتها بعينها وحدودها.

وإن قلت: إنها ما زاد الكفار في الشهور وما أحدثوا، لزمك أنها فعل الكفار لا فعل الله عز وجل، إذ لم تأت على تلك الزيادة ببينة، لا حجة تعرف، ولا جسم يحس، وأنهم هم زادوها في كفرهم، أي: أحدثوا إلى الكفر كفراً، وذلك هو الحق.

وإن قلت: إنها فعل الله عز وجل وخلقها، لزمك أن ليس لله جل ثناؤه بين السماوات والأرض إلا فعل يدرك ويحس، ويعرف بعينه وحدوده، ويبين بنفسه عن فعل بني آدم.

وإن قلت: إنه لا يدرك ولا يحس ولا يعرف، لزمك أنه بصفة الواحد الذي

﴿كَيْسٌ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ولا تقع عليه الحواس.

لأن الله عز وجل أخبر نبيه صلى الله عليه عما أحدثت بنو كنانة بن مدركة في الشهور، حتى كانوا يرون الحج عاماً في ذي الحجة، وعاماً في المحرم، فقال الله عز وجل يخبر نبيه صلى الله عليه أن ذلك فعلهم لا فعله، فقال: ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُؤْاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧].

فلو كان هذا فعله ما عَنَّفهم عليه، ولا عَجَب نبيه صلى الله عليه عنهم، ولا أضاف ذلك الفعل إليهم !! فيلزمه أنه قد دخل فيها عاب، لقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (١١٢) [النساء].

فصح وثبت أن النسب الزائد في الكفر هو فعلهم الذي زادوه من الكفر في الكفر، لأن الكافر يمكنه الزيادة في ظلمه وفجوره وكفره، كما يمكن المؤمن الزيادة في إيمانه، لما يكسب من الخيرات والمساورة في طلب الدرجات.

وذلك كله فعل العباد، لا فعل الله عز وجل. وقد وجدنا العرب قد أقرت بذلك الذي زادت من النسب، وتشرفت به، وفخرت بفعله على غيرها من العرب في الجاهلية. وأنتم أيها المجبرة تعذروهم، وتُلزمون الله عز وجل فعلهم، وهم يفتخرون بذلك، ويضيفون فعلهم إلى أنفسهم لا إلى خالقهم. قال شاعرهم:

أليس النسبُ شُئْتنا عليكم بدعناهُ ونحنُ المبدعون
جعلنا الحجَّ في وقتين لَّا ملَكنا الناس طُرا خاضعيناً^(١)

أفلا تراه كيف أضاف فعل النسب إليهم، أنهم هم أبدعوه وستوه للناس، وأن الله عز وجل لم يسته ولم يُبدعه، وأنه جل ثناؤه بريء منه.

(١) لم أقف عليها.

وقال الكميت بن زيد الأسدي رحمه الله في الاسلام، يذكر النسيء ما كان من فعل عمير^(١) بن يحيى الكنانى:

ونحنُ النَّاسِثُونَ على معدٍّ شهوهمُ الحرامُ إلى الخليل^(٢)
أفلا تراه يذكر أنهم هم الذي فعلوا النسيء، وأن الله عز وجل لم يفعله، وأنه تبارك وتعالى قد أوضح في كتابه أنه بريء من ذلك النسيء، وأنهم هم الذين أبدعوه، ولذلك حرّمه وأبطله، وعاب على فاعله وذمّه، وأمر نبيه صلى الله عليه بالحق المستقيم، والحق الذي هو خلاف النسيء. وأنت تزعم أن الله عز وجل أراد كفر الكافر وخلق، وقضاه وقدره، عزّ الله وجل عما قلت، وعلا علوا كبيرا !!
ألا تسمع إليه كيف يقول عز وجل: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلِلُونَ عَمَّا وَاعَدُوا آبَاءَهُمْ لِيُوْطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلِلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧]، أفلا تسمعه عز وجل يخبر بمضادتهم له، ومخالفتهم إرادته، أهذا قول من فعل فعلهم، أو قول من قدره عليهم، سبحانه الله العظيم، ما أعظم ما قلتم، وأبين جهلكم وفريتكم عليه، عزّ الله عن ذلك، وعلا علوا كبيرا !!

ثم قال جل ثناؤه: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (١٤٧) [النساء]. أهذا قول من جعلهم كفاراً. ثم قال عز وجل: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النساء: ١٤٨]. فهل رأيت حكماً قط فعل فعلاً، وهو لا يريد ذلك الفعل؟! كأنك لم تسمعه عز وجل حيث يقول: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ (٣) [محمد] !!

(١) في (ب): عمر.

(٢) البيت للكميت، ورد في ديوانه هكذا: وكنا الناسِثين...

أفلا ترى أيها الهالك في دينه، المقرري على ربه، أن الفريقين جميعاً هما اللذان اتبعوا ما أرادوا وما اختاروا لأنفسهما، وحكى الله عز وجل ذلك عنها، ولم يقل في نفسه جل ثناؤه أنه جعلهما على تينك المنزلتين، ولا قدّر عليهما تينك الحاليتين، إلا الأمر والنهي، قدوس قدوس، رب الملائكة والروح !!

ونحن نسألك فنقول: أخبرنا عن رجل سرق من صندوق رجل مائة دينار، فلما صار بها في بعض الطريق، سقط منها خمسون ديناراً، فلما أصبح ظفر به وأخذه، فقال الرجل له: أين الدنانير؟ قال: ضاعت مني ولم يبق معي إلا هذه الخمسون الباقية، فجاء به الرجل إلى قاضيك، فاستعدى عليه وطالبه بالمائة الدينار كلها. فقال الرجل السارق: إن الله عز وجل هو الذي قضى عليّ بسرقة هذه الدنانير، وهو الذي أذهب نصفها، وهو الذي ترك معي نصفها، وليس عليّ لوم.

فنقول لك: ما قولك فيما يقول قاضيك في هذا الحكم، هل يلزم الرجل السارق المائة كلها، أم يقبل منه الخمسين، ويسقط عنه غرامة الخمسين الأخرى؟
فإن قلت: يقبل منه، لزمك أن قاضيك أعدل عندكم حكماً من الله عز وجل، الذي ألزم السارق المائة الدينار كلها، ولزمك أن قاضيك قد حكم بخلاف النبي صلى الله عليه وسلم، وبخلاف أحكام قضاة أهل الاسلام، مع ما يلزمك في قطع يده، وفريتك على ربك، وإلزامك له سرق السارق، وأنه خلق فعله وقضاه، وقدّره وأراد، ثم أمر بقطع يده.

وهكذا أخبرنا عز وجل عن عمل الشيطان بالانسان، حيث يقول: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦) [الحشر]. فوصفتهم الله عز وجل في الجور والظلم لعباده، بصفة الشيطان وما يفعل بحزبه الكافرين، سبحانه الله العظيم، العليّ عن قولكم !!

وإن قلت: إن القاضي لا يسمع دعواه، ولا ينظر في حجته، وإنه يُغرمه الخمسين التي ضاعت منه، ولم يقبل قوله إن الله عز وجل هو الذي قضى عليه سرقة المائة الدينار.

قلنا لك: فكيف يجوز أن يغرمه وحده المائة الدينار، وقد صح له أنه قال: إن معه أحداً آخر أعانه على أخذ الدنانير، وقدّره على سرقتها، ولم يُخلُ فعله من فعل الذي شايعه وقدّره عليه، وأراد منه ما صنع، وهو الفاعل لفعله، والمقدر عليه، والخالق لتلك السرقة، والمريد لها !!

فكيف يُلزمه قاضيكم المائة الدينار كلها؟! وقد صحّ له أن معه غيره، والواجب عليه في العدل أن يغرمه نصفها، ويغرم الذي صحّ عنده أنه غير بريء من فعل هذا السارق نصفها الآخر، لأن هذا هو العدل !!

فاختر أي ذلك شئت، فأبيها ما قلت به سقطت دعواك، وبطلت حجتك، والحمد لله رب العالمين.

وقد قال الله عز وجل ما يشهد للعدل وظهور حجتنا على حجتكم، قوله عز وجل: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَانَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ مَحْصَنًا لَتَبْتَغُوا عَرَصَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٣) [النور]. فلو كان الله عز وجل هو الذي أراد منهن الفجور وقضاه عليهن وخلقهن من فعلهن، ما نهاهن عن إكراههن على^(١) الفجور ! وكيف ينهاهن عن إكراههن على شيء قد أراده وقدّره وخلقهن؟! سبحانه الله العلي العظيم، ما أشنع هذا القول، وأفسد حجة من ادّعاها !! وأما قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فقد جاء في التأويل أن ذلك يخرج على وجهين:

(١) في (ل): عن. مصحفة.

أما أحدهما: فإنه عز وجل يقول: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غُفُورٌ رَحِيمٌ﴾،
يعني: لمن كفَّ عن إكراههم وتاب، فإنه يغفر له ما قد مضى من إكراههم إذا
صحت توبته.

والوجه الآخر: فقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غُفُورٌ رَحِيمٌ﴾، يعني: بهن،
إذ^(١) حملوهن من الإكراه على الفجور على ما لا يُرَدَّنَّ، والأول أحب الوجهين إلينا،
والحمد لله رب العالمين.



(١) في (ب): إذا.

[شبهة هل كلف الله العباد أن يعلموا أنهم مخلوقون]

ثم قال عبد الله بن يزيد البغدادى: ثم سلهم هل كلفكم الله تعالى أن تعلموا أنكم مخلوقون، وتعلموا أن الله خلقكم، وبهاكم أن تروا أنكم خالقون، أو تروا أن الله مخلوق؟

فإن قالوا: نعم.

فقل: أفليس تقدرون وتستطيعون أن تروا أنكم خلقتهم السماوات والأرضين وما فيهن، وتقدرون وتستطيعون أن تروا أن ربكم دابة من الدواب، وأنه مخلوق؟

فإن قالوا: نعم، فقد أعطوك أنهم يقدرون على ذلك، فما تريد بعد ذلك، وأي فرية أعظم من هذه الفرية، ومن أن يقول عبد: إني أقدر وأستطيع أن أرى أني خلقت كل شيء، حتى يكون ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠]، وأرى أن خالقي عز وجل دابة أو شجرة، وأني خلقتهم وصنعتهم؟!

الجواب قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: جل الله وعز وتقدس عما قلت، وإليه من الفرية أضفت، فقد فهمنا ما ذكرت وقلت، ولسنا نقول ما قلت من القول الشنيع، فاسمع جواب مسألتك هذه، واصغ إليها، فإنك قد أهلكت تباعك، وأفسدت عليهم دينهم، فلا يبعد الله إلا من ظلم. ونحن نقول فيها: إن الخلق كلهم^(١) يقدرون ويستطيعون أن يقولوا في الله عز وجل من القول القبيح، والصفة الفاحشة الشنيعة ما ذكرت، لأن ذلك يمكنهم ويستطيعونه كما استطعتموه، من إلزامكم له شرك المشركين، وكفر الكافرين، وخلق زنا الزناة، وسرقة السارق، وغير ذلك من جميع المعاصي، فالخلق يقدرون على أن يقولوه قولاً بالستهم

(١) في (أ): كلها.

وأهوائهم، إن أحبوا ذلك لم يحل بينه وبينهم حائل، لما كان الأمر من الله سبحانه تحييراً لا جبراً. فافهم هذا القول.

فأما^(١) أن يقدروا ويستطيعوا أن يروا في أنفسهم بالحقيقة أنهم خلقوا السماوات والأرضين، وأنهم خلقوا الأشياء التي ذكرت، وأن صانعهم دابة أو شجرة - زعمت - فهذا ما لا يجوز، ولا تقبله العقول، لأن عقولهم المركبة فيهم لا تدلهم أبداً على أن يدعوا فعل ما لم يفعلوا، إذا تركوا المكابرة، لأنه صحيح في عقولهم وعند أنفسهم بالحقيقة أنهم لم يفعلوا إلا ما فعلوا، فافهم هذا الباب.

ولكنهم يقدرون أن يقولوا: إنهم خلقوا السماوات والأرضين قولاً بالاستتهم، وهم يعلمون عند الصدق لعقولهم أنهم قد كذبوا وقالوا الباطل، للحقيقة المتقررة في أنفسهم أنهم يعجزون عن جميع ما ذكرت، فليس أحد يرى في نفسه إذا صدقها أنه فعل أمراً لم يفعله.

فأما القول باللسان فهو يمكنهم، كما أمكنك أن قلت على الله عز وجل الفرية والكذب، واحتججت على أهل العدل بخلاف ما في كتابه.

وأما خلق الإفك، فذلك جائز أن يفعله أهل الإفك ويخلقوه، وخلقهم له هو فعلهم، وذلك جائز في لغة العرب^(٢) أن يسموا صنعهم: خلقاً، وكل صانع لشيء فهو خالق له، ولذلك لم يجوز على الله عز وجل خلق غيره ولا صنع غيره. وقال الكميّ بن زيد:

أرادوا أن تُبدّل خالقاتٌ أديمهم يقسن ويفترينا^(٣)

(١) في (أ): وأما.

(٢) في (ب): اللغة العربية.

(٣) البيت للكمي، ورد في ديوانه هكذا:

أرادوا أن تزييل خالقات أديمهم يقسن ويمترينا

والخالقات عند العرب: النساء الدابغات للأدم، وهن الفاريات للأدم أيضاً.
وقال زهير بن أبي سلمى يمدح هرم بن سنان بن أبي حارثة الغطفاني:
وأراك تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري^(١)
فهذا الشاهد من لغة العرب، والذي قلت فأمر لا يجوز أن يرى العباد أنهم
خلقوا ما لم يخلقوا، لأن هذا أمر يستحيل، وإذا استحالت الأشياء في عقول الخلق -
كما وصفت - سقطت عنهم الحجة، لما دخل في العقول من الفساد.
فأما أن يقولوا قولاً بالمكابرة والظلم واتباع الهوى، وهم يعلمون عند أنفسهم
غيره، وذلك^(٢) الصحيح في عقولهم، فهذا ما لا يجوز غيره. فافهم ما قلنا، فإن الحق
لا يشوبه الباطل.

ومن الحجة لنا عليك في أن العباد يستطيعون ويقدرُونَ أن لا يعلم الله عز وجل
منهم الكفر ولا الشرك، ولا شيئاً من جميع الظلم، قوله لنبيه صلى الله عليه: ﴿قُلْ يَا
أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. فنقول لك: أخبرنا عن
هذه الآية، أهي على الحقيقة من قول الله عز وجل أنه أرسل رسوله إلى الناس جميعاً،
أم هي آية يجوز تأويلها عندكم أنها إلى بعض الناس دون بعض؟!

فإن قلت: نعم، إنه يجوز تأويلها^(٣) إلى بعض الناس دون بعض، أكذبك جميع
أهل القبلة من الفرق كلها، وأكذبك الله عز وجل بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً
لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، والكافة في لغة العرب هي: العامة، للكل لا خصوص فيها.
ثم نقول لك: أخبرنا هل أراد رسول الله صلى الله عليه من الخلق كلها أن

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى، ورد في ديوانه هكذا: فلأنت تفري...

(٢) في (ب): فذلك.

(٣) في (أ): يجوز أن يكون تأويلها أنها.

يحييوا، دعوته ويدخلوا في الاسلام، حتى لا يتخلف منهم أحد، أم لم يُرد ذلك؟ وهل أمره الله عز وجل بدعاء الجميع، أم لم يأمره إلا بدعاء البعض؟
فإن قلت: إن الله عز وجل أمره بدعاء البعض دون البعض، كان هذا هو الكفر والرد للقرآن صراحاً.

وإن قلت: إن الله جل ثناؤه قد أمره بدعاء الناس جميعاً إلى الاسلام، على ما نجده منصوصاً في القرآن، وأراد ذلك منهم رسول الله صلى الله عليه، لزمك أن الله عز وجل أراد إسلامهم كلهم، وبطل قولك، وسقطت حججتك أنه - زعمت - أراد منهم الكفر لعلهم أنهم لا يؤمنون.

ولو كان كما قلت حقاً، لم يقل لهم رسول الله صلى الله عليه عن الله جل ثناؤه: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ولم يُقم الرسول صلى الله عليه على كلهم الحجة، وقد علم أن منهم من لا يؤمن، وأن الله عز وجل قد علم أن منهم من لا يؤمن، فقد صح أن العلم ليس هو الذي منعهم، ولا حال بينهم وبين الطاعة. وفي أقل من هذا كفاية لقوم يعقلون، والحمد لله رب العالمين.

ومن الحجة عليكم أيها المجبرة في قولكم: إن الله تبارك وتعالى خلق الكفر والشرك، والزنا واللواط، وقتل الأنبياء وأئمة الهدى، وقَطَعَ الطرق، وجميع الفواحش والكذب، أن نقول لكم: أخبرونا كيف جوابكم للزنادقة واليهود والنصارى، إذا سألوكم فقالوا لكم: نحن نجد في كتابكم وتحتجون علينا أن ربكم قال لنبيكم: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]، يخبر أنه لا خالق معه يخلق ما خلق، وأنه هو الذي خلق، وأنه لا خالق معه يخترع الأشياء، ويقدر على الأشياء. ليس هذا هو الحق عندكم وفي كتابكم؟!!

فلا بد لكم من نعم.

فإذا قلتم ذلك، قالوا لكم: فأخبرونا الآن عن قوله يضيف إلى عباده:
﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، هل ^(١) نجد هذا في كتابكم؟
فإن قلتم: نعم.

قالوا لكم: أفليس هذا القول قد دلّ على أن تَمَّ خالْقاً آخر غيره يخلق الإفك،
هذا نجده في قرآنكم الذي تدّعون أنه من عند حكيم عادل، حيث يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ
مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. أهذا - زعمتم - في
قرآنكم؟

فلا بد لكم أن تجيبوهم بنعم.

فيقول لكم ^(٢) السائل عند ذلك: فأبي اختلاف يكون أعظم من هذا
الاختلاف؟! وأي مناقضة تكون أعظم من هذه المناقضة؟! إذ قال ربكم - زعمتم -
﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]، ثم قال يعنف قوماً: ﴿وَتَخْلُقُونَ
إِفْكًَا﴾ [العنكبوت: ١٧]. فلا بد لكم أنكم ^(٣) قد لزمتمكم المناقضة والاختلاف، لأن
هذا بيّن واضح في القرآن، لا حيلة لكم في دفعه ولا رده.

فإن قلتم لهم: كله خلق الله عز وجل وفعله، هو خلق الإفك وغيره مما خلق
الله، مثل السماوات والأرض، والشمس والقمر، وغير ذلك، لزمكم أن قوله: ﴿هَلْ
مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾ ينقض قوله: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًَا﴾، ويفلجكم خصاؤكم من
اليهود والنصارى والزندقة، وجميع من خالفكم، لا بد لكم من أن تخلصوا منهم
بحجة.

(١) سقط من (ب): هل.

(٢) في (ل): لك.

(٣) سقط من (ل): أنكم ز

فإن جسرتهم على أن يقولوا: إن الله خلق الإفك وغيره من جميع الظلم، لزمكم في ذلك خصلتان فاضحتان:

أما واحدة: فيجب عليكم أن القرآن يختلف ويتناقض.

والخصلة الأخرى: فيلزمكم أنكم جعلتم خالفكم في عداد الكذابين الذين يفعلون الإفك، ويلزمونه غيرهم ممن لم يفعله.

فلا يزال الكلام يكرر عليكم أبداً، ويدخل - عليكم في التوحيد، وحكمة الحكيم، وعدل العادل - الفساد والوهن والخلل الذي لا بعده من العيب أبداً، حتى ترجعوا عن قولكم. وإلا بان كفركم، فتقروا أن الذي^(١) خلقوا الإفك هم العباد الذين لا طاقة لهم بخلق شيء من جميع الأشياء، إلا الإفك والمعاصي، وما أتوه من العدوان الذي اختاروه، وأنهم لا يقدرُونَ على خلق شيء غير المعاصي التي هي^(٢) فعلهم، ولو ارادوا خلق خردلة ما قدرُوا عليها، لأن ذلك ليس في قوتهم، وخلق الإفك وجميع المعاصي في قوتهم، وهم في ذلك مُحَيَّرُونَ تخيراً.

فأما أن يقدرُوا على خلق شيء غير ذلك، فيخرجوه من العدم إلى الوجود، فلا سبيل لهم إليه. والدليل على ذلك، قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)﴾ [الحج]، وإن الله جل ثناؤه هو الخالق القوي القادر، الذي يخترع الأشياء فيحدثها، ويخرجها من العدم إلى الوجود، فذلك الاختراع والابتداء لما لم يكن شيئاً موجوداً، وهو الخلق الذي خلقه الله عز وجل، لا خالق له معه، ولا مشارك له فيه، ولا صانع له معه.

(١) في (أ): الذين.

(٢) في (ب): من.

وأما اكتساب بني آدم، فذلك خلقهم الذي هو حركاتهم المتولدة من قواهم، وقواهم هي الاستطاعة المركبة فيهم، التي لا يُسألون عنها ولا يُعاقبون عليها، ولا عيب عليهم فيها، لأن ذلك فعله جل ثناؤه، الذي قال فيه: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (٢٣). [الأنبياء]. وإنما عاب عليهم وعاقبهم، ولزمتهم له الحجة في الحركات التي اكتسبوا بها المعاصي، واختاروا ذلك الاكتساب باتباع الهوى، والأثرة لعاجل الدنيا.

وليس نجد نحن ولا أنتم هاهنا خلقاً مخلوقاً مُحاطاً به خَلَقَهُ العباد إلا حركاتهم، وليست تلك الحركات خلقاً لله جل ثناؤه ولا فعلاً، ولو كانت الحركات خلقه وفعله، لكان بالصحة الصحيحة الشاتم لنفسه، والمدعي لنفسه الأولاد والصواحب، والأنداد والشركاء والأضداد.

ولو كان كما قلتم، لكان القاتل لرسله !! والسافك لدمائهم !! والواضع السيوف في رؤوسهم !! والقاتل للأئمة الراشدين !! والشهداء والصالحين والمؤمنين !! ولكان الفاعل كل ظلم وكفر وجور في الأرض، مما كرهه ونهى عنه، وعابه وعنف فاعليه^(١)، وأعدّ عليه النيران، والعذاب الأليم الذي لا انقطاع له، وجعل فيه من الأحكام في الدنيا من القتل والصلب، وقطع الأيدي والأرجل، وسائر الحدود، ما عظم فيه النكال، وجل عن كل مقال.

﴿فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْحَالِقِينَ﴾ (١٤) [المؤمنون] !! العدل الرؤوف الرحيم، البريء مما قلتم، والمتعالي عما إليه أسندتم !!

أفيكون بهذا - ويحك يا عبد الله بن يزيد البغداذي - من النكال في الدنيا والآخرة، صفة من فعل شيئاً يقوم وأراده منهم وخلقهم من فعلهم؟! وسمى نفسه:

(١) في (ب): وعنف عليه.

عادلاً وحكيماً ورحيماً، وأنه لا يظلم ولا يمجور؟! فهذه صفة خالقك عندك، وهذا تقديره وحكمته، جل الله وتعالى وتقدس عما قلتم، وعلا^(١) علواً كبيراً!!
فإن قلتم: إنه قال عز وجل في كتابه: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦، الزمر: ٦٢]. فلذلك ألزمنه خلق كل شيء.

قلنا لك أيها الهالك، المغرور في دينه، الذي لم يلق العلماء، ولم يغترف من عين الماء: إن القرآن عربي مبين، عظيم القدر، واضح المنازل، زاهر السراج، وليس هو بعجمي ولا غبي، ولا خافي المعنى عن أهل العلم^(٢)، وأهل اللغة العربية والبيان، وورثة الحكمة من أهل بيت النبوة عليهم السلام.

ألا ترى أن العرب تقول: دخلنا السوق فوجدنا فيه كل^(٣) شيء، وهم لم يجدوا فيه رسول الله صلى الله عليه وهو من^(٤) أعظم الأشياء، وكذلك لم يجدوا فيه من مات من المؤمنين، ولا من آبائهم وإخوانهم، وكذلك لم يجدوا فيه قطع السحاب، ولا نجوم السماء، وهذه أشياء لم يجدوها، فجاز ذلك في اللغة.

وتقول العرب: دعانا فلان إلى منزله فأطعمنا من كل شيء، وهو لم يطعمهم لحم خنزير، ولا لحم الأسود، ولا لحم الانسان، ولا لحم الحيات، فجاز ذلك في اللغة أنه قد أطعمهم من كل شيء، وهذه أشياء لم يطعمهم إياها، وإنما تقول العرب من الخصوص في الكلام ما تجعله عامّاً، وإنما نزل القرآن بلغاتهم المعروفة. وشاهد ذلك، قول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

(١) سقط من (أ): وعلا.

(٢) في (أ): خافي عن العلماء.

(٣) في (ب): من كل.

(٤) سقط من (ب): من.

والدليل على صدق قولنا كتاب الله عز وجل، حيث قال في ملكة سبأ: ﴿وَأُوتِيتِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهَذَا عَرْشُ عَظِيمٍ﴾ (٢٣) [النمل].

فنقول لكم: هل أوتيت شمساً وقمرأ ونجومأ، وسبأأ وأرضأ، وجنة ونارأ؟ وهل أوتيت فرجأ كفرج الرجل، ولحية كلحية الرجل؟ وهل أوتيت ولدأ من غير فحل؟ فكل هذه الأشياء لم تؤت بها بإجماع الخلق كلهم، وقد قال الله عز وجل فيها: ﴿وَأُوتِيتِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهَذَا عَرْشُ عَظِيمٍ﴾، وهذه أشياء كثيرة لم تؤت بها، وكفى بهذا بيانأ وحجة قاطعة لدعواكم !!

وكذلك قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦، الزمر: ٦٢]، إنها عنى به مما خَلَقَ خاصة، لم يعن بذلك: الشرك ولا الكفر، ولا الإفك ولا سائر المعاصي التي خلقها العباد، وهو البريء من ذلك عز وجل.

والدليل لنا على ذلك أيضاً، قوله عز وجل: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران]، فأخبر أن له نفسأ عز وجل^(١)، ثم قال بعد هذا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الأنبياء: ٣٥، العنكبوت: ٥٧]. فأجل هاهنا أن كل نفس ذائقة الموت، ولم يستثن نفسأ بعينها. فلو وجب ما قلتم في خلق الأشياء، لوجب في النفس هاهنا مثل ما ادعيتم، جل الله وتعالى عما تقولون علوأ كبيرأ !!

وقوله عز وجل: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف]، ثم قال: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاجِدَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]. فدل ذلك^(٢) إنما خصص الريح أنها دمرت بعض الأشياء لا كلها، بعدما^(٣) قال: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾، يعني عز وجل: مما أرسلت عليه خاصة لا عامة.

(١) في (ب): وتعالى.

(٢) في (ب): بذلك.

(٣) في (ب): وبعدها.

ألا ترى أنها لم تدمر مساكنهم، وأنها لم تدمر السماء ولا الأرض ولا الجبال، ولا النبي هوداً صلوات الله عليه، ولا من كان معه من المؤمنين، وأن الآية خاصة دون عامة، وإن الآية توجب عليكم^(١) في قول الله عز وجل: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦، الزمر: ٦٢]، أنه يعني عز وجل: مما خلق هو وصنع وابتدع، لا ظلم الظالمين، ولا جور الجائرين، فجعل ذلك خصوصاً في خلقه المفرد به، لا عموماً لما خلق غيره، وعذب عليه فعله. فهذا أكبر دليل، وأوضح حجة، وأقطع لكل مفترٍ.

وقوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا لِحُلُوْلِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت]، فقالوا: ﴿أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، أراد الله عز وجل بهذا خاصاً دون عام، لأنه لم يُنطق الجبال ولا الأشجار ولا البهائم، ولا كثيراً مما خلق، وإنما هذا خصوص دون عموم، مثل قوله عز وجل: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦، الزمر: ٦٢]. فالكفر ليس هو غير ما ذكرنا لك، من حركات بني آدم واعتقاد قلوبهم، لا شيء^(٢) غير ذلك، ولا يجده أبداً إلا أنت وإخوانك المجبرة، لأنك سميت: كُفراً مخلوقاً، لا حجة لك عليه ولا برهان، ولا حجة من كتاب الله^(٣) جل ثناؤه، إذ لا يُدرك ببصر، ولا يُحَدِّث بلمس، ولا يُحَاط له بقطر، حتى يُعرَف ويميز خلق الله عز وجل، من خلق بني آدم.

فقد جاءك في هذا من البيان والحجة من كتاب الله عز وجل، ما في أقل قليل^(٤) منه أنكفي الكفاية. وجاءك في لغة العرب ما فيه البيان. قال الشاعر يمدح رجلاً:

(١) في (أ): عليهم.

(٢) في (أ): ولا شيء.

(٣) سقط من (ب): ولا حجة من كتاب الله.

(٤) سقط من (ب): قليل.

فلو كان للشكر حدٌ يُحد إذا ما تأملهُ الناظر
 لصوّرته لك حتى تراه فتعلّم أني امرؤٌ شاكر^(١)
 فقد علمت العرب أن ليس للشكر حدٌ يُدرَك، ولا صورة تنال، حتى يعرف
 الشكر بتلك الصورة. فلا حدّ له يوقف عليه غير حركات بني آدم، من شكر
 اللسان، والمكافأة بالفعل، الذي هو حركة أيضاً، ولا يعرف للشكر معنى آخر غير
 ذلك، إلا اعتقاد القلب. وكذلك الكفر مثله سواءً وجميع الأفعال، ولو كان الشكر
 الذي عنى الشاعر أنه يريد أن يشكر به ملكاً من ملوك الظالمين المعاندين لله عز
 وجل هو مخلوق، لكان الله عز وجل هو الشاكر للملوك المشركين، والكافرين
 المعاندين^(٢) له، بعد قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة]، والعدو لا
 يشكر عدوه في سبب من جميع الأسباب، ولا يشكره على لسان غيره، ولا يصحّ هذا
 في المعقول أبداً، وكفى بهذا حجة!!

إلا أن تقول أنت يا عبد الله بن يزيد البغدادي وإخوانك المجبرة: إن جميع ما
 سمينا من الشرك والكفر، والفواحش والقتل، والزنا والحنا واللواط، والكذب
 والإفك، وجميع الجور والظلم، هو شيء مخلوق موجود، إلا أنه لا تراه العيون، ولا
 تدركه الحواس، ولا تناله الجوارح، ولا تلمسه الأيدي، ولا تحيط به الأقطار.
 فنقول لك عند ذلك: فإنه يلزمك في هذا القول فسادان عظيمان، وكفران اثنان،
 في كليهما بطلان دعواك، وبيان كذبك، ونقض فريتك وفضيحتك:

(١) البيت لعلي بن الجهم، توفي سنة (٢٤٩هـ)، ورد في ديوانه هكذا:

لو كان للشكر شخص يبين إذا ما تأملهُ الناظر

لبنت شكري...

(٢) في (ب): والمعاندين.

أما أحدهما: فيلزمك أنك قد أثبت شيئاً لا تدركه الأبصار، ولا تلمسه الأيدي، ولا تقع عليه الخواطر ولا الأماكن، ولا يُدرى ما كنهه، فيبطل عليك قولك بالتوحيد، لأنك قد ادعيت موجوداً ثانياً، فيه صفة معبودك الذي وحدته، فزعمت أن هذا الآخر نظير له ونَدَّ، لا تدركه الخواص، ولا تناله الخواطر، ولا تحويه الأماكن، فتفسد عليك دعواك في التوحيد، وتكفر بهذا القول الذي وصفت به أفعال العباد.

ويلزمك أنك قد وحدت شيئاً آخر غير الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وكفى بهذا جهلاً وعمى، وفضيحة على من زعم أنه يقول بالتوحيد !!

وقد أعلمناك أنه لا قوام لقائل بتوحيد الله عز وجل، ولا ينفع ذلك دون القول بالعدل، لأنه من زعم أن الله عز وجل فعل شيئاً مما كره، أو خلق شيئاً مما عنه نهى، أو دخل فيها عاب، أو عاقب على فعل نفسه، أو غضب من إرادته، أو عتف أحداً على خلقه، كان هذا غاية التشبيه، وأنه لم يفرق بينه وبين خلقه.

ومن شبهه بالجائرين والجاهلين والعابثين^(١)، والجورة المتعنتين والمفسدين، لم^(٢) ينفعه ما ادعا من التوحيد، ولم يستحق اسم موحد، لما قد عرفه^(٣) به عز وجل من الجبر والتجوير، والتشبيه بالظالمين، والتسوية بينه وبين الشيطان الرجيم، في إغوائه^(٤) للخلق، وإرادة المعاصي منهم، وحملهم على ما يهلكهم ويورثهم الخلود في النار أبداً الأبد.

(١) في (ب): والعباثين.

(٢) في (ب): ولم. مصحفة.

(٣) عرفه: اتهمه.

(٤) في (ب): العداوة.

سبحان الله العظيم، رب العرش الكريم، العادل الرحيم عما قلمتم، وبه دنتم، وفيه ناظرتم، وبه إلينا كتبتم، وعنه سألتهم، وفيه نعيم^(١)!! فهذا جوابنا لكم في نقض جميع ما قصدتم به من الفرية على رب العالمين، فصرتم له خصماء، ولحزبه أعداء، وعن طاعته عُنْدَاء، ولمن خالفه أولياء. فالحمد لله الذي حجب الحق بشواهد العدل، وأوضح القرآن، وشافي البيان عن كيد الكائدين، ومعاندة المعاندين، وإلحاد الملحدين.

وأما ما ذكرت من يوسف النبي صلى الله عليه، فإن يوسف لم يعص الله عز وجل، ولم يَهْمْ له بمعصية، على ما ذهبتم إليه، ولو كان هَمٌّ له بمعصية، لم يقل فيه من جميل الثناء والمدح والشكر ما لا يزال يقرأ أبداً، حتى تزول الدنيا، وتزلف الآخرة، من قوله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (٢٤) [يوسف]، وليس يكون المخلص من هَمٍّ بفعل فاحشة.

والصرف من الله تبارك وتعالى له^(٢) أنه برّاه من الظلم، وحمّده على ما اختار، ولم يجبره على ترك المرأة جبراً، فلا يجب له حمد ولا أجر، وليس الله جل ثناؤه يعفل فعل العباد من الطاعة ولا من المعصية، ولا يجوز ذلك، ولا يكون أبداً، ولا كان فيما مضى، لما في ذلك من فساد الحكمة، وجوب القهر والختم.

وقد احتجنا عليك في ذلك بما جزء منه يكفي من عقل وأنصف، و﴿خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا تُؤْخِرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ

(١) في (أ): لعتهم.

(٢) سقط من (ب): له.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ
سُعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ
غَيْرٌ مَّجْدُودٍ (١٠٨) ﴿[هود]. فسعد من سعد باكتسابه، وشقي من شقي باكتسابه، لا
حتماً ولا جبراً.

وقد قالت الحكماء: استعمال النظر فيما لا يدرك علمه من دين الله عز وجل إلا
من جهة الخبر جهلاً ونأى عن الصواب^(١). وكذلك استعمال الخبر فيما لا يدرك
علمه من دين الله إلا من جهة النظر جهلاً وتناء^(٢) عن الصواب. فليتيق الله من نظر
في كتابنا هذا، وليعمل الفكر فيه، فإن الإقدام على النار الخطر العظيم، وما بعد الحق
إلا الضلال، ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩)﴾ [الجاثية].



(١) في (ب): جهل وبان وبابن عن الصواب. مصحفة.

(٢) في (ب): جهل وبان. مصحفة.

اشبهة فيمن ذكر الله أنهم لا يعقلون ولا يعلمون

ثم قال عبد الله بن يزيد البغدادى: ثم سلهم عن ذكر الله عز وجل في الكتاب أنهم لا يعلمون ولا يعقلون ولا يصرون، أحق ذلك من الله؟
فإن قالوا: نعم.

فقل: فكيف وأنتم تزعمون أنهم يعلمون ما يعلم الأنبياء، والله يصفهم بغير ذلك؟! وإنهم إن قالوا: إنهم لا يدركونه إلا بالعقل حتى يفكروا.

فقل: أفليس توسعون لهم حتى يفكروا، وإلى أي وقت يفكرون؟ وكم هو؟
أساعة أم ساعتين؟

فإنهم لن يقدروا^(١) لك هذا أيضاً، لأنهم إن وسعوا لهم ساعة وسعوا لهم ساعتين، وإن وسعوا لهم يوماً وسعوا لهم يومين، وليس لهذا وقت عندهم، وسيفرون من هذا الكلام.

واعلم أنك لن تسألهم عن شيء أشدّ عليهم من هذا وأشباهه، لأنهم يقولون: لا يكلف الله الناس إلا ما يستطيعون.

الجواب قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين: إن الله تبارك وتعالى أعطى خلقه الاستطاعة التي ركبها فيهم من الحواس الخمس، والعقول التي بها يعرفون الخير من الشر، والحق من الباطل، والصواب من الخطأ. ثم أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وافترض عليهم الطاعة، وندبهم إلى الجنة، وحذرهم النار، وأوجب لهم النجاة، تخيراً لا قسراً وجبراً.

(١) في (أ): يفيدوا. وفي (ب): يقيدوا. ولعل الصواب ما أثبت.

وكذلك حكمه في الأولين والآخرين، أنه أمر بخيراً، ونهى تحذيراً، فلم يُطع كرهاً، ولم يُعص مغلوباً، ولم يقسر القلوب على طاعته قسراً، ولم يحملها على طاعته جبراً. الواجب عليهم أن يُنصتوا للرسول وما جاءت به، فينظروا بعقولهم في قوهم، فيأخذوا الحسن، ويتركوا القبيح، وذلك قوله عز وجل: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨)﴾ [الزمر].

فلم يجز في حكمة الحكيم أن يحمّد أحداً من الخلق على فعله وخلقه هو، وإنما حمدهم وأثنى عليهم بفعلهم، ووجبت لهم الهداية منه أن سَمَاهم: مهتدين، أي: حكم لهم بالهدى وسماهم به، لا أنه جبرهم عليه جبراً!!

فأي أجر لمجبور؟ وأي حمد لمكره؟ كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: ٤١]. كل ذلك جعل حكم وتسمية، لا جعل قهر وجبر. ولو كان كذلك لم يكن للأئمة الذين يهدون بأمره ثواب ولا حد لأنه أكرههم، ولا يكون على الأئمة الذين يدعون إلى النار عقاب ولا ذم، لأنه أكرههم أيضاً، وجعلهم دعاة إلى النار، وقد قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤)﴾ [يونس].

وأما قولك في التفكر، فلعمري لقد قال الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الروم: ٨]، والهداية من الله عز وجل لا تكون ولا تجب لكافر معرض عنه، يعبد غيره ويأكل رزقه، ويجعل له الصواحب والأولاد، والشركاء والأضداد، فيجبره على الطاعة، ويُميل قلبه إلى الهدى، من قبل أن يكون هو الراغب في الهدى، والمقبل إلى الطاعة، لأن مثل

ذلك مثل رجل وقع في بئر، فأشرف عليه الناس فقالوا له: أخرج. فقال لهم: لست أخرج حتى تدلوا إليّ حبلاً أخرج به، وإلا فلست أخرج أبداً.

وكذلك الكافر عندكم، وفي قولكم لا يخرج من الكفر أبداً حتى يجبره الله على الهدى، ويمدّه بالقسر والإكراه لقلبه، وهو في غاية الكفر، وغاية الضلالة، والإعراض عن خالقه، وهو غير مستوجب من الله عز وجل للرشد، ولا مستحق للهدى، ولا المعونة ولا الرحمة. وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٦)، [الأعراف]، ولم يقل: إنها قريب من المشركين.

وقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ولم يقل: فأسكتها للذين يشركون.

وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (٤١)، [النازعات].

فإن قلتم أيها المجبرة: إن الكافر لا يقدر أن يخرج من الكفر حتى يكون الله جل ثناؤه هو المخرج له من الكفر بالجبر والقسر، ويجعل في قلبه الهدى جبراً وإكراهاً، لزم في المعقول أنه لا حد لمكره مجبور، ولا لوم على عاص مدحور، ولم يكن لإرسال الرسل معنى، ولا لإنزال الكتب بأمر ونهي، وتحذير وتخويف، وترغيب وحض وزجر، فلا معنى لذلك !!

ولكان من حجج الأمم على رسلها أن تقولوا^(١) لها وهي حجة قاطعة تفلج بها الرسل: أيها الرسل إن أمرنا ليس في أيدينا منه شيء، قليل ولا كثير، ولا نقدر من أنفسنا على طاعة ولا معصية، ولا نملك لأنفسنا هدى ولا غياً، فاذهبوا إلى ربكم فاسألوه أن ينجي سبيلنا، ويجعل لنا طريقاً، حتى نسلم ونتبعكم. فإن ليس لقوله:

(١) في (أ): تقولها.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠)﴾ [الانشقاق] معنى، وقد علم أنه قد حال بيننا وبين الايمان. وكذلك لا معنى لقوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ [المائدة: ٧٤]. وكذلك لا معنى لقوله: ﴿سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وكذلك لا معنى لقوله: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١)﴾ [آل عمران]. وكذلك لا معنى لقوله: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤)﴾ [طه]. وكذلك لا معنى لقوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس: ١٤]. فكان هذا القول من حجة الكفار على الرسل.

ثم قالوا لهم: فلا نجد لإرسالكم معنى، وقد حال ربنا بيننا وبين الطريق، ولم يوجد لنا فُسحة إلى السبيل، ولم يُرد منا أن نؤمن، لأننا إن آمنا - كما قال كبيرنا عبد الله^(١) بن يزيد البغدادي - كان ذلك الايمان إبطالاً لعلمه، وقد ذكر أنه قد أرسلك إلينا يا محمد كافة كلنا، بعدما أراد أن يكون بعضنا مؤمناً وبعضنا كافراً، على ما قال شيخنا عبد الله بن يزيد البغدادي وإخوانه المجبرة.

فكيف تدعوننا أيها الرسل إلى الايمان؟! وتسفكون دماءنا وتغنمون أموالنا وذرائعنا؟! وليس نقدر على الايمان بحيلة، لأن الله أراد منا أن نكون كفارا، ولو آمنا لبطل علمه!! ونحن بعد هذا^(٢) نقتلكم يا معشر الرسل والأئمة من أولادكم، وهو الذي قضى علينا قتلكم، وخلق فعلنا بكم، وقدره علينا وأراده منا. ثم أنزل في كتابه يعبرنا ويعتقنا ويعيب علينا قتلنا لرسله، ويقول في كتابه: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١، آل عمران: ٢١]، بعدما قال: ﴿يَقْصُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧)﴾ [الأنعام].

(١) في (ب): كما قال غيرنا، وكما قال عبد الله...

(٢) في (ب): ثم نحن من بعد.

فَلِمَ عَابَ علينا قضاء ما خلق، وكلُّ شيء في الأرض - زعمت المجبرة - بقضائه وقدره، وفعل مخلوق لفاعله لا حيلة له في تركه، ولا يقدر^(١) على الخروج منه. فكيف تطلبون منا يا معشر الرسل [ترك] ما لا نقدر على تركه، ولا نقدر على الخروج منه؟! الخروج منه؟!

ونحن معشر العرب يقول الشاعر منا الشعر، فلا نقبل منه بيتاً معيباً، ولا معنى فاسداً، ولا كلاماً مستحيلاً، حتى نستقصي فيه ونبعد عنه^(٢) التناقض، نُسْقِطُ^(٣) شاعره إذا أخطأ، ونقدم عليه غيره من الشعراء.

فكيف نقبل منكم يا معشر الرسل كتاباً سبائياً - زعمتم - نجده نحن^(٤) متناقضاً يُفْسِدُ بعضه بعضاً؟ فأنصفونا ففي النصفة تجب الحجة، ويغلب الحق، ويصح لنا صدقكم، وتلزمنا طاعتكم.

وقد ذكر ربكم أيها الرسل في كتابه أن قضاءه حق، وأنه يقضي الحق، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١، آل عمران: ٢١]، فما هذا التخليط يا معشر الرسل؟! أصحوا لنا رسالتكم القوية، وحكمة ربكم العادل الحكيم الذي زعمتم، فإذا صحَّ عدل ربكم وحكمته، عرفنا ما تدعوننا إليه، وصحَّ الخطاب بيننا وبينكم، وقام الحق، وسقطت الدعاوى الباطلة، من قولنا وقولكم يا معشر الرسل.

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: فما ترى قول عبد الله بن يزيد البغدادى وأصحابه المجبرة لمن احتج عليهم بهذا الاحتجاج؟

(١) في (أ): نقدر. مصحفة.

(٢) في (ب): منه.

(٣) في (ب): ويسقط. مصحفة.

(٤) سقط من (ب): نحن.

وما ردهم عليه؟

وما ظنُّهم تردُّ الرسل على الأمم؟

وما حجتهم عليهم فيما قالوا؟!

أتراه يقول: إن الأمم قد صدقت في دعواها على الرسل؟!

فإن قالوا: نعم، إن الأمم قد صدقت فيما ادعت على الرسل، واحتجت بالصواب، كفر بالله العظيم، وصحَّ كفره وخروجه من فئة الاسلام.

وإن قال: إن الأمم قد كذبت ولم تحتج على الرسل بحق، وإنها مبطلّة في دعواها على الرسل، رجّع عن قوله، وصحَّ كذبه، وبأن للخلق أنا قد غلبناه، وقطعنا حجته، وبانت فضيحتة، وأنه يلزم المجبرة أن الذي ادّعت باطل، لصحة القرآن، وأنه لا يتناقض، وبطل دعواهم، وأنه قد أكذب أهل مقالهم، وشهد عليهم بالكذب^(١).

وإنما جاء غلط عبد الله بن يزيد البغدادى وإخوانه المجبرة، وإعجابهم برأيهم، من قلة علمهم بمعاني القرآن، وجهلهم بالتأويل، وتعلُّقهم بالمشابه الذي يُصحّه التأويل، من علم أهل العلم بشواهد الحق، وتصريف^(٢) اللغة العربية، وأنه لم يعرف الحقائق في الكلام من المجازات، ولم يأخذ الحق من معدنه، وإنما دان بالتقليد، وكذلك دان من لحقه^(٣) بتقليدهم له، فلا يبعد الله إلا من ظلم.

ونحن نسأله الآن: ما مخرج قول الله عز وجل حيث يقول: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ

بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، وقوله: ﴿سَخَّرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩]، وقوله: ﴿يُجَادِعُونَ

(١) في (ب): بالكذب.

(٢) في (أ): وبصرف.

(٣) في (ب): وكذلك أن من تحته. مصحفة.

اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴿ [النساء: ١٤٢]. أهذا على حقيقة^(١)، أم على مجاز؟ كلامٌ عربي يحتمل التأويل؟!

فإن قال^(٢): إنه على حقيقة لا مجاز فيها، ولا يحتمل التأويل، لزمه أن ربه يستهزئ كما يستهزئ السفهاء، ويسخر كما يسخر السخفاء، ويخدع كما يخدع الضعفاء. وإن قال: إن هذا القول على مجاز الكلام.

قلنا له: هذا هو الحق، وله تأويل جهلته، وقد رجعت عن قولك، وكذلك جهلت قوله الذي احتججت علينا به، في قولك: لا يعلمون، ولا يعقلون، ولا يبصرون، و﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠]، له تأويل كما لهذا تأويل غلطت فيه، لأنهم لو كانوا لا يعلمون ولا يعقلون ولا يبصرون، لَسَقَطَتْ عنهم الحجة، كما سقطت عن الأطفال والمجانين، إلا أن كلامك على اتباع الهوى والإعجاب، لا تَدَبَّرُ الكتاب^(٣)، ولا تفكر في الصواب.

ثم نسألك أيضا عن اعتقادك في التوحيد؟ لأنك تقول - زعمت -: إنك موحد، ومحال، ما أنتم كذلك !!

فنقول لك: ما قولك في قول الله عز وجل: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقوله: ﴿الرَّحْنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٥)، وقوله: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ [غافر: ١٥]، وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، وقوله: ﴿وَلِيُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (٣٩)، وقوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢]، وقوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾

(١) في (ب): الحقيقة.

(٢) في (ب): قالوا.

(٣) في (ب): لكتاب.

(٢٣) ﴿[الفرقان]، وقوله: ﴿كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ سَيْتًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور]. هل هذا القول كله الذي تراه يلزم التشبيه على الحقيقة لا تأويل له، أم هو على مجاز الكلام، قولٌ عربيٌّ يجب تأويله، وإلا لزم التشبيه؟!

فإن قلت: إنه على الحقيقة لا تأويل له، لزمك التشبيه لخالفك، وخرجت مما ادّعت من التوحيد الذي قلت به، وفلجك المشبهة.

وإن زعمت أنه على مجاز الكلام، له تأويل في اللغة العربية، إذ لا يسعك غير ذلك، وإلا شبهت وكفرت.

قلنا لك: فكذلك يلزمك أن للآيات المتشابهات اللاتي تعلقت بهن تأويلاً في العدل على الحقيقة، والخروج من الجبر، وأنها مجاز كلام، لم تعقله ولا إخوانك المجبرة، ولم تهتدوا إلى القول فيه على الله جل ثناؤه بالعدل. فإن أنكرت التأويل حميةً وتعزراً، أنكرت عليك المشبهة تأويلك في التوحيد، ولزمك مثل ما تدّعي، ولا مخرج لك من هذا الباب بحيلة محتال، فكيفما قلت فجذك الأسفل، وحجتك الفاسدة، والحمد لله رب العالمين.

وأما قولك في تكليف العباد، فالتكليف لازم لكل بالغ وبالغ من ولد آدم، ممن صح عقله وبدنه، وقد قسم الله عز وجل عليهم بفضل النعم التي تفضل بها عليهم، فعلى قدر صحة العقول والجوارح والحواس يلزم التكليف، ومن زال عنه شيء من ذلك، كان التكليف على قدره، ومن زال عقله سقط التكليف كله.

والعجب كل العجب منك لم سميت: تكليفاً، وإنما أصل قولك أنهم جُبروا جبراً، وخُلقت أفعالهم، والمجبور والمخلوق فعليه ليس هو مثل المكلف، الذي إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل، وقد أعددت^(١) التفضيل لبعضهم على بعض، وأكثرت

(١) في (ل): أعدت.

إعادة الكلام^(١) الذي لا وجه له، وقد^(٢) تحريتنا فيه المعنى الواحد عن تكريرك للمعاني التي تقتضي وجهاً واحداً.

وإنما مثلك في كتابك الذي وضعته على أهل العدل، وزخرفت فيه الغرور لأصحابك، ومنيتهم الأباطيل، وأعلمتهم أن أهل العدل لا يقدرّون لكم^(٣) على دفع، ولا كسر حجة. وفي كل مسألة تقول: إن أهل العدل يفرون عن كلامكم^(٤) هذا، وأنتم تقطعونهم في^(٥) هذا الموضع، وهذا من أشد ما يسألون^(٦) عنه، فكان مثلك في ذلك، مثل زق منفوخ لا شيء فيه إلا الرياح، ثم عمد إليه رجل بآبرة فخرقه بها فانفخ جميع ما فيه، والحق فأجل وأشرف من أن يخفى على العقلاء وأهل التمييز والنظر، وقد رددنا عليك من الحق ما فيه الشفاء لكل مسلم.

ثم نقول لك: ما تقول في قول الله عز وجل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْكُلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ هُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَا كُيِّنَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِابْنِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥)﴾ [الكهف]. فنقول لك يا عبد الله بن يزيد البغدادى: هل هذه الكلمة خلق الله عز وجل وصنعه وإرادته، أم لا؟

فإن قلت: إنها خلق الله عز وجل وصنع وإرادة، لزمك أنه غضب من خلقه

(١) في (أ): الكلام فيه.

(٢) سقط من (ب): وقد.

(٣) في (ب): لهم.

(٤) في (ب): كلامك.

(٥) في (أ): من.

(٦) في (أ): يسألونهم.

وصنعه وإرادته، وهذا خروج من الحكمة، ويجب أنه عَذَّبَ على ذلك، بعدما قال: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى (٤١)﴾ [النجم].

ثم نقول لك: وأخبرنا لم قال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾، مستعظماً لها ومستقبحاً ومستشنعاً، وهو الذي خلقها وأرادها وصنعها ! أهكذا يكون الحكيم الذي لا يظلم؟!

وإن قلت: لا أقول ذلك، رجعت عن قولك وصرت إلى قولنا.

ثم نقول لك: ما الفرق بين قوله في عيسى عليه السلام: إنه ﴿كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١]، وذكر في كتابه أنه كلمة له، خلقه وصنعه وأرادها، والدليل على أن عيسى كلمته، قوله عز وجل: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾ [آل عمران: ٤٥]، وقال أيضاً: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١].

فنقول لك: ما الفرق بين هذه الكلمة المعني بها عيسى عليه السلام، وبين الكلمة الكبيرة عند الله عز وجل التي خرجت من أفواه الكفار، الذين ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [يونس: ٦٨]. فإن ادّعت فرقاً بينهما غير أن الله - في زعمك - هو الذي خلقهما جميعاً وصنعهما، وقدرهما وأرادهما، لم تقدر على ذلك بحيلة محتمل، ولا بوجه من الوجوه، لما زعمت أن الله عز وجل هو الذي خلق الكلمتين، وأراد المعنيين.

فليزملك عند انقطاعك عن الفرق بين الكلمتين، أن القوم الكفار الذين قالوا ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ إنما غضب الله عليهم وعاب فعلهم، وحكى لنييه محمد صلى الله عليه وسلم عظيم كفرهم، وأوجب عليهم فيه العذاب الأليم المقيم، وأنه لم يكن في خلقه لعيسى وجعله إياه كلمة، غضب منه على أحد، ولا عيب ولا استعظام، ولا

عذاب مقيم، فكلاهما - زعمت - كلمة لا فرق بينهما، خلقهما الله عز وجل وصنعهما - على زعمك - فعذب عباده على واحدة وغضب منها، ولم يغضب من الأخرى ولم يعذب عليها، وهما سواء في الخلقة والصنعة والإرادة.

فأين العدل والحكمة في هذا الباب؟! بيّنه لنا وميّزه إن كنت من الصادقين؟! أو أرنا الفرق بينهما إن كنت من المهتدين! ولا تجد فرقاً بين ذلك أبداً، وهذه قاطعة لحجتك، ومدحضة لقولك، إلا أن ترجع فتزعم أن الكلمة التي غضب الله منها وعذب عليها، أنها إرادة الكفار، وقولهم باختيارهم، وصنعهم لا صنع الله جل ثناؤه، وأن عيسى كلمته وخلقه، لا تباعة على أحد في ذلك، وهذا هو الحق، وهو دين الله الذي لا مخرج لمسلم منه، ومن قال بغيره كفر ووجب عليه العذاب، والحمد لله رب العالمين.

ثم نقول لك أيضاً: أخبرنا عن قول الله عز وجل للكفار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ (٤٢) [المدرثر]، فنقول لك: رأيت إن ردّوا عليه فقالوا: ذلك بما خلقت من أفعالنا، وأردته من كفرنا، وقدّرتَه وقضيتَه علينا، هل يكذبون في هذا الجواب، أم يصدقون؟

فإن قلت: إنهم يكذبون، رجعت عن قولك وصرت إلى قولنا بالعدل. وإن قلت: إنهم قد صدقوا في هذه الدعوى، في قولهم: إن الله عز وجل خلق أفعالهم وقدرها عليهم، وقضاها وأرادها.

قلنا لك: فقد أكذبك الله جل ثناؤه، ووجدنا القرآن يشهد بخلاف ما قلت، من إقرارهم على أنفسهم، وإبرائهم لخالقهم، وإضافتهم الظلم والمعاصي إليهم، لا إليه عز وجل، حيث ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمُسْكِينِ (٤٤) وَكُنَّا نَحْوُكُمْ مَعَ الْخَافِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بَيُّومَ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ

(٤٧) ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المذثر]، ثم قال: ﴿فَمَا هُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المذثر]، فعجّب نبيه صلى الله عليه كما تسمع، لعلمه أنه لا حائل بينهم وبين التذكرة. فما تقول لو ردّوا عليه في هذا الموضع، حين قال لهم: ﴿فَمَا هُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾، فقالوا: أنت بنا، لولاك لعرفنا رشدنا، هل يصدقون في الحجة، أم يكذبون؟

فإن قلت: إنهم صدقوا، لزمك أن حجتهم أقوى من حجة الله عز وجل.

وإن قلت: كذبوا، رجعت عن قولك.

ثم نقول لك: أخبرنا ما تقول في رجل من المسلمين خرج غازياً للروم في بلدها فحاربهم وقتاً، ثم إنه وقع في أيديهم وأخذوه أسيراً، فوضعوه في الحبس والحديد، فلما دخل شهر رمضان عرضوا عليه الدخول في النصرانية، والقول بأن المسيح ابن الله، فكره ذلك وامتنع عليهم منه، فلما امتنع ربطوه بالحبال، وغلّوا يده إلى عنقه، ثم أخذوا له المغرّ الذي يُغرّ به الصبيان، وهو المسعط في لغة العرب، وأوجروه به الخمر كرهاً، وهو مضجع لا حيلة له في نفسه، ولا دافع عنه، ثم جعلوا يسقونه إياه، وكذلك ودك الخنزير، فلم يزل على ذلك سنة على تلك الحال، حتى إذا لم يبق من السنة إلا يوم واحد أطلقوه.

فنقول لك ولمن قال بقولك: أليس قد علم الله عز وجل أنه قد فعلوا به ذلك الفعل، وأكروهه على شرب الخمر، وودك الخنزير حين أوجروه إياها كرهاً، وهو لا حيلة له في نفسه؟!

فإن قلت: نعم، قد علم الله ذلك منه ومنهم.

قلنا لك: فهل على هذا الرجل الله عز وجل في ذلك الذي أُكِّرَ عليه حجة أو تباعة؟ أو هل يجب عليه عذاب أم لا؟

فإن قلت: نعم، عليه حجة وذنوب، وعذاب وتباعة، كذبك جميع المسلمين،
وخرجت من العدل والمعقول.

وإن قلت: لا حجة عليه ولا ذنب.

قلنا لك: صدقت، لأن الحجة عليه فيما علم أنه يقدر عليه.

ثم نقول لك أيضاً: أرايت هذا الرجل بعينه إن شرب الخمر ساعة واحدة، أو
جرعة واحدة، بطيب من نفسه، واتباع هواه، أليس قد علم الله عز وجل ذلك من
فعله؟!

فإن قلت: لم يعلمه، كفرت.

وإن قلت: إنه قد علمه.

قلنا لك: فهل يعاقبه على شرب تلك الجرعة وحدها، أم لا يعاقبه؟

فإن قلت: إنه لا يعاقبه، أبطلت وعيد الله عز وجل، وخالفت المسلمين،
وخرجت من الكتاب.

وإن قلت: إنه يعاقبه بشربه للخمر، واتباع شهوته في تلك الجرعة.

قلنا لك: فكيف لم يعاقبه في شرب سنة كلها على ما شرب من الخمر، وصار في
بطنه من ودك الخنزير، ويعاقبه على شرب جرعة في ساعة واحدة من نهاره عمداً؟!

فإن قلت: من قبّل أن الروم أكرهوه على ذلك، فلم تلزمه عقوبة، وهو اختار
الشرب لنفسه في هذه الساعة الواحدة، فلزمته العقوبة.

قلنا لك: فقد لزمك الآن أن ليس علم^(١) الله عز وجل يثيب العباد، ولا

(١) في (أ): لعلم.

يعاقبهم^(١)، وإنما يثيب ويعاقب على ما فعله العباد بأنفسهم، وذلك قوله عز وجل: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]، وبطل قولك أنت وأصحابك، في اعتلاكم علينا بعلم الله جل ثناؤه، أن من قَبِلَ علمه كان الفساد عليهم في أديانهم، وأن بالعلم ضلّوا - زعمتم - وهلكوا، وكذب العادلون بالله، وضلوا ضلالاً بعيداً.

والواجب على من سمع كتابنا هذا، أن ينعم النظر فيه، وليذكر وقوفه بين يدي الله عز وجل، فأبي القولين كانت الحجة فيه أغلب وأوكد وأقوى في كتاب الله عز وجل، فليتبّع الحق من ذلك، فليس بعد الحق إلا الضلال، والحمد لله رب العالمين.



(١) في (أ): لعلمه يعاقبهم.

[شبهة في قوله: ﴿وَكَأَنُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾]

ثم قال عبد الله بن يزيد البغدادي: ثم سلمهم عن قول الله سبحانه: ﴿وَكَأَنُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ (١٠١) ﴿[الكهف]، و ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ (٢٠) ﴿[هود]، وأشباه هذا في كتاب الله عز وجل. وليس لهم في وجه أخذوا فيه من الوجوه راحة، فالزم كل مسألة على وجهها ومعناها وحدها، فإنهم لن يفيدوا لك وجهاً خالفوا فيه العدل، وستردهم إلى قولك، أو تنكسر عليهم وجوههم التي وضعوها، لأنها جاءت من غير الله عز وجل.

الجواب قال أحمد بن يحيى صلوات الله [عليه] وعلى آبائه الطاهرين: وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿وَكَأَنُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ (١٠١) ﴿[الكهف]، لجهلك باللغة، وعجزك عن العلم بتصرفها في اللسان العربي عند العرب، الذين خاطبهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بلسانهم، وذلك قول الله جل ثناؤه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

وقال الله عز وجل يحكي عنهم يوم القيامة: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَغْشِيَتُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَأَنُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ (١٠١) ﴿[الكهف]، يعني تبارك وتعالى بذلك: أنهم كانوا لا يبصرون الحق، ولا يميلون إليه بقلوبهم، ولا يريدونه بشيء من حواسهم، ولا يصغون إليه بآذانهم، ولا يريدون أن يسمعوه باختيارهم، وإعراضهم وكراهيتهم للحق واستماعه.

وهم في ذلك بقدر أن يسمعوا وينصتوا إليه لو أرادوا، لأن الله جل ثناؤه لم يحل بينهم وبين الاستماع، وقد قال عز وجل: ﴿وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا

يُصِرُّونَ (١٩٨) ﴿[الأعراف]، وقال عز وجل في موضع آخر: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ [مريم: ٣٨]، يعني: ما أسمعهم وما أبصرهم !! مثل ما تقول العرب: أكرِم بفلان، أي: ما أكرمه !!

وقوله عز وجل يعتف الكفار، ويعجب نبيه عليه السلام من كذبهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمَلْ إِنَّا نَحْنُ غَامِلُونَ (٥)﴾ [فصلت]. فلو كان في آذانهم وقر لم يسمعوا دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الاسلام، ولم يجوز أن يخاطبوه ولا يردوا عليه هذا القول، وهم لم يسمعوا قوله حين دعاهم. فهذا أوضح شاهد عليك.

وقال الله عز وجل في أهل النار: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)﴾ [الأنبياء]، فإن كان هذا القول على ظاهر الآية أن أهل النار لا يسمعون عندكم أيها المجبرة، فهو خير لهم أن لا يسمعوا ما فيها من البلايا والأهوال، والأصوات المنكرة المكروهة، وأصوات السلاسل والأغلال، وما فيها من الأنكال.

فإن قلت: إنهم فيها لا يسمعون وحقت ذلك، لأن يجوز كذبك، أكذبك الله جل ثناؤه في القرآن المبين، حيث يقول ويوجب أن أهل النار يسمع بعضهم بعضا، فقال: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا﴾ [غافر: ٤٧]، ﴿مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ هَدَيْنَاكُمْ سَوَاءَ عَلَيْنَا أَجَزْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ نَحِيصٍ (٢١)﴾ [إبراهيم^(١)]. فقد صح وثبت أن هذا قول من يسمع بعضهم عن بعض^(٢)، ولو كانوا لا يسمعون ما تحاجوا، ولا فهم

(١) في (أ) و (ب): جمع الإمام الناصر بين الآيتين وجعلها آية واحدة وهما آيتان من سورتين كما ترى. أو لعله سهو من الناسخ.

(٢) في (ب): بعضهم بعضا.

بعضهم عن^(١) قول بعض، وإنما عنى أنهم لا يسمعون فيها شيئاً من الرحمة ولا الخير.
 وقوله: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ (١٠١) [الكهف]، إنما يعنى بذلك: أنهم لا يريدون استماع الحق ولا الرغبة فيه، ولم يستعملوا استطاعتهم في طلبه، كما قال جل ثناؤه: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ [الكهف: ١٠١]، والله عز وجل لا يُذَكَّر بالأعين، وإنما يذكر بالأسن. وهذا دليل على أن القوم المجبرة إنما هلكوا في الدين من جهلهم بمعاني اللغة العربية، وإعراضهم عن الأئمة الذين استخلفهم الله عز وجل على عباده وولاده، وجعلهم ورثة لنبيه صلى الله عليه وعليهم.
 ومن الحجة على ما قلنا في معرفة اللغة العربية، قول الشاعر:

لقد أسمعَتْ لو ناديتَ حيا ولكن لا حياة لمن تُنادي^(٢)
 يعنى بذلك: الأحياء الذين لا يريدون استماعه ولا القبول عنه. فقال: ولكن لا حياة لمن تنادي، وفيهم الحياة موجودة. فافهم معاني اللغة العربية كيف تتصرف.
 ثم قال في صفة الميت الجائز عند العرب في لغتها، ما يروى عن قيس بن عاصم التميمي ثم المنقري، وهو الذي وفد على رسول الله صلى الله عليه، فقال فيه رسول الله صلى الله عليه: «هذا سيّد أهل الوبر»، فلما حضرته الوفاة دعا بناته وحامته فقال لهم: لا أسمع من يندبني ويكي عليّ بعد موتي^(٣). فجاز هذا في لغة العرب، والميت لا يسمع بكاء ولا غيره.

(١) سقط من (ب): عن.

(٢) البيت لبشار بن برد، انظر ديوانه.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ج ١/ ص ٣٢٠ ح ٩٥٣، والحاكم في مستدركه ج ٣/ ص ٧٠٨ ح ٦٥٦٤، والطبراني في معجمه الكبير ج ١٨/ ص ٣٤١ ح ٨٧٠، والحاتر / الميمني في مسنده (الزوائد) ج ١/ ص ٥٣٠ ح ٤٧١.

وقال الشاعر في تصديق ذلك:

لا أسمعَنَّ بعدَ الموتِ تنذُبني وفي حياتي ما زوّتني زاداً^(١)

وقال عماره بن عقيل التميمي يحضّ قومه على المواصلة وترك القطيعة:

فدُونَكُمَا يَا ابْنَي نِزَارٍ تَلَا فَيَا كَمَا لَفَّقَ الْبُرْدُ السَّيَاقُ بِالْبُرْدِ
ولا تُسمعاني الزور في إتهام هامتي تراميكُمَا بالنبلِ ويحكّمَا بعدي^(٢)

فقال: ولا تسمعاني تراميكما بالنبل ويحكما بعدي، وهو قد علم وعلمت العرب أنه لا يسمع بعد الموت، ولكن جاز ذلك في لغة العرب التي لا يقوم بمعرفتها إلا أهل العلم.

وإنما غلط هؤلاء المجبرة في دينهم، وكذبوا على ربهم، وألزموه ذنوبهم وخلق أفعالهم، لجهلهم بما ذكرنا من لغة العرب ومعاني القرآن، الذي خاطب به رسول الله صلوات الله عليه قومه الفصحاء البلغاء.

فافتَرَّت المجبرة على الله عز وجل، وتأولوا كتابه على مبلغ عقولهم، وتعلّقوا بالمشابه الذي لا علم لهم بتأويله، وزعموا أنهم أتوا في ذنوبهم، ودخل عليهم البلاء من قِبَل ربهم، وكذبوا عليه سبحانه، وزعموا أنا نحن المفترون عليه عز وتعالى!!

ومن الحجة عليك في اعتلالك علينا بقول الله عز وجل: ﴿وَكَاُنُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ (١٠١) ﴿[الكهف]، فنقول لك: ما تقول في قول الله عز وجل يخبر عن أهل النار، إذ قال: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ (١٠٠) ﴿[الأنبياء]؟ أتقول: إن هذا القول على

(١) البيت لعبيد بن الأبرص، ورد في ديوانه هكذا: لا أعرنك...

(٢) البيتان لأبي الأخيل العجلي لحق آخر أيام بني أمية. وردا في ديوانه هكذا:

فأوصيكما يا ابني نزار فتابعما	وصية مفضي النصح والصدق والود
فلا تعلمن الحرب في إتهام هامتي	ولا ترميا بالنبل ويحكما بعدي

حقيقة لا مجاز له ولا تأويل فيه؟! وتقول: إنهم صمّ، لا يسمعون قليلاً ولا كثيراً؟!
 فإن قلت: نعم، كذلك أقول، أكذبك الله حيث يقول: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ
 فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ
 (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨)﴾ [غافر]،
 وليس بدّ للمحتاجين أن يسمع بعضهم بعضاً. وكفى بهذه الحجة فاضحة لك !!

ومن الحجة لنا عليك أن نقول لك: أخبرنا عن قول الله جل ثناؤه لنبيه محمد
 صلى الله عليه وعلى آله وسلم، حين قال له يعاتبه على إذنه للقوم الذين أذن لهم،
 فقال له: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ
 (٤٣)﴾ [التوبة]. فنقول لك: هل كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله يستطيع
 ويقدر أن لا يأذن لهم؟!

فإن قلت: نعم، لزمك أنك قد رجعت عن قولك، وبطل احتجاجك، في أن
 الاستطاعة مع الفعل، وصرت إلى الحق وهو قولنا.

وإن قلت: إن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله لم يكن يستطيع ولا يقدر أن لا
 يأذن لهم إلا مع الفعل، لزمك أن الله عز وجل قد عاب عليه وعقّبه. في أمر لم تكن
 له عليه استطاعة ولا مقدرة، وهذا أعظم الجور وردّ للقرآن، إذ يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ
 اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، و﴿إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧].

ثم نقول لك: أخبرنا عن قول الله عز وجل لنبيه داود صلى الله عليه: ﴿يَا دَاوُدُ
 إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ
 سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، أليس قد قال عز وجل هذا القول لداود صلى الله عليه؟
 فإن قلت: نعم.

قلنا لك: فهل أمره الله من الحكم بالحق وترك الهوى، بما يقدر عليه ويملكه، وهو له مستطيع قبل فعله؟!

فإن قلت: نعم، تركت قولك وصرت إلى قولنا.

وإن قلت: لا، لم يكن داود يستطيع الحكم بالحق، ولا ترك اتباع الهوى، إلا مع الفعل لذلك، لزمك أن الله عز وجل قد كلف داود ما لا يطيق ولا يملك ولا يقدر عليه، وليس هو موجوداً في بنته، وأن قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، و﴿إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧]، باطل لا يصح، وليس له حقيقة. وهذا أعظم الكفر والخروج من الاسلام جملة.

وكذلك يلزمك في جميع ما أمرت به الأنبياء من هذا النحو، على الأمر لها بالفروض اللازمة لها وللأسم، ولو كان هؤلاء القوم الذين ذكرت أنهم لا يستطيعون سماعاً على ما توهمت وذهبت إليه من الجبر والفرية على خالقك، جل الله عما قلت !! لما لزمتمهم الله عز وجل حجة، ولا كانت عليهم له مطالبة، إلا أن تقول: إن الأصم تلزمه الفرائض التي هي من طريق السمع.

فإن قلت كذلك، أكذبك جميع أهل القبلة، لأن الأصم لا حجة عليه في الفرائض التي هي من قبل الأمر المسموع من القرآن وغيره، مما لا يُدرك في الدين إلا من جهة المسموع، وكفى عليك بهذا القضاء فضيحة في دينك، فقد بان خطأؤك وغلطك، فيما سألت عنه وذهبت فيه إلى الجبر، وفارقت العدل !!

ولو كانوا لا يستطيعون سماعاً على ما ذهبت إليه، لبطل قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (١٥) [الإسراء]، ولا يجوز بعثه الرسل إلى من لا يسمع قول الرسل، وهذا واضح لا يقدر له أحد على ردّه، وفيه الكفاية الكافية، والحمد لله رب العالمين.

ومن الحجة عليك في أن الاستطاعة قبل الفعل، قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَعْرِمُوا عُقْدَةَ النُّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابَ أَجَلَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

ألا ترى أنهم لو أرادوا النكاح قبل بلوغ الكتاب أجله لأمكنهم ذلك، وإمكانه لهم ومقدرتهم عليه، ووجود الاستطاعة فيهم قبل فعله، افترض الله عز وجل عليهم أن لا يعزموا على النكاح ولا يفعلوه حتى يبلغ الكتاب أجله، وهو وفاء العدة وبلوغ الأمد، وهذا أقطع ما يكون لكم في قولكم: إن الاستطاعة مع الفعل.

ومن الحجة لنا عليك في أن الاستطاعة قبل الفعل، قول الله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبُوءَ بِإِثْمِكَ وَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩)﴾ [المائدة]، فقال الله عز وجل: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠)﴾ [المائدة].

أفلا ترى أيها المغرور في دينه كيف أخبر الله عز وجل أن نفسه هي التي طوعت له قتل أخيه، وأن الله لم يرد ذلك ولم يخلقه ولم يقدره، وأن الاستطاعة مع كليهما موجودة قبل فعلها، مُقرين بذلك ومصدقين بها، فتزل هذا القرآن غير مكذب بقول هذا لصاحبه: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، لعلمه أنه قادر على قتله قبل فعله، وقول الآخر: ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، لعلمه أنه قادر على قتله قبل فعله، فلذلك كف وتورع.

ولو كان يعلم أنه لا يقدر على ذلك، لم يجوز على الله جل ثناؤه أن يخبر عنه ويصوبه في فعل ما لا يقدر عليه، والله بريء من فعل الذي قتله، ولذلك صار القاتل ظالماً متعدياً، إذ لم يكف استطاعته عن الظلم واستعماها في الفساد، وأمسك الآخر ولم يجعل إلى القتل الذين له فيه استطاعة وهو له ممكن من قبل فعله، وهذا خبر الله عز وجل، وهذا كتابه ينطق بخلاف قولك: إن الاستطاعة مع الفعل.

وفي هذه الآية من الحجة عليك في إثبات العدل، وبراءة الله عز وجل من قتل

مَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا، قوله عز وجل: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٣٠) [المائدة]، ولم يقل: فضيئت عليه قتل أخيه، ولا أردته منه، ولا خلقت فعله، وكان من ندامته أنه لبث^(١) يحمله فيما يقال على عاتقه مائة عام، لا يدري كي يصنع به، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (٣١) [المائدة]^(٢).

ثم قال الله عز وجل على أثر هذا، مثبتاً للعدل، ومبرئاً لنفسه من الظلم: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

أفلا ترى كيف ندم ابن آدم ولام نفسه، على أنه لم يدفن أخاه، وقد كان الدفن يمكنه قبل فعله وهو مستطيع له، ولذلك قال: ﴿يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾، لعلمه أنه قد كان قادراً مستطيعاً أن يدفن أخاه، ولو كان لا يستطيع دفنه ما قال: ﴿يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾، ولا يجوز أن يخبر الله عز وجل عنه بما لا يكون، وكيف يتلهف على أمر لم يكن يستطيعه إلا مع فعله؟! وكيف يحكي الله عز وجل خبراً لا يصح ولا يجوز في المعقول، ولا يستطيعه الناس إلا مع فعلهم له؟!.

فاعرف قدر هذه الحجج القاطعة لك، ففيها كفاية لمن عقل، والحمد لله رب العالمين.

ومن الحجة في أن الاستطاعة قبل الفعل، قول الله عز وجل: ﴿وَلَا يَضُرُّنَّ

(١) في (أ): أن لبث يحمله. وفي (ب): أنه يحمله. ولفقت النص منها معاً.

(٢) انظر الدر المنثور ٣/ ٦٠ - ٦٣.

بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿[النور: ٣١]﴾، ففي هذه الآية دليلان اثنان على أن الاستطاعة قبل الفعل.

ألا ترى أنه أمر النساء أن لا يضربن بأرجلهن، لما علم أن معهن استطاعة الضرب بالأرجل من قبل أن يفعلن، فافتراض عليهن أن لا يضربن بأرجلهن، ولو لم تكن معهن استطاعة الإمساك عن الضرب بأرجلهن، لم يفترض عليهن أمراً لا يقدرن عليه، وتكليف ما لا يُطاق، عز الحكيم العادل عن ذلك !!

وكذلك قوله: ﴿تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾، فلم يكن ليأمرهم عز وجل ويفترض عليهم التوبة من قبل أن يجعل لهم السبيل إليها، ويمكنهم منها، وأكبر الشاهد لنا على ذلك، قوله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ [المائدة: ٧٤]، ويلومهم - كما تسمع^(١) - على ترك التوبة التي هي ممكنة لهم إن أرادوها، فهذا أكبر دليل وأقوى حجة، ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠١) ﴿[يونس]. أهذا ويحك قول من حال دون التوبة والايان؟! فسبحان الله العظيم!!

ومن الحجة في أن الاستطاعة قبل الفعل، قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ (١٥) ﴿[الأنفال]، فهذا يوجب أنهم كانوا يستطيعون أن لا يولّوا الأدبار من قبل الفعل، ولولا ذلك ما قال عز وجل: ﴿وَمَنْ يُؤْمِدْ يُؤْمِدْ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٦]، فلم يكن الله ليغضب عليهم في أمر لا يستطيعون إليه حيلة.

ومن الحجة لنا في إثبات العدل، وأن الله عز وجل لا يعذب أحداً إلا بظلمه وجرمه وإثمه، وغشمه واختباره، قوله عز وجل: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢]، ولم يقل: بما قضيت عليهم وقدّرت وأردت.

(١) سقط من (ب): كما تسمع.

وقد روي عن كعب الأحبار رحمه الله أنه قال: قرأت في الكتب السالفة الأولى: ومن يظلم نخرب بيته^(١)، فكنت على ذلك فينة من دهري، حتى بُعث النبي محمد صلوات الله عليه وعلى آله، فلما سمعت به سرت إليه وأسلمت، وأقمت عنده وتصفحت ما نزل عليه من القرآن، وطلبت نظيراً لتلك الآية التي وجدت في التوراة فلم أجد، فبينما أنا على ذلك، إذ نزل عليه صلوات الله عليه هذه الآية ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾.

فالله عز وجل لا يؤاخذ أحداً من جميع خلقه إلا بعد ظلم وذنوب بدأ به هو، واكتسبه واختاره بعد النهي عنه، والدعاء إلى غيره من الطاعة، ولم يُرد منهم عز وجل أن يكفروا ولا أن يُذنبوا عن أمره. ألا تسمع إلى قول نوح صلى الله عليه: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩)﴾ [نوح]، ثم قال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣)﴾ [نوح].

أفلا تسمع إلى هذا القول العجيب، والحكمة البالغة، وأين هذا من دعواك يا عبد الله بن يزيد البغدادى وإخوانك المجبرة، التي أسندتم فيها إلى خالفكم أنه أراد الكفر من الكفار، جراً على الله جل ثناؤه، وتعامياً عن كتابه، ومكابرة للعقول، وميلاً إلى تقليد الرجال، بلا حجة ولا بصيرة، ولا شاهد من كتاب الله عز وجل، إلا ما تعلقت به من التشابه في القرآن، الذي جهلت تأويله، فقد علمت ما ورد عليك في كتابنا هذا، من الكسر لحجّتك، واستشهاد القرآن عليك، والحجة الواضحة التي لا يخرج لكم منها أيها المجبرة أبداً.

وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿مِنهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُشَبَّهَاتٌ

فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زِينَةٌ فَيَسْتَعْمُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧) ﴿آل عمران﴾.

فقال قوم: إن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويل الكتاب، جهلاً منهم وبلاء. لعمرُ الله إن الراسخين ليعلمون تأويل الكتاب، وما تحتاج إليه الأمة من أمر دينها الذي تعبدُها الله عز وجل به، ولولا ذلك لم يجب لهم اسم الرسوخ في العلم، لأن من لم يعلم تأويل القرآن، لا يجب له اسم الرسوخ في العلم، وإلا ففيها رسخ إذا لم يعرف تأويل القرآن !!

فأولئك هم أئمة الهدى من أهل بيت النبوة عليهم السلام، والراسخون في العلم هم أهل التنزيل والتأويل، ولو لم يكن عندهم علم الكتاب، لما جاز أن يقول الله جل ثناؤه في كتابه: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧]، والذكر فهو محمد صلى الله عليه وعلى آله، ودليل ذلك قول الله عز وجل: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ [الطلاق]. فصار الذكر هو الرسول، وهذا ما لم يُدفع. فصار أهل البيت عليهم السلام هم^(١) المأمورُ الخلق بسؤالهم، ولم يكلفوا أن يسألوا عبد الله بن يزيد البغدادي، ولا عبد الرحمن بن خليل، ولا عبد الكريم بن نعيم، ولا مسلم بن [أبي] كريمة، ولا عبد الصمد، ولا المعلم، ولا نجدة بن عامر، ولا أبا مؤرج السدوسي^(٢).

إلا أن يدعي عبد الله بن يزيد البغدادي وهؤلاء نفر الذين سمينا أن جبريل صلوات الله عليه كان يهبط على جدهم وفي بيوتهم، فدرجوا بين التنزيل والتأويل،

(١) سقط من (أ) هم.

(٢) في (ب): مروح.

وغذاهم الرسول وناغاهم، وأظلمهم بجناحه الأمين، ونزل فيهم من الله عز وجل ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣]^(١). فإن صح ذلك، فهم أولى وأحق أن يُسألوا. وإن لم يصح فغيرهم أولى بالمقام، وأحق بالذنب عن الاسلام، والقيام بالأحكام منهم.

(١) نزلت في أهل البيت. أخرجه ابن جرير في تفسره ١٦/٢٥ عن سعيد بن جبیر، وعن عمرو بن شعيب أيضا ١٧/٢٥.

وأخرجه أبو نعيم في الحلية عن جابر ٢٠١/٣.

وأخرجه عبد بن حید، وابن المنذر عن مجاهد، وابن مردويه، عن ابن عباس، وأبو نعيم، والدیلمي عن مجاهد عن ابن عباس، وسعيد بن منصور، عن سعيد بن جبیر. وابن جریر، عن علي بن الحسين زين العابدين. الدر المنثور ٧/٣٤٧ - ٣٤٨.

وأخرجه الحاكم في المستدرک ٣/١٧٢، والقندوزي في ينابيع المودة (الباب ٥٨/٣٢٣ ٣٢٤) وقال: أخرجه الطبراني في الكبير، والأوسط، وأخرجه البزار.

وأخرجه الطبراني في الكبير ١/١٢٦، ٣/١٥٥ ١٥٦، ورواه الكنجي في كفاية الطالب عنه، الباب (٩١/١١).

وأخرجه ابن المغازلي الشافعي في المناقب/٣٠٧ - ٣٥٢.

والطبري في ذخائر العقبى/٢٥، ١٣٨، وقال: أخرجه الدولابي.

ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/١٤٦ عن أبي الطفيل. وقال أخرجه الطبراني، وأبو يعلى، والبزار، وأحمد.

ورواه ابن حجر في الصواعق المحرقة/١٠١، وقال أخرجه البزار والطبراني.

وأخرجه السيد أبو طالب في الأمالي/١٢٠، والمرشد بالله في الأمالي ١/١٤٨.

ورواه في أسد الغابة ٥/٣٦٧، والزمخشري في الكشاف عند تفسير الآية.

والشبلنجي في نور الأبصار/١٠١، والحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ٢/١٣٠ ١٤٦ برقم (٨٢٤ ٨٢٥)، وأخرجه ابن عساکر ترجمة الإمام علي ٣/٤٣ (١٨١).

ورواه الطبرسي في مجمع البيان ٩/٢٩، ورواه في تاريخ اصبهان ٢/١٦٥، ورواه الطوسي في أماليه

رقم (٤٠) من المجلس (١٠)، ورواه البلاذري في أنساب الأشراف ٢/٧٥٤.

فهذا جوابنا لعبد الله بن يزيد البغدادي على مسائله، ومن وصل إليه هذا الكتاب، ولم يوضحه للناس وبيّنه للمسلمين، فهو في أعظم الحرج، حتى يكون الله جل ثناؤه هو المطالب له يوم القيامة بما كتّم من الحق، قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٤٠)، والله عز وجل حسيب من ظلم، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (٢٢٧) [الشعراء].



ولعل هذا
 الكتاب أيضاً
 هو كتاب
 على القرآن
 للإمام
 الناصر
 رحمه

الرد على الأباضية

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله وحده، وصلواته على محمد وآله.

قال الإمام الناصر لدين الله عليه السلام: فهمنا ما ذكرت يا أبا محمد - أكرمك الله - بما ذكر لك الإباضية في شأن مسائلهم التي سألوكم وساء لتنا أنت - أعانك الله - أن نجيبهم عليها، وزدت أيضا فيها شرحا لم يدخل في سؤالهم، فقويت ذلك ليتسع لك الجواب، وتستفيد ما يصل بك من جوابنا في ذلك إن شاء الله، وذكرت أن الإباضية طلبوا أن يكون الاحتجاج والدليل في جواب مسائلهم من اللغة العربية، ومن أشعار العرب الأوائل الخياد المعروفة المستشهد لا من غير ذلك، وزعمت أنهم أرادوا بذلك امتحان أهل الحق، ولأن يعرفوا ويخبروا ما عندنا من المعرفة بلغة العرب وأشعارهم، وتعتوك في ذلك على ما ذكرت، ولم يجوازعموا أن يكون جوابنا من استشهد القرآن، بعضه على بعض، وأنهم مكتفون بما عندهم من أسلافهم ومشايخهم، وأنهم لو أرادوا ما أعجزهم، وإننا أرادوا مخارج الجوابات ودلائلها من اللغة العربية وأشعار العرب المتقدمة، ولأنه قد بلغهم في الروايات أن عبد الله بن العباس رحة الله عليه قال: إذا أشكل عليكم شيء من القرآن فاطلبوه في أشعار العرب، واحتجوا في طلبهم التفسير باللغة بقول الله عز وجل: ﴿يَلْسَانُ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]. وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا يَلْسَانًا قَوْمِهِمْ يُبَيِّنُ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]. ويقول سبحانه: وقالوا ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]. ونحن نريد أن نستفيدة من حيث ذكره الله سبحانه، ولا نريد الجواب فيه إلا من اللغة والشعر القديم العربي.

واعلم يا أبا محمد - حاطك الله - أن هؤلاء القوم إنما أرادوا تعنيتنا، وأن يدروا

ما عندنا من المعرفة باللغة، والذي نذهب إليه ونحبه في التفسير في أن تكون الحجة منا في التفسير بشواهد من كتاب الله عز وجل على كتاب الله، ولا بد مع ذلك من الاستشهاد باللغة والشعر، ونحن - بحول الله وقوته - نجيبك في ذلك بجواب ما سألو من اللغة والشعر، نتوخى فيه صواباً، ونرجو من الله سداداً، ولا بد لنا أن ندخل في ذلك من شواهد الكتاب ما لا ريب منه، ولا يستغنى عنه مما يبين الله سبحانه به الحق ويزهق به الباطل، وترغم به أنف المخالفين بحوله وقوته، وإن كنت في وقتي هذا من الغم والهـم بفراق الإمام صلوات الله عليه فيما أقل منه أذهل العقل وشغل القلب، غير أني أرجو من الله سبحانه العون والتسديد لما يحبه من الرشد، وإرغام الظالمين من أهل العناد، والتهادي في الباطل والفساد، وقد أجبناك - أتم الله نعمك - في كل ما سألو عنه من اللغة والشعر، فافهمه وقف عليه، ثم أنفذه إليهم بحول الله وقوته.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) سألت - أكرمك الله - عن قول الله سبحانه: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مُلْكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]. وقلت: فما عليهم والمملك قد صار وراءهم ونجوا منه، وإنما كان الخوف يقع عليهم لو كان الملك قدامهم؟! قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: هذا من أضداد الكلام الجائر في لغة العرب، وذلك أن العرب تسمي القدام: وراء، ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]. يقول بين يديه، ولو كان العذاب وراءهم كما ظننت لكانوا قد سلموا منه، والعرب تكلم بهذا وتكثر، قال ليبد بن ربيعة الكلبي:

أليس ورائي إن تراخت منيتي لزوم العصا تحنى عليها الأصابع^(١)
يريد: أليس بين يدي الهرم والضعف والكبر، فَصَبْرُهُ وراءه وهو بين يديه.

٢) وسألت فقلت: وما يدخل على المساكين من عيب السفينة؟
قال أحمد بن يحيى عليها السلام: إن الملك كان يأخذ كل سفينة جيدة لها قدر،
فأراد العبد الصالح عليه السلام أن يعيها حتى لا يرغب فيها الملك، فإذا جاوزه
أصلحها.

٣) وسألت عن معنى قوله: ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠]؟

قال أحمد بن يحيى عليها السلام: ﴿فَخَشِينَا﴾ هاهنا يخرج على فكرهنا، لأن
الله عز وجل لا يخشى.

٤) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿أَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧]. فقلت: كيف جاز أن يسميه إلهًا وليس هو بإله؟

قال أحمد بن يحيى عليها السلام: المعنى في ذلك على التوقيف والتقرير
والتوبيخ، يقول إنه إلهك زعمت عند نفسك، مثل قوله في موضع آخر: ﴿ذُقْ
إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]. يريد به التوقيف والتوبيخ.

قال قيس بن زهير العبسي:

(١) البيت للبيد العامري، لبيد بن ربيعة بن مالك، أبو عقيل العامري، من أهل عالية نجد، أدرك
الإسلام، يعد من الصحابة ومن المؤلفة قلوبهم، وترك الشعر فلم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً، هو
قوله: الحمد لله إذ لم يأتني أجل حتى اكتسبت من الإسلام سربالا
سكن الكوفة، عاش عمراً طويلاً، وهو أحد أصحاب المملقات.

قال البقيل يا قيس فقلت له اصبر حذيف فأنت السيد الصمد فقال له هذا القول وهو يقتله ويسميه: صمدا، أي أنك السيد الصمد بزعمك، والصمد في اللغة فهو المقصود المعتمد.

٥) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ۗ ﴾ [الأنبياء: ٣٧]. فقلت: كيف خلق من عجل والعجل هو منه؟

قال أحمد بن يحيى عليها السلام: إن أهل اللغة يقولون: إن مجاز ذلك مثل قولهم: عَرَضَ الدابة على الماء، يعني الماء على الدابة، ومثل قولهم: عرض المعلم على الصبي، أي استعرضه المعلم، وقولهم: إذا لقيك الجبل فخذ يمينك، يعني عن يمينك، وفي القرآن: ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ۗ ﴾ [القصص: ٧٦]، والعصبة هي التي تنوء بالمفاتيح.

٦) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٢١، القارة: ٧]. فقلت: كيف يكون العيشة راضية، وينبغي أن تكون مرضية؟

قال أحمد بن يحيى عليها السلام: هذا جائز في لغة العرب، مثل قولهم للناقاة: راحلة وهي مرحولة، ومثل قولهم: رجال حالقة رؤوسها، قال الشاعر:

تفلق عند هادي الورد منهم رؤوسا بين حالقة ووفر^(١)
يريد محلوقة ووافرة.

وقالت أم ناشر تخطي رأيه في قتل رجل قتله من العرب بعد إحسانه إليها:

قتلت رئيس الناس بعد أخي الندى كليب ولم تشكر وإني لشاكرة

(١) لم أقف عليه.

لقد عيل الأيتام طعنة ناشر أناسر لا زالت يمينك آثرة^(١)
يعني موشورة بالميشار، وهذا كثير موجود في كلام العرب، فاعلم ذلك إن شاء الله.

(٧) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾
[النحل: ٩]. فقلت: كيف يكون من سبل الله شيء جائر؟!

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: قد كنت سألتني وأنا حدث في حياة الهادي إلى الحق عليه السلام، فأجبتك بما أنا مجيبك به الآن إن كنت قد نسيت الجواب الأول فافهمه إن شاء الله.

قال عليه السلام: إن سبل الله جل ثناؤه ليست بجائرة، ولا منها شيء جائر، وإنما عني الله تبارك وتعالى أن من الخلق من يجور عنها بظلمهم واختيارهم، فالجور منهم هم عن سبيل الله عز وجل، ولم يجعل تبارك وتعالى شيئاً من سبله جائراً ولا غامضاً.

(٨) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]. فقلت: إذا صرف الناس عن آياته فما حيلتهم في ذلك؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: إن الأمر ليس على ما ذهبت إليه، وإنما المعنى في ذلك أنه عز وجل أنه يصرف عن آياته الأعداء والمعاندين والمفسدين، حتى لا يكيدوها بكيد، ولا يقدرّون لها على فساد، بقوله عز وجل: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

(٩) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿وَلَا طَيْرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]. وقلت: إن الطيران لا يكون إلا بجناحين، وإن العرب تستغني بذكر الطائر وتكتفي باسمه عن ذكر جناحين، فما معنى ذلك؟

قال عليه السلام: هذا تأكيد للكلام، وهذا موجود في لغة العرب، يقول الرجل لصاحبه: قد جئتكم بنفسي، ومشيت إليك برجلي، وكلمتك بلساني، ونظرت إليك بعيني، وسمعتك بأذني، وأعطيتك بيدي، وكل هذا كان سيجزي فيه كلمة واحدة، لو قال: جئتكم، أجزأ عن قوله: بنفسي، ولو قال: مشيت إليك، أجزأه عن قوله: برجلي، ولو قال: كلمتك، أجزأه عن قوله: بلساني، وكذلك سائر الكلام على هذا المثل، فافهمه إن شاء الله تعالى.

وقال الله عز وجل: ﴿فَصَيَّامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦]. فقد علموا أن ثلاثة وسبعة عشرة.

(١٠) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ لَا يَكْتَنِبُ لِرَبِّهِ فِيهِ﴾ [البقرة: ١-٢]. فقلت: ما معنى قوله: ﴿الَّذِينَ لَا يَكْتَنِبُ﴾. كأنه يشير إلى كتاب غائب لما قال ذلك الكتاب؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: إنها عنى تبارك وتعالى: هذا الكتاب ولم يشر إلى كتاب غائب، وذلك ومثله موجود في لغة العرب، ألم تسمع إلى قول الشاعر:

أقول له والرمح يأطر متنه تأمل خفافا إنني أنا ذلكا^(١)

فقال: إنني، فأشار إلى نفسه، ثم قال: ذلك، يعني نفسه أيضا، فجاز ذلك إذ كان القول لا عيب فيه عند العرب المخاطبين.

(١) البيت لخفاف بن ندية السلمي خفاف بن ندية بن عمير الحارث بن عمرو الشديد بن قيس بن عيلان السلمي، أدرك الإسلام، فأسلم وشهد فتح مكة، وغزوة حنين، والطائف، هو ابن عم الحنساء الشاعرة.

(١١) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿أَخُوهُمْ تُنُوحٌ﴾ [الشعراء: ١٠٦]. فقلت: كيف جاز أن يكون أخا لهم وهم كفار، وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. وليس الكفار إخوة للمؤمنين؟

قال أحمد بن يحيى عليه السلام: إنما تلك تخرج على أنه أخوهم في النسب، لا على أنه أخوهم في الديانة، فافهمه إن شاء الله.

(١٢) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمْرٍ مُوسَىٰ قُرْعًا﴾ [القصص: ١٠]. فقلت: ما معنى ذلك؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: في هذه المسألة قولان: أما أحدهما فإنه يقول فارغا من كل شيء إلا من ذكر موسى عليه السلام. والقول الآخر فإنه قال: فارغا من كل شيء إلا من العهد الذي عهد الله عز وجل إليها، والوعد الذي وعدها إياه من قوله: ﴿إِنَّا آتَاوَهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

(١٣) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]. فقلت: فقد نراه يخرج من دار الدنيا وهو معاند لله عز وجل، ولم تنكبه نكبة، ولم يعذب بعذاب، وله المال الكثير والأولاد؟

قال أحمد بن يحيى عليه السلام: هذا كلام يخرج على التقديم والتأخير فافهمه، كأنه قال: ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة، فقدم وأخر، والتقديم والتأخير موجود في لغة العرب، قال أوس بن حجر: أَمَا حِصَانٌ فَلَمْ عُجِبْ بِكَلَّتْهَا قد طفت في كل هذا الناس أحوالي

على امرئ سرقه ولا ملك أنذى وأكمل منه أي إكمال^(١)
يريد: فلم يضرب بكليها على امرئ سوقه، فقطع بين الكلام بنصف بيت
للتقديم والتأخير.

وقال الأخطل التغلبي:

إن الفرزدق صخرة عادية طالت فليس ينالها الأوعالا
يريد الصخرة طالت فليس الأوعالا تنالها.
وقال ذو الرمة:

كان أصوات من إيغاهن بنا أواخر المس أنفاض الفراريج^(٢)
وإنما أراد: كأنها أصوات المس، فقدم وأخر، فافهم هذا الباب إن شاء الله.

(١٤) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ
بِرِيحٍ طَبَیْءٍ ﴾ [يونس: ٢٢]. فقلت: كيف جاز أن يقول: ﴿ كُنْتُمْ ﴾، ثم قال
بعدها: ﴿ بِهِمْ ﴾؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: ذلك جائز في لغة العرب، معروف في
خطابها وأشعارها. قال أبو طنير الهذلي يرثي رجلا:

يا ويح نفسي صار جدة خالد وبياض وجهك للتراب الأعفر^(٣)

(١) البيت لأوس بن حجر بن مالك التميمي أبو شريح، شاعر تميم في الجاهلية، أبوه حجر هو زوج أم
زهير بن أبي سلمى.

(٢) البيت لذى الرمة غيلان بن عقبة ابن نبيس بن مسعود العدوي من حضر من تحول الطبقة التالية في
عصره، عشق (مبة) المنفرة، واستهديها نوف بأصبهان، وقيل بالبادية.

(٣) الذي في الموسوعة يا لهف نفسي كان جدة خالد وبياض وجهك للتراب الأعفر.
البيت للشاعر: أبو كبد الهذلي عامر بن الحليس الهذلي، شاعر فحل من شعراء الحماسة، قيل أدرك
الإسلام، وأسلم وله خبر مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ولم يقل: وبياض وجه خالد في أول الكلام كأنه يخاطب غيره، وفي آخره كأنه يخاطبه هو دون غيره، فاعلم ذلك إن شاء الله.

(١٥) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿قَدْ أَجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩]. وقلت: إنها كان الداعي موسى عليه السلام وحده فصار الخطاب لاثنتين؟

قال أحمد بن يحيى عليه السلام: قد بلغنا أن موسى صلى الله عليه كان يدعو وهارون عليه السلام كان يؤمن على دعا موسى، فلذلك صارت الدعوة لكليهما صلوات الله عليهما.

(١٦) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣]. فكيف يجوز هذا القول؟! أكانوا يزيدون النبي صلى الله عليه تحسيرا وهو غير خاسر؟!؟

قال أحمد بن يحيى عليه السلام: إنها المعنى في ذلك أنه يقول: فيما تزيدونني غير تخسير لكم، وغير تضليل لكم، وسوء قول فيكم.

(١٧) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [العنكبوت: ٢٢] وبنوا آدم لا تكون في السماء؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: إنها يعني بقوله: ﴿وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾. أي: ولو كنتم في السماء ما أعجزتم.

(١٨) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]. فقلت: ما معنى يمشوا هاهنا؟

قال أحمد بن يحيى عليه السلام: يقول ألم توقنوا، وذلك جائز في لغة العرب، لأنها نقلت أشياء في كلامها، وتصرفها إلى ضدها من الكلام، قال الشاعر:

ألم يأسيس الأقسام أي أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائياً^(١)
وقال حريث بن جابر وكان من رجال أمير المؤمنين صلوات الله عليه بصفين:
أقول لهم بالشعب إذ يأسرونني ألم تأيسوا أي حريث بن جابر^(٢)
يريد: ألم توقنوا.

(١٩) وسألت عن الحجة أن الاستطاعة قبل الفعل لا معه، وطلبت فيه زعمت حجة واضحة تستغني بها، وتقطع الخصوم إن شاء الله؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: الدليل على أن الاستطاعة قبل الفعل قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. فأخبرنا عز وجل أن وليه قد يستطيع الإملاء، والإملاء معدوم لم يوجد بعد، ولو كان الولي كما هذا الآخر لا يستطيع لم يكن للآية معنا، ولكان تأويله إن لم يستطع أن يمل هو فليمل وليه الذي لا يستطيع أيضاً، والله عز وجل متعال متقدس عن قول هذا وغرضه وسبيله.

ومن الدليل على ذلك أيضاً أنه لو كان الأمر على ما ذكره القوم المخالفون لنا أن الاستطاعة مع الفعل تحدث في حال الفعل، لكان الكافر لا يؤمن به أبداً حتى تأتية استطاعة الإيمان، وكانت الاستطاعة لا تأتية أبداً وهو كافر، ولو كان هكذا ما جاز أن يؤمن كافر بوجه من الوجوه.

ألا ترى أن رجلاً لو كان في جوف بئر فقيل له: إنك لا تخرج من هذه البئر أبداً حتى تؤتى بحبل، ولن تؤتى بحبل ما دمت في البئر، لما جاز أن يخرج هذا الرجل من

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

تلك البئر أبداً، على هذا الشرط بوجه من الوجوه كذلك، فإذا الكافر لا يؤمن أبداً حتى يؤتى باستطاعة الإيمان وهو كافر، لأن الكافر لا يستوجب من الله عز وجل المادة ولا المعونة ولا لطائف الصنع، وإنما على الرسل والأئمة عليهم السلام الدعاء إلى الله عز وجل وعلى الخلق أن يحببهم، لأن معهم الاستطاعة على ذلك، والكلام في هذا كثير وفيها ذكرت لك كفاية بحول الله ومعونته.

(٢٠) وسألت عن قول الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ١٠٣]. فقلت: ما معنى قوله: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠٣]. فقلت: كيف يصلي النبي صلى الله عليه عليهم؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: الصلاة في هذا الموضع دعاء لهم بالخير والرحمة وما أشبه ذلك، والصلاة في لغة العرب فهي الدعاء، قال الأعشى البكري: تقول بتني وقد قربت مرتحلاً يا رب جنب أبي الأوصاب والوجعا عليك مثل الذي صليت فاغتضمي يوماً فإن لجنب المرء مضطجعاً^(١) يقول: عليك مثل الذي دعوت لي به، وهذا غير منكر في لغة العرب، فافهم ذلك إن شاء الله.

(٢١) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿ إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. فقلت: ما الحسن هاهنا وما معناه؟

(١) في الموسوعة بعد البيت الأول:

واستشفعت من مرأة الحي ذا شرف	فقد عصاها أبوها والذي شفاها
مهلاً بنسي فلان المرء بيعته	هم إذا خالط الحيزوم والفضلعا
عليك... إلخ.	

قال أحمد بن يحيى عليه السلام: إن الحس هو الضرب والقتل، وهو الحس - بفتحة الحاء - والحس - بخفضة الحاء - فذلك من طريق الحس مخفوظ، وهو الذي يحس الإنسان من الشيء الذي يؤنس، تقول العرب: آنست صوتا في مكان كذا وكذا، يعني أحسست، وتقول العرب: أوجست كذا وكذا، وكل ذلك شيء واحد، إلا الحس الذي عنى الله عز وجل فإنه بفتح الحاء، وهو القتل والضرب الذي عنى الله عز وجل حين قال: ﴿إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. قال الشاعر:

نحسهم بالببيض حسا كأنه حريق لظى في غابة تنضرم^(١)
والغابة أجمة القصب.

(٢٢) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿وَادْخُلُوا آلَ بَابَ سُجَّدًا﴾ [الأعراف: ١٦]. وقلت: كيف يجوز أن يكون الساجد داخلا، وكيف يدخل وهو ساجد؟ قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: السجود هاهنا هو: الطاعة والخضوع، وذلك معروف في لغة العرب، يقول الرجل إذا رأى رجلا يطيع ملكا أو غيره: فلان اليوم يسجد لفلان، أي يطيعه وإن لم يسجد له بوجهه، قال الشاعر:

بجيش تفضل البلق في حجراته ترى الأكم فيه سجدا للحوافر^(٢)
يقول: إن أكام الأرض مطيعة لحوافر الخيل.

(٢٣) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿فَأَنْبَحْكُمُ غَمًّا يَغْمِرُ﴾ [آل عمران: ١٥٣]. فقلت: ما معنى هذا وكيف يثيبهم غما بغم؟

قال أحمد بن يحيى عليه السلام: هذا القول يخرج على أن حروف الصفات

(١) لم أنف عليه.

(٢) في الموسوعة زيد الخيل الطائي.

يعقب بعضها بعضاً، لأن الباء تقوم مقام على، يريد سبحانه: فأثابكم غماً على غم، مثل قوله: ﴿وَلَا صَلَبْتَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]. فقامت في مقام على، وذلك جائز في لغة العرب، قال الشاعر:

هُمُ صَلَبُوا الْعَبْدِيَّ فِي جَذَعِ نَخْلَةٍ فَلَا عَطَسْتَ شَيْبَانٍ إِلَّا بِأَحْدَعَا^(١)
ومثل ذلك قوله عز وجل: ومن أهل الكتاب ﴿مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِدِينَارٍ﴾ [آل عمران: ٧٥]^(٢). أي على دينار، فقامت الباء مقام على، ومثل قوله عز وجل: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾ [الأنبياء: ٧٧]. أي على القوم، فقامت من مقام على، وهذا يكثر عن أن نحيط به في كتابنا، وفيما أجبناك به كفاية إن شاء الله.

(٢٤) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مَنْ أَسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأُجَلِّبَ عَلَيْهِمْ بِحَبْلِكَ وَرَجَلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَزْوَاجِ﴾ [الإسراء: ٦٤]. فقلت: كيف جاز أن يأمر الله عز وجل هذه الأشياء وكلها له معصية لا تجوز في العدل، وكيف يشارك الشيطان الناس في الأموال والأولاد؟

قال أحمد بن يحيى رضي الله عنه: إن ذلك جائز في اللغة العربية أن يخرج الكلام من المتكلم مخرج الأمر، ومعناه على خلاف ذلك الذي خرج عليه، وإنما هذا عندنا على الوعيد والتهدد، كنحو قول الرجل: اجهد جهدك واحمد جهدك، كل ذلك على الوعيد، وقد تقول العرب للرجل: اذهب اقتل فلانا واضربه بالسيف، على جهة الوعيد، وهم لا يجبون قتله ولا ضربه، ولا يريدون ذلك من الذي أمره به، كقول أمير المؤمنين صلوات الله عليه لطلحة والزبير يوم عاتباه ثم أدبراه عنه: اذهب

(١) في الموسوعة: قراد بن حنش الصاردي، شاعر جاهلي من شعراء غطفان، وكانت غطفان تأخذ شعره وتدعيه الزهير بن أبي سلمى.

(٢) في الأم: الآية هكذا: ﴿ومن أهل الكتاب من أن تأمنه بدينار﴾، ولقد دمج بين أول الآية ووسطها.

فأخرجها. يعني عائشة، وهو لا يريد أن يخرجها من منزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا أن يخرجها تخاربه، وهذا في اللغة كثير معروف.

وأما ما سألت عنه من مشاركته لهم في الأموال والأولاد، فإن ذلك ليس كشركة الأدميين، إنما ذلك كنحو قول السحرة لفرعون، ﴿أَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢] أي: اصنع ما أنت صانع، كل ذلك على الوعيد، وأما شركته في الأموال فهو أن تؤخذ بغير حقها، وأن يطاع الشيطان فيها، فإذا فعلوا ذلك فقد جعلوا شركاء في أموالهم.

وأما الأولاد فإذا نكحوا الحرام وولدهم من النكاح بهال الحرام، فقد أشركوا الشيطان في ذلك بطاعتهم، فصارت طاعته سببا للشركة في أولادهم.

(٢٥) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]. وقلت: فإن قال لنا قائل: وهل يجوز أن يكون بعضه غير شفاء؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله: إن القرآن شفاء، ومن في هذا الموضع قد تجوز على البعض وعلى الجميع، وذلك موجود في لغة العرب، تقول العرب، هل يجيء لنا من هذا الثوب قميص، أي من الثوب كله لا من بعضه، وكقول الله عز وجل: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾ [البقرة: ١٢٥]. يريد مقام إبراهيم عليه السلام كله لا بعضه، وكقوله عز وجل^(١): يغفر بعضها ويعذب على بعضها. وكقوله عز وجل: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]. يريد: اجتنبوا كل الأوثان، وقوله عز وجل: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. يريد: كلهم. وقال:

(١) قال في الأم: الآية ساقطة في أصل النسخة. أقول: لعلها قوله تعالى: ﴿يغفر لكم من ذنوبكم...﴾.

تَرَاكَ أَمَكْنَةَ إِذَا لَمْ أَرْضُهَا أو تَعْتَلِقُ بَعْضَ النَّفُوسِ حَامِهَا^(١)
فَقَالَ: بَعْضَ النَّفُوسِ، وَإِنَّمَا أَرَادَ النَّفُوسَ كُلَّهَا.
وَقَالَ ذُو الرِّمَّةِ:

تَبَسُّمَنَ عَنِ نَوْرِ الْأَقَاحِي فِي [الشَّيْءِ] بِالضَّحَى

وَقَتَّرَنَ عَنِ أَبْصَارِ مَضْرُوبَةِ كَحْلٍ^(٢) [كَحْلٍ]

فَقَالَ: مِنْ أَبْصَارِهِمْ، وَإِنَّمَا أَرَادَ كُلَّ أَبْصَارِهِمْ، وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ
لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾
[النور: ٣٠]. يريد: يَغْضُوا أَبْصَارَهُمْ كُلَّهَا عَنِ مَحَارِمِ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ.

(٢٦) وَسَأَلَتْ عَنِ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ
فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. وَهُوَ شَيْءٌ قَدْ كَانَ وَفَرَّغَ مِنْهُ؟

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ تَجْعَلُ بَدَلَ يَكُونُ كَانَ
جَائِزًا ذَلِكَ فِي لُغَاتِهَا، أَلَمْ تَسْمَعْ زِيَادَ الْأَعْجَمِ حَيْثُ يَقُولُ:

فَانْضَحَ جَوَانِبَ قَبْرِهِ بِدَمَائِهَا فَلَقَدْ يَكُونُ أَخَادِمَ وَذُبَابِ^(٣)
يريد: فَلَقَدْ كَانَ، لِأَنَّهُ قَدْ مَاتَ.

(١) البيت: للبيد العامري، تقدمت ترجمته.

(٢) في ديوانه كحل، والبيت: لذی الرمة، تقدم ترجمته.

(٣) في ديوانه:

وَانْضَحَ جَوَانِبَ قَبْرِهِ بِدَمَائِهَا فَلَقَدْ يَكُونُ أَخَادِمَ وَذُبَابِ

لِزِيَادِ بْنِ سَلِيحَانَ أَوْ سَلِيمِ الْأَعْجَمِ أَبُو أَمَامَةِ الْعَبْدِيِّ، مِمَّا شَعَرَاءُ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ كَانَتْ فِي لِسَانِهِ عَجْمَةٌ
فَلَقِبَ بِالْأَعْجَمِ.

(٢٧) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ [النساء: ١٤٤]. فقلت: ما هذا السلطان؟

قال أحمد بن يحيى عليها السلام: السلطان هاهنا هو الحجة، والدليل على ذلك قول سليمان للهدد: ﴿ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ [النمل: ٢١].

(٢٨) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ١١٦]. فقلت: إذ تكون لأمر مستقبل، وإنما تكون لأمر قد مضى وفرغ منه؟

قال أحمد بن يحيى عليها السلام: هذا جائز في لغة العرب أن يقول لأمر مستقبل، إذ من ذلك قول أبي النجم الشاعر:

فتسى جزاء الله عنا إذ جرى جنات عدن في العلاي العلا^(١)
فقال: إذ جرى في الأخرى، وهو لم يجز أحدا بعد، فجاز هذا في اللغة، فافهم أعانك الله وأرشدك.

(٢٩) وسألت عن قول الله عز وجل في ابن آدم الذي قتل أخاه قال: ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [المائدة: ٣١]. فقلت: الندم توبة فإله لم يتب عليه وقد ندم؟

قال أحمد بن يحيى عليها السلام: إنه لم يندم على القتل، وإنما كان على ما بلغنا مكث يدور به مائة عام، يحمله لا يدري كيف يواريه، فبعث الله غرابا يبحث في الأرض، فلما رأى الغراب كيف وارى الغراب قال: ﴿ يَتَوَلَّى أَعْرَجْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرَى سَوَاءَ أَخِي ﴾ [المائدة: ٣١]، فكان ندمه على ما حمله طول تلك المدة ولم يدفنه، وحمله مائة سنة.

٣٠) وسألت عن قول الله عز وجل للنبي صلوات الله عليه: ﴿فَاتَّهَمُوا لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. فقلت: وأي تكذيب أشد مما كذبوه صلوات الله عليه؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: إنها عنى تبارك وتعالى أنهم لا يقدرُونَ على تكذيبه بحجة يقهرونه بها، فيلزمه التكذيب.

٣١) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّا أَوْإِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]. فقلت: إن قال لنا قائل: هذا القول يوجب الشك فما الرد عليه؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: هذا على المداراة وحسن المعاملة، كما يقول الرجل لصاحبه: والله إن أحمدا لكاذب، وهذا من إنصاف الكلام، لأن أقيح منه إنا لعلى الهدى وأنتم على الضلال، لأنه قال عز وجل: ﴿وَدَعَا أَذُنَهُمْ﴾ [الأحراب: ٤٨]. فكان هدى لحد الأنصاف وجيل القول.

٣٢) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿يُنَحِّسِرَةُ عَلَىٰ الْعِبَادِ﴾ [يس: ٣٠]. فقلت: هل تكون الحسرة إلا من المخلوقين المتحسرين؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: إنه عز وجل لم يقل: يا حسرتا، وإنما قال: ﴿يُنَحِّسِرَةُ﴾ - بالتثنية - وإذا كانت بالتثنية فإنما تقع الحسرة على العباد في تفریطهم في أمره عز وجل، ومثل ذلك قول العرب للرجل: يا تبا لك، ويا ويلا لك، ويا حسرة لك.

٣٣) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]. فقلت: ما معنى هذا القول؟

قال أحمد بن يحيى عليها السلام: هذا من الكلام الذي يجوز فيه الإضمار، والمعنى فيه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، فأضمر قول الكافرين وقطعه من وسطه، ومثل هذا كثير في القرآن، مثل قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠]. ومثله قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّا قَرَأْنَا مَا أَسْرَتِ بِهِ أَجْبَالُ أَوْ قَطَّعْتَ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ [الرعد: ٣١]. ثم قال: ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]. ولم يذكر جواب ولو أن قرأنا، والمعنى فيه: لكان هذا القرآن، وهذا كثير في القرآن، قال الشاعر:

وإذا ما الظلال كن نعالا واجتلبن الحميم أي اجتلاب^(١)

فقال: وإذا ما الظلال، ولم يذكر بعده خبرا يدل على ما أراد بالظلال، فأضمره وقطعه، وإنما المعنى فيه أنه قال: وإذا ما الظلال قلص ولصق كان الإبل في حرارة تلك الشمس نعالا لهم واستغنوا عن النعال، فافهم هذا الباب، ومن ذلك قول امرئ القيس بن حجر:

لعمرك لو شيء أتنا رسوله سواك ولكن لم يجد لك مدفعا^(٢)
وكان يجب أن يكون لو أتنا رسوله لكان منا كذا وكذا، فأضمره وأجزأه ذلك، وعرفت العرب ما أراد من الإضمار.

(٣٤) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]؟

(١) لم أفق عليه.

(٢) في ديوانه:

وجدك لو شيء أتنا رسوله سواك ولكن لم نجد لك مدفعا

قال أحمد بن يحيى عليه السلام: قد قيل في هذه الآية بوجوه من الكلام منها: أنهم قالوا: أنا أول العابدين لله على الإضمار، وغير ذلك من القول.
وأما أنا فأقول: إن العرب تقول: إن العابد هو المنكر الآنف.
قال الفرزدق يهجو جريرا:

أولئك أكفائي فجنني بمثلهم وأعبد أن يهجا كليب بدارم^(١)
يريد: أي أنكر وآنف أن تهجا بنو كلب ببني دارم قومه.

(٣٥) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿وَرَاءَ الْمُجَرِّمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣] فقلت: كيف ظنوا وقد صح لهم الأمر؟
قال أحمد بن يحيى عليه السلام: إن من الظن ما يكون في لغة العرب يخرج على اليقين.

قال ابن الصمة^(٢):

فقلت لهم ظنوا بألفي مقاتل سراويلهم بالفارسي المسرد^(٣)
يقول: قلت لهم أيقنوا بألفي مقاتل، وهذا جائز في اللغة.

(١) في ديوانه:

أولئك آبائي فجنني بميلهم إذا جمعنا يا جرير المجامع
ولم أجد هذا البيت أولئك أكفائي فجنني... إلخ في ديوان الفرزدق بهذا الشكل وإنما وجدت:
أطنت كلاب اللوم أن لست شامخا قبائل إلا أبني دخان بدارم

(٢) دريد بن الصمة الجشمي البكري، من هوزان شجاع ن الأبطال الشعراء، كان سيد بني جشم، وفارسهم وقائدهم، أدرك الإسلام، ولم يسلم فقتل على دين الجاهلية يوم حنين.

(٣) في ديوانه:

علانية ظنوا بألفي مدجج سرائهم في الفارسي المسرد

(٣٦) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]. فقلت: ما مخرج أكاد؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: ﴿أَكَادُ﴾ تخرج على معنى: أريد. قال الشاعر:

كادت وكدت وتلك خير إرادة لو لا الوشاة بأن يكون جميعاً^(١)
(٣٧) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. فقلت: يجوز أن يخرجوهم من النور وهم لم يكونوا فيه قط؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: هذا كثير في كلام العرب، موجود في لغاتهم، يقول القائل منهم: أخرج فلان ابنه من ميراثه، والرجل حي لم يمت ولم يورث بعد، ولم يكن قد دخل فيه كالدخول الذي يعرف، ونحو قول العرب: اللهم أدخلنا الجنة وأخرجنا من النار، وهم لم يدخلوها قط. وقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢]. يعني: ثم صاروا إلى الله. وكقولهم: ثم ﴿يُرْذَلُ إِلَى آثَالٍ أَسْفَلَ﴾ [النحل: ٧٠، الحج: ٥]. وهو لم يكن فيه قط، حتى بلغ وقته من الكبر والمشيخ.

قال الشاعر:

حتى يعود بسواد القار كاللبن^(٢)
ولم يكن القار البيض قط، فقال: عادة، لجوازه في اللغة.
وسألت عن قوله عز وجل: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسِفُهُمْ﴾ [الأعراف: ٥١]. فقلت: ما معنى ننسافهم والله تبارك وتعالى لا يجوز عليه النسيان؟

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: هذا يعني به الترك متعمداً، وذلك كقوله عز وجل: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]. إنها هو تركوا أمر الله فتركهم، فلو كان ذلك منهم نسيانا على الحقيقة ما أخذهم بالنسيان.

(٣٨) وسألت عن قوله تبارك وتعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦]. فقلت: ما معنى هذا القول؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: معناه: لا تضلوا، وهذا كثير في كلام العرب.
قال عمرو بن كلثوم:

نزلتم منزل الأضياف منا فعجلنا القرى أن تشتمونا^(١)
يريد: أن لا تشتمونا.

وقال راعي الإبل النميري^(٢):

أزمان قومي والجماعة كالذي لزم الرحالة أن تميل ميلا
يريد: أن لا تميل.

وقال قيس بن زهير العبسي:

رأيتك إن لاقى بنوك معاشرنا نزال يد في فضل قعب ومزود^(٣)
يريد: أن لا يزال يدا، فافهم ذلك إن شاء الله.

(١) ورد في ديوانه بهذا اللفظ:

نزلتم منزل الأضياف منا فأعجلنا القرى أن تشتمونا

(٢) عبيد بن حصين بن معاوية بن جندل النميري أبو جندل، عاصر جريراً والفرزدق، وكان يفضل الفرزدق.

(٣) لم أفق عليه.

(٣٩) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِمَّنْ أَمَرِ اللَّهُ﴾ [الرعد: ١١]. وقلت: هل يكون من الله جل ثناؤه حافظ ودافع؟

قال أحمد بن يحيى عليها السلام: المعنى في هذا أن يحفظونه بأمر الله، وهذا من حروف الصفات التي يعقب بعضها بعضا، قال الشاعر:

إذا رضيت علي بنو قشير لعمر الله أعجبي رضاها^(١)
يريد: رضيت عني.

وقال النابغة الذبياني^(٢):

فلا تتركني بالوعيد كأنني إلى الناس مطلي به القار أجرب
يريد: لا تتركني في الناس، فقامت إلى مقام في، مثل قوله: ﴿فِي جُدُوعِ النَّبْلِ﴾ [طه: ٧١]، فافهم ذلك إن شاء الله.

(٤٠) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٦] فقلت: ما مخرج ذلك في العدل؟ أ

قال أحمد بن يحيى عليها السلام: هذا من الكلام الذي ذكرت لك أنه يضم في لغة العرب، وإنما المعنى: إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها بأمر فتركوه وفسقوا فيها، وهذا كثير من لغة العرب، وفي كتاب الله عز وجل من هذا كثير أيضا.

ألا تسمع إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ

(١) لم أقف عليه.

(٢) زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المصري أبو أامة، شاعر جاهلي، كانت تضرب له قبة من جلد أحمر في سوق عكاظ.

حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ [النور: ١٠]، فأضمر، والمعنى فيه: كان كذا وكذا، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَن قُرْءَانًا سُورَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ - ثم أضمر فقال -: بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴿٣١﴾ [الرعد: ٣١]. والمعنى فيه لكان هذا القرآن، وإنما نزل عليهم بلسانهم الذي يعرفون ولا ينكرون.

وقال النابغة الذبياني:

وكيف تواصل من أصبحت أمانته كأني مرحب^(١)
يريد: كأمانة إني مرحب، فأضمر.
وقال آخر^(٢):

فإن المنية من يخشها فسوف يصادفها أينما
فأضمر، وإنما أراد أينما كان من الدنيا أدركته المنية فأضمر، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَالْمَلَكُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]. ثم أضمر، وفي الأرض اليهود والنصارى وعبداء الأوثان والدهرية وأصحاب النور والظلمة والزنادقة وعباد الله ده وغير ذلك، وإنما المعنى فيه

(١) في ديوانه:

وكيف تواصل من أصبحت خلانته كأبي مرحب

البيت للنابغة الجعدي قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة الجعدي العامري أبو ليلى، شاعر مغلق، صحابي من المعمرين، اشتهر في الجاهلية وسمي النابغة، لأنه أقام ثلاثين سنة لا يقول الشعر ثم نبغ فقال، وقد على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأسلم، وأدرك صفين فشهدا مع علي عليه السلام ثم سكن الكوفة.

(٢) البيت للنمر بن تولب بن زهير راقش، شاعر جاهلي، أدرك الإسلام وهو كبير فأسلم، وعُدَّ من الصحابة، وروى حديثاً عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، توفي في آخر خلافة أبي بكر.

ويستغفرون لمن في الأرض من المؤمنين خاصة دون غيرهم، وتقول العرب: أما والله يا فلان لولا لعلمت كيف يكون، فيجزي ذلك، ويعلمون أنه من طريق الوعيد، فإنه لولا كذا لعلمت كيف يكون حالك، فافهم هذا الباب إن شاء الله.

(٤١) وسألت عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. فقلت: ما معنى هذا في العدل؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: تبلوكم بالشر نهيًا عنه، وبالخير أمراً به، والبلوى امتحان، والفتنة تخرج في كتاب الله جل ثناؤه على عشرة وجوه في القرآن:

الوجه الأول: من الفتنة يعني به الشرك، وذلك قوله: ﴿قَتَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، نظيرها في الأنفال حيث يقول: ﴿قَتَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾. يقول حتى لا يكون شرك ويكون الدين كله لله، وقال سبحانه في البقرة: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. يعني الشرك بالله أعظم جرماً عند الله من القتل في الشهر الحرام، ونحوه كثير.

والوجه الثاني: فتنة يعني بها الكفر، وذلك قوله عز وجل في آل عمران: ﴿أَبْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ [آل عمران: ٧]. يعني الكفر، وكقوله سبحانه: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩]. يعني: الكفر، وكقوله تبارك اسمه في سورة النور: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور: ٦٣]. يعني: كفراً، وكقوله عز وجل في سورة الحديد: ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحديد: ١٤]. يقول: كفرتم وشبهتم على أنفسكم، وكذلك كل فتنة في المنافقين واليهود.

الوجه الثالث: يعني به بلاء، وهو المحنة، فذلك قوله تبارك وتعالى في العنكبوت: ﴿الْعَمَلُ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] ولقد

فَقَتْنَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿[المنكوت: ١- ٣]﴾. يعني ولقد ابتلينا الذين من قبلهم.

وقال لموسى صلى الله عليه: ﴿وَقَتْنَا قَتُونًا﴾ [طه: ٤٠]. يعني ابتليناك، لأن الله عز وجل لا يفتن نبيه، وإنما يريد بالفتنة للنبي صلى الله عليه: المحنة.

وفي حم الدخان ﴿وَلَقَدْ قَتْنَا قَبْلَهُمْ﴾ [الدخان: ١٧]^(١). يعني ولقد امتحنا الذين من قبلهم، يعني قوم فرعون.

والوجه الرابع: يعني به: العذاب، وذلك قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [المنكوت: ١٠] في الآخرة. نزلت في عباس بن ربيعة أخي أبي جهل لعنه الله، الآية نظيرها في النحل حيث يقول: ﴿ثُمَّ رَأَيْتُكَ لِلدِّينِ هَاجِرًا مِنْ بَعْدِ مَا فِتْنُوا﴾ [النحل: ١١٠]. يعني من بعد ما عذبوا في الدنيا.

والوجه الخامس: يعني به: الإحراق بالنار في الدنيا، فذلك قوله في السماء ذات البروج: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [البروج: ١٠]. يعني: الذين حرقوا المؤمنين والمؤمنات في الدنيا.

وقال في سورة الذاريات: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣]. يعني: يعذبون ويحرقون بالنار في الآخرة، ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: ١٤]. يعني: حريقكم بالنار، والآخرة ليس فيها فتن مثل فتن الدنيا، وهذا دليل لمن عقل.

والوجه السادس من الفتنة: يعني به القتل، وذلك قوله سبحانه في سورة النساء: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يُفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: ١٠١]. يقول: إن خفتم أن يقتلكم الذين كفروا، وكقوله في سورة يونس صلى الله عليه: ﴿عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: ٨٣]. أي: يقتلهم.

(١) في الأم: الآية هكذا: ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم﴾.

والوجه السابع من الفتنة: الصد، وذلك قوله في سورة المائدة: ﴿وَأَحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ﴾ [المائدة: ٤٩]. يقول أن يصدوك عن بعض ما أنزل الله إليك.

وقال في سورة بني إسرائيل: ﴿وَإِنْ كَذَبُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيتَنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٧٣]. يعني: ليصدونك.

والوجه الثامن من الفتنة: يعني به: الضلالة، فذلك قوله عز وجل في سورة الصافات: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الصافات: ١٦١-١٦٢]. يعني: ما أنتم عليه بمضلين من أحد ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِي الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ [الصافات: ١٦٣]. يعني إلا من عمل عملاً يصلى به الجحيم.

وقال في سورة المائدة: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١]. والله عز وجل لا يضل به إلا من استحق الضلالة، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة: ٢٦]. وقوله: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. ويخرج الضلال على الحكم والتسمية، لا على الجبر والقسر.

والوجه التاسع من الفتنة: يعني به: المعذرة، وذلك قوله عز وجل في سورة الأنعام: ﴿لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٣]. يعني: ثم لم تكن معذرتهم، إلا أن قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين.

والوجه العاشر من الفتنة: قوله عز وجل في الأعراف: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. يقول: إن هي إلا محتك.

(٤٢) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٣]. يقول: لا سبيل إلا على الظالمين، وقلت: ما العدوان؟

قال أحد بن يحيى عليها السلام: العدوان على وجهين في القرآن:

فالوجه الأول: قوله سبحانه: ﴿لَا عُذْوَنَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ١٠٠٠ يقول: لا سبيل إلا على الظالمين.

والوجه الآخر: كقول موسى صلوات الله عليه في سورة القصص: ﴿أَيُّمًا
الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُذْوَنَ عَلَيَّ﴾ [القصص: ٢٨]. يقول: فلا حجة عليّ.
وسألت ما الرد على من زعم أن القاتل لو لم يقتل المقتول لمات في تلك الساعة
بعينها؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: لهذه المسألة جوابات كثيرة يجزي منها ما
سنذكره إن شاء الله تعالى، فنقول: لو كان كل مقتول يقتل لو لم يقتل لمات في ذلك
الوقت ولم يعيش طرفه عين، لكان على قَوْد قولكم أن من قصد إلى أنعام قوم من بقر
وإبل وغنم فذبحها عن آخرها، أنه على نحو قولكم لا يجب عليه لوم ولا ذم ولا
غرامة، بل يجب أن يُشكر ويُحمد ويُحسن مكافأته والثناء عليه، لأنه لو لم يذبحها
لمات كلها على زعمكم، وكان أهلها لا يتفعون بشيء منها لا بلحم ولا بجلد،
وهذا القول خارج عن حكم الإسلام، ومفارق لما جاء به محمد عليه السلام.

ومن الحجة على من قال: إنه لو لم يقتل لمات، وإن من قتل إنما قتل بأجله، وأنه
لم يكن ليجوز ذلك الذي قتل فيه، لأن قتله موته الذي حكم الله به عليه.

فيقال لمن قال هذا القول: ما تقول فيمن يقتل رجلاً هل يقتل به أم لا؟

فإن قال: يقتل به، فقد جورَّ الله سبحانه في فعله، لأنه حكم عليه بالقتل وجعله
له موتاً، فلم يكن هذا القاتل ليقدّر أن يخرج مما جعل الله وحكم به عليه، فإذا حكم
عليه بأمر وعذبه فيه فقد ظلمه، وعزَّ الله سبحانه عن ذلك وجلَّ عن ظلم العباد، أو
أن يأمر بأمر ويعاقب عليه، وأن يرضى ما يسخط أو يسخط ما يرضى، والقاتل بهذا
لا يرضى لنفسه لو كان له عبد فأمره بأمر فلما أنفذه عاقبه عليه، لكان ذلك ظلماً
وعدواناً ولنفاه عن نفسه، ولما أذن أنطق لسانه أن ينسب الظلم إلى من هو فوقه من

بخافه، كيف يقول بذلك قائل، أو يتكلم به متكلم؟ والله عز وجل ينفي ذلك عنه ويقول: ﴿الْأَنفُسَ بِالنَّفْسِ... وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥^(١)]، ويقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣]، ويقول عز وجل: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، وقوله: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِرِوْلَيْهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣]. وإنما السلطان الذي جعله الله للولي أن يقتل قاتله، وكيف يقتل رجل من قتل أخاه والله حكم بذلك عليه، وجعله له موتاً، هذا قول فاسد مدخول، لا يقول به مؤمن، ولا يتكلم به عاقل ولا عالم، لأنه يلزم من قال هذا، الظلم لله سبحانه والتجوير والتكذيب لكتابه، وعز الله وجل عن ذلك.

ومن الحجة في ذلك قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]. فأوجب عليهم العذاب في فعلهم، ولو كان فعلهم هو الموت الذي أراد أن يجعله بأيديهم، لما عذبهم فيما حكم به عليهم، لأنه يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]. فنفى الظلم من نفسه، وأعلمنا أن الظلم من العباد لأنفسهم، بارتكابهم لما نهاهم عنه وحذرهم إياه، ومن جور الله سبحانه في فعله، وقال عليه بما هو نفاه عن نفسه، فقد كفر واستوجب بكذبه النار وساء مصيراً، وهذه الحجج من كتاب الله سبحانه، وعن رسوله صو، وعلى ما يطول شرحه ويكثر ذكره، وفي أقل مما ذكرنا كفاية، والله الحمد كثيراً كما هو أهله ومستحقه.

(١) كمال الآية: ﴿... وَالْعَيْنَ بِالْأَنْفِ وَالْأَنْفَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ...﴾.

(٤٣) وسألت فقلت: ما معنى خلق الحية والعقرب وفيها الضرر على الناس، وكان أولى في الحكمة وأقرب إلى الرحمة أن لا يخلق من هذه الضارة لبني آدم ما يضرهم؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: إن من عدل الله سبحانه ورحمته وحكمته خلق الحيات والعقارب، لأن فيها من التذكرة والتخويف لما هو أشد منها من عذاب جهنم المقيم، ما جعل فيه حذرا وزجرا عن الاقتحام على المعاصي، ولولا ذلك أيضا ما درى الناس فضل العافية على البلاء، ولا السلامة على الشقاء، ولا عرفوا الفرق بين النعمة والنقمة، وفي ألم ذلك السم وشدة حريقه من التحذير للعباد ما يورث المنفعة والتوبة، والكف عن الإقدام على ما يسخط الله عز وجل، وإنما هو حريق ساعة ثم يموت أو يسلم، فكيف بالعذاب الدائم الذي أعد الله عز وجل لمن عاداه وعَدَّ من أمره؟! فالمصاب بالسم يعتبر، والناظر إليه يعتبر، كل ذلك حكمة ورحمة، فافهم ذلك إن شاء الله.

وقولك: لم يخلق الله الحية والعقارب وفيها من الأذى ما قد سميت؟! والله عز وجل يخلق ما يشاء، وليس لأحد أن يقول: لم يخلق الله ما يضر، والله عز وجل ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وخلق كل حكمة، وفي خلقه دلائل وعبرة، نسأل الله لنا ولك الهداية بمنه ورحمته.

(٤٤) وسألت عن قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩] ^(١) الآية؟ قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: الجواب في ذلك أنهم كانوا عميا عن

(١) كمال الآية: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

الحق، صما عن استماعه، من غير عمى ولا صمم كان بهم، والعرب تكلم بهذا في قولها، من ذلك أن الرجل إذا كلم رجلا فلم يرفع لكلامه رأسا، قال: أنت أصم عن قولي، وأعمى عما أريد منك.

قال الشاعر في نحو ذلك:

أعمى إذا ما جارتني خرجت حتى يوارى جارتني الستر
وأصم عما كان بينهما وسمعي وليس يحويه وقر^(١)
وفي هذا البيت الآخر إضمار أيضا فافهم.

الآن ترى كيف قال: وأصم عما كان بينهما، ولم يذكر اثنين، وإنما ذكر جارة واحدة ثم قال: بينهما، فصارا اثنين، وذلك أنه أرادها وزوجها فأضمر الزوج، وهذا ليس من مسألتك، ولكن زدناك حجة في الإضمار، فاعلم ذلك إن شاء الله.

(٤٥) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة: ٢٣٥]؟

قال أحمد بن يحيى عليه السلام: السر في لغة العرب هو: النكاح، معروف عندهم غير منكر، قال أعشى بني قيس:

فَلَا تَدُنُونُ مَنْ حَرَّةٍ إِنْ سَرَهَا عليك حرام فانكحن أو تأبدا^(٢)
والتأبيد: ترك النكاح، مشتق من التوحش.

(١) لم أقف عليه.

(٢) البيت للأعشى ميمون بن قيس بن جندل، من بني قيس، من شعراء الطبقة الأولى، ومن أصحاب المعلقات، عاش عمرا طويلا وأدرك الإسلام ولم يسلم، ولقب بالأعشى لضعف بصره، وعمي في آواخر عمره. ورد في الديوان هكذا:

ولا تقرين جارة إن سرها عليك حرام فانكحن وتأبدا

والدليل على ذلك قول لييد بن ربيعة الكلابي حيث يقول:

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها
والتأبد عنهم معروف غير منكر، وجماعة الوحش الأوابد.
وقال امرؤ القيس الكندي:

ألا زعمت بسباسة اليوم أنسي كدت وأن لا يحسن السر- أمشالي^(١)

(٤٦) وسألت عن الطاغوت ومعانيه فقلت: نحن نجد الطاغوت في القرآن مرة
مذكرا، ومرة مؤنثا، ومرة جماعة، فما معنى ذلك - أَعْلَى الله ذكرك - ؟

قال أحمد بن يحيى عليها السلام: تفسير الطاغوت على ثلاثة أوجه في القرآن:

الوجه الأول من الطاغوت: يعني به الشيطان، فذلك قوله في سورة البقرة:
﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. يعني به الشيطان، نظيرها
في سورة النساء حيث يقول: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾
[النساء: ٧٦]. يعني: في طاعة الشيطان، فهذا مذكر.

والوجه الثاني من الطاغوت: يعني به الأوثان، فذلك قوله في سورة الزمر
يقول: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ [الزمر: ١٧]. يعني: والذين اجتنبوا
عبادة الأوثان، فجماعة الأصنام مؤنثة.

والوجه الثالث من الطاغوت: فقد جاء في الرواية أنه يعني به كعب بن
الأشرف اليهودي الذي قتله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فذلك قوله في
سورة البقرة: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى

(١) ورد في الديوان هكذا:

ألا زعمت بسباسة اليوم أنسي كبرت وأن لا يحسن اللهو أمشالي

أَلْقَلُمْنَتْ ﴿البقرة: ٢٥٧﴾. فهذا جماعة، فافهم ذلك إن شاء الله.

(٤٧) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ أَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ ﴿٦٧﴾. فقلت: كيف خاف صلوات الله عليه في ذلك المقام العظيم، وقد علم

أن الله عز وجل لا يخذله فيه، وهو ولي الله ورسوله صلى الله عليه؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: إنما تَخَوَّفَ موسى صلى الله عليه على قومه أن يفتنوا لما عاينوا من فعل السحرة، أو أن يسبق إلى قلوبهم أن حركة الحبال والعصي على حقيقته، إذ ليس لهم مثل بصيرة موسى صلى الله عليه.

فأما هو صلوات الله عليه فقد كان واثقا عالما أن الله جل ثناؤه لا يخذله ولا يشمت به، وأن أعداءه لا يظهرون عليه في ذلك المقام الشريف.

(٤٨) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿بَلْ مَكْرٌ أَتَيْلٍ وَالنَّهَارِ﴾ [سبا: ٣٣].

فقلت: كيف مكر الليل والنهار، وهل لهما مكر؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: إنما عنى تبارك وتعالى: مكرهم بالليل والنهار الذي حاق بهم، ولو كان مكر الليل والنهار الذي حاق بهم بأنفسهما، لم يجر في العدل أن يؤاخذهم بفعل غيرهم، وهذا جائز في لغة العرب، يقول الرجل: أَكُلُ الليل يضرني، وشرب الليل يتعبني، وسهر الليل يُعْنِي.

وإنما المعنى في ذلك كله أنه يقول: أكل بالليل وشربي وسهري، لا أن لليل فعلا يطالب به الآدمي. قالت خنساء الأسلمية تذكر ناقة فقدت ولدها، وأن جزعها على أخيها صخر كجزع الناقة على ولدها:

ترعا إذا نسيت حتى إذا ذكرت فلإنها هي إقبال وإدبار^(١)

(١) ورد في الديوان هكذا:

ترتع ما رمت حتى إذا ذكرت فلإنها هي إقبال وإدبار

تقول: إنما الناقة مقبلة ومدبرة، فصيرتها إقبالا وإدبارا.

ومثله قول أعشى بكر:

حيّاك في الصيف في نعمة تصان الجلال وتعطي الشعير^(١)

يريد: تصان بالجلال فأضمره.

٤٩) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل

عمران: ٧٧]. فقلت: ما معنى النظر في هذا الموضع؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: النظر على ثلاثة أوجه:

نظر البصر، وذلك لا يجوز على الله تبارك وتعالى.

ونظر العلم والذكر.

ونظر العطف، كقول الرجل للرجل: انظر إلي نظر الله إليك، أي: أحسن إلي

أحسن الله إليك.

ونظر العلم فهو ما يكون من العلوم، مثل نظر العين والذكر، فيقول: ذكرني

فلان بخير، أي: أحسن بي النظر، وانظر إلي نظر الله إليك، أي: بخير مثله، ويقول

الرجل لصاحبه: لا يسمع الله لك، والله عز وجل يسمع، وإنما يعني به الداعي لا

استجاب له دعاء، وكذلك قوله: سمع الله لمن حمده، والله عز وجل يسمع من حمده،

ومن لم يحمده، قال الشاعر:

دعوت الله حتى خفت أن لا يكون الله يسمع ما أقول^(٢)

(١) ورد في الديوان هكذا:

جيداك في الصيف في نعمة تصان الجلال وتعطي الشعير

(٢) لم أقف عليه.

يعني: أن لا يستجيب لي دعائي.

(٥٠) وسألت عن الكبائر التي توجب النار؟

قال أحمد بن يحيى رضي الله عنه: في كتاب الله تبارك وتعالى أربع عشرة كبيرة، من أتى واحدة منها ثم مات غير تائب دخل النار، فأولهن الشرك بالله عز وجل، وذلك قوله عز وجل في سورة الحج: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

والثانية: أكل أموال اليتامى ظلماً، وذلك قوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

والثالثة: أكل الربا، قال الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

والرابعة: قذف المحصنات، وذلك قوله عز وجل في سورة النور: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

والخامسة: الفرار من الزحف، وذلك قوله عز وجل في سورة الأنفال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا رَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥] إلى آخر الآية.

والسادسة: التغرب بعد الهجرة، وذلك قوله سبحانه في سورة محمد صلى الله عليه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥].

والسابعة: قتل المؤمن، وذلك قوله عز وجل في سورة النساء: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

والثامنة: عقوق الوالدين، وذلك قوله سبحانه في سورة بني إسرائيل: ﴿وَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. ثم ذكر بعد ذلك في سورة الأنعام، وذلك قوله عز وجل: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١].

والتاسعة: استغناء الرجال بالرجال، وذلك قوله تبارك وتعالى في الشفاء على نبيه لوط صلى الله عليه، وذكر قومه في سورة الشعراء حيث يقول: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦]. ثم ذكر ما نزل بهم في سورة هود صلى الله عليه، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَأَنْظَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سَجِيلٍ مَنْصُودٍ﴾ [هود: ٨٢].

والعاشرة: الزنا، وذلك قوله في سورة بني إسرائيل: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

والحادية عشرة: شهادة الزور، وذلك قوله سبحانه في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

والثانية عشر: كتمان الشهادة، وذلك قوله عز وجل في سورة البقرة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠].

والثالثة عشرة: الفساد في الأرض، وذلك قوله تبارك وتعالى في سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

والرابعة عشرة: أذى المؤمنين، وذلك قوله سبحانه في سورة الأحزاب: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

(٥١) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿فَاقِمْ لَوْنَهَا﴾ [البقرة: ٦٩]. فقلت: ما الفاقع في الكلام؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: الفاقع في لغة العرب: الشديد الصفرة، تقول العرب: أصفر فاقع، وأبيض يقق، ولحق أيضا، وأخضر ضر ونضر، وأحمر قاني وناص، وأسود حالك وحابك، معروف كل ذلك في اللغة غير مستنكر، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٩].

وسألت ما الدليل على أن الله تبارك وتعالى لم يخلق أفعال العباد، وأن فعل العباد غير مخلوق من رب العالمين؟

قال أحمد بن يحيى عليها السلام: الدليل على ذلك من كتاب الله سبحانه، ومن الاحتجاج بالحق الواضح الثابت في العقول، من ذلك قوله عز جل: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]. فلما كان ظلم العباد ليس بمقتن علمنا أنه ليس من صنعه، وقوله عز وجل: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [٢١].

[المائدة: ١٠٣]. ونحن نعلم أن الله عز وجل خلق الأنعام، وإنها نفى عن نفسه جَعَلَ ما جعلوه، والشق الذي جعلوه في آذان الأنعام، فعلمنا أن الذي نفاء الله عن نفسه هو كفر العباد.

وقال عز وجل: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَوتٍ﴾ [الملك: ٣]. فلما كان الكفر متفاوتا متناقضا، علمنا أن الكفر ليس من خلقه، وقال عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلَ أَرْوَاجَكُمْ الَّتِي يَظْهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمُحْسِنَكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]. وقال عز وجل: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٣]. فهو عز وجل لم يبرأ من خلقهم، ولا من موتهم ولا من حياتهم، وإنها برئ من فعلهم، وفي هذا الباب أدلة كثيرة يطول بها الشرح، وفيها ذكرنا لك كفاية إن شاء الله.

(٥٢) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾ [آل عمران: ٢٨]. وقلت: إنها النفس تكون للمخلوقين؟

قال أحمد بن يحيى عليها السلام: معنى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾ يعني: إياه، وذلك موجود في لغة العرب، يقول الرجل: نزلت في نفس الجبل، أي: في الجبل، وفي نفس الوادي، وليس للوادي نفس ولا للجبل، وتقول أيضا: هذا نفس الخبر وليس للخبر نفس، وكذلك ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، يقول: تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما عندك، وقال الأعشى البكري في نحو ذلك:

يوماً بأجودنا بلا منة إذا نفس البخل تجهجت بسؤالها^(١)

(١) ورد في الديوان هكذا:

يوماً بأجودنا بلا منه إذ نفس البخل تجهجت سؤالها

والنفس لا تجهم السؤال، وإنما المتجهم الرجل، لأنه يدعي أن البخيل يتجهم بسؤاله.

٥٣) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿البقرة: ٨٨﴾. وقلت: كيف مخرج هذا القول حيث قال: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٣﴾. وهم لا إيمان لهم من الأصل وقد صيّر قليلًا؟

قال أحمد بن يحيى عليها السلام: يجوز ذلك، على نحو قولك للرجل الذي تخاطبه وهو لا خير عنده البتة: ما أقل خيرك!! جائز في اللغة، وكقولك: ما أقل راحة أهل النار، يريد: لا راحة لهم البتة، وكقولك: ما أقل الناس في بلد كذا وكذا، وهي بلد ليس بها إنسان واحد.

وقال عمرو بن معدى كرب في نحو ذلك:

وكم من غائط من دون سلمى قليل الإنس ليس به كتيع^(١)
فقال: قليل الإنس، فنسبه إلى القلة، ثم قال: ليس به كتيع، يعني: ليس به إنسان واحد.

ومن قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث ابن مسعود ليلة وفد الجن: «لو أطاعوا عليا لدخلوا الجنة أجمعين أكتعين»^(٢). وقالوا: يعني بأكتعين: أنه لا يتغادر منهم صغير ولا كبير، ذكر ولا أنثى.

(١) ورد في الديوان هكذا:

فكم من غائط من دون سلمى قليل الإنس ليس به كتيع

(٢) أخرجه الكوفي في مناقبه ٢ / ٥٨٢ (١٠٩٤)، وابن عساكر في ترجمة الإمام علي من تاريخ دمشق، برقم (٣٤٣).

(٥٤) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿سَاصْرِفْ عَنْ عَائِنَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]. والآيات فدلالة وهدى ونور، فكيف جاز أن يصرف الله تبارك وتعالى عن آياته الخلق وهو الذي دعاهم إليها وإلى قبولها؟!

قال أحمد بن يحيى عليها السلام: ليس المعنى حيث ذهبت، ولا كما توهمت من أنه عز وجل يصرف عن آياته عباده، من طريق الصد والصرف عن اتباعها، وإنما المعنيك أنه جل ثناؤه يصرف أعداءه والمفسدين في أرضه عن إبطال آياته وإفسادها، وإدخال العيب فيها، بما أظهر من دلائلها وعجائبها وحججها ونورها وبراهينها العظيمة، كنحو قولك للرجل: سأمنعك من فلان أي: أمنعك من أذاه وإدخال المكروه عليه، وذلك جائز في اللغة.

(٥٥) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤]. وقلت: كيف مخرج التزيين هاهنا؟ قال أحمد بن يحيى عليها السلام: هذه المسألة تخرج على وجهين، وكلاهما حسن. أما أحدهما فإنه يقول: زيننا لهم أعمالهم من الطاعات، فتركوها فهم يعمهون.

وأما الوجه الآخر فإنه يجوز على الإمهال كنحو ما تقول العرب: أنا الذي زينت لك عملك، وأنا الذي أفسدتك، وهو لم يزين له عمله ولم يفسده، ولكنه أمهله ولم يغير عليه ولم يمنعه، فكان تركه له وإمهاله إياه مزينا له فعملهم إذ لم يَحُلْ بينه وبينه ولم يمنعه، ولو منعه لم يكن من ذلك شيء، فإنه عز وجل لم يقسر العباد على الطاعة قسرا، ولم يمنعه من المعصية جبرا، ولو فعل ذلك سبحانه ما جاز أحد أمره، ولكنه أمر بتحذير، ونهى بتحذير، فلم يطع مكرها ولم يعص مغلوبا ﴿لَيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [٢٢٤].

[الأنفال: ٤٢]. وإنما مخرج ﴿رَبَّنَا﴾ على مجاز الكلام، وقال جل ثناؤه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ إِلَيَّ مَنْ وَرَيْتُهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]. يعني بالتحبيب والتكريه: الأمر والنهي، وما وعد وأعد من الجنة والنار، لا جبرا على طاعته ولا على معصيته، عز الله عن ذلك وتعالى علوا كبيرا.

٥٦) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَذِّنْ مُّؤَذِّنٌ أَلْعَبُ إِلَيْكُمْ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] وقلت: كيف جاز ليوسف صلى الله عليه أن يرمي بالسرقة من قد علم أنه لم يسرق صواغه؟

قال أحمد بن يحيى عليه السلام: قد قيل في هذه المسألة بجوابات كلها تجوز في لغة العرب، وثبت العدل والبراءة ليوسف صلى الله عليه من الظلم والإثم، من ذلك ما أنا ذاكره فافهمه إن شاء الله.

أما الوجه الأول فقالوا: إنه يجوز أن يكون المنادي نادى بغير أمر يوسف صلى الله عليه، فحكى الله عز وجل عن المنادي.

وإما أن يكون أمر بوضع الصواع في الرحل بغير علم المنادي الذي ناداهم بالسرقة، فلا يكون المنادي تعمد كذبا، وذكر عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أن يوسف صلوات الله عليه أمر المنادي بذلك، وأضمر في نفسه إنكم لسارقون لي سرقتموني من أبي وطرحتوني في الحب^(١). وهذا حسن.

وقول آخر قال: إن يوسف صلى الله عليه قال هذا على الاستفهام ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] على معنى: ﴿وَذَا الثَّوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ

نَقْدَرُ عَلَيْهِ ﴿[الأنبياء: ٨٧]﴾ على طريق الاستفهام، لأن نبي الله صلى الله عليه لا يظن أن الله عز وجل لا يقدر عليه، والعرب تستفهم بغير ألف في كلامها. قال الشاعر:

لعمرك ما أدري وإن كنت داريا شعيب بن سهم أم شعيب ابن منقر^(١)

يريد: أشعيب بن سهم أم شعيب بن منقر، فكل هذا قد قيل في تفسير هذه الآية، وقول أمير المؤمنين أحسنها عندي وكلها حسن جائز، وقد أعلمتك بها قال أهل العلم فيها، فأفهم ذلك موقفا إن شاء الله.

وإنما أراد يوسف صلى الله عليه بوضع الصواع في رحل أخيه ليأخذه به من أخوته، لأنه لم يكن يمكنه في دين الملك أن يأخذه، والأنبياء صلوات الله عليهم فلا تفعل فعلا إلا بأمر الله عز وجل، وذلك قوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٦]. فكل فعل من ذلك بإذن الله، لأن إذن الله عز وجل هو أمره، فهذا هو الحجة البينة في هذا الباب، وما أمر الله به فلا عيب فيه ولا إثم، ولا كلام لمتكلم، قوله الحق وأمره الصدق، لا إله إلا هو العلي العظيم.

٥٧) وسألت عن الجواب للمجبرة في قولهم: إنه لم يكن بد لقريش من الخروج إلى بدر في حرب رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلم، فإن قال لهم أهل العدل: بلى، قد كان لقريش بد من الخروج لو أرادوا ذلك. قالت المجبرة لأهل العدل: فإذا نلزمكم أن الله يخلف قوله في قولكم، وأنتم تقولون إن الوعد والوعيد شيء لا ينتقض ولا يخلف، فنحن نلزمكم أنه يخلف وعده في قوله للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولأصحابه: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى

الْقَلَّائِفَتَيْنِ ﴿[الأنفال:٧]﴾. وهذه يلزمكم لنا أنه لم يكن بد لقريش من الخروج إلى بدر في حرب رسول الله صلوات الله عليه وعلى آله؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: إن الله تبارك وتعالى إنما أخبر عنهم أنهم يختارون الخروج إلى بدر، وعلم أنهم يفعلون ذلك، وليس علمه بذلك يدخلهم في معصية ولا يخرجهم من طاعة، فأخبر بها يختارون.

والجواب لهم في ذلك أن يقال لهم: أليس قد رويتم في كتبكم وأخباركم أن هذه الآية نزلت في أبي طالب بن عبد المطلب^(١)، حيث قال الله عز وجل: ﴿وَهُمْ يَنْتَهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَقِوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيِّنَا نُرَدُّ وَلَا تُكَذِّبُ بَيَّاتٍ رَيْنَا...﴾ [الأنعام:٢٦ - ٢٧]^(٢) إلى آخر الآية. فقد أخبر الله عز وجل عن أبي طالب، وعن وقوفه على النار كيف يكون، كما رويتم أنتم وغيركم، ثم رويتم أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له عند الموت: «يا عم قل لا إله إلا الله وأقرني رسول الله صلى الله عليه وأضمن لك على الله الجنة»^(٣).

(١) أخرجه الغريابي، وعبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والحاكم، والبيهقي في الدلائل، وابن أبي شيبة. الدر المنثور ٣/ ٢٦٠.

(٢) كمال الآية: ﴿وَنُكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٧﴾.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ج ١/ ص ٤٥٧/ ح ١٢٩، ومسلم في صحيحه ج ١/ ص ٥٤/ ح ٢٤، والنسائي في سننه ج ٤/ ص ٩١/ ح ٢٠٣٥، والترمذي في سننه ج ٥/ ص ٤١/ ح ٣١٨٨، وابن ماجه في سننه ج ١/ ص ٦٧٨/ ح ٢٠٩٧، وابن حنبل في مسنده ج ١/ ص ١٨٣/ ح ١٥٩٠، وابن حبان في صحيحه ج ٣/ ص ٢٦٣/ ح ٩٨٢، والحاكم في مستدركه ج ٢/ ص ٣٦٦/ ح ٣٢٩١، والطبراني في معجمه الكبير ج ٢٠/ ص ٣٤٩/ ح ٨٢٠.

فيقال للمجبرة: فما تقولون لو أسلم أبو طالب في ذلك الوقت، وأجاب النبي صلى الله عليه إلى ما أراد، هل كان ينفعه إسلامه كما قال له رسول الله صلى الله عليه، أو لم يكن ينفعه؟

فإن قالوا: لم يكن ينفعه إسلامه، جَهِلُوا رسول الله صلى الله عليه، وَخَطَّوْا فعله، وأفسدوا ضمانه، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ﴾ [النجم: ٣]، وقال: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وإن قالوا: بل، قد كان ينفعه إسلامه لو أسلم، وجب عليهم أن وعد الله تعالى منتقض، وأن وعده يخلف، لا بد لهم أن يقولوا أحد القولين، وفي ذلك فساد قولهم، وبطلان دعواهم، لأنهم إن زعموا أن قول النبي صلوات الله عليه وضمانه لأبي طالب أمر فاسد لا يصح، خَطَّوْا النبي وكفروا، وإن قالوا: إنه ضمان صحيح بطلت دعواهم في قولهم إن وعد الله يخلف في قول أهل العدل، لقول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]. فهذا هو الجواب، فافهمه وقف عليه إن شاء الله.

٥٨) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الكَيَلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢ - ٢٣]. فقلت: فيقول القائل: وأي مصيبة أعظم من المصيبة في الدين، وإن المصيبة مكتوبة على العباد؟

قال أحمد بن يحيى عليه السلام: لعمرؤ الله إن المصيبة في الدين لأعظم المصائب، ولكن الله عز وجل لم يعن بذلك الضلالة ولا الهدى، فقوله: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ فلو كانت هذه الآية في الأعمال

لم ينبغ للعبد إذا أطاع الله عز وجل وأحسن العمل أن يفرح، ولا إذا عصا أن يحزن، ولكان ذلك منه خطأ وعصيان لله أن يفرح بها أوتي من خير في دينه، وأن يحزن على ما ضيَّع وفاته من دينه، لأن الله في قولهم قد نبى عن ذلك، وإذن لانتقض قوله، واختلف كتابه، وقد قال: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]. وخالفت هذه الآية التي ذكرت هذه الآية التي أنا ذاكرها، حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨]. وقال عز وجل: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة: ٨٢]. وليس وجه هذه الآية التي ذكرت على ما وضعوه عليه هم، إنما عنى الله عز وجل في هذه الآية المصيبات التي يصيب بها عباده في الأنفس والأولاد والأموال والثمرات، وما سخر لهم من الأشياء التي سخرها لهم به أعمالهم قبل نزول المصيبة لهم أن سوف يتليهم، وعلمهم كيف يقولون عند المصيبة إذا نزلت بهم، وما لهم فيها من الأجر إذا صبروا وقالوا القول الذي علمهم، وقال: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧]. يقول سبحانه: إنما علمناكم ما تقولون وبيّنا لكم في ذلك من الأجر والثواب، لكيلا تأسوا عند البلاء على ما فاتكم ولا عند المصيبة تهزعوا، تسلياً لأمر الله تبارك وتعالى، ولو كان الأمر على ما توهموا ما كان ينبغي لمن صلى وصام وحج وجاهد وفعل الخيرات يفرح، ولا لمن زنا وسرق وشرب الخمر وقتل النفس الحرام وعصى الله عز وجل أن يحزن على معصيته، ولكن الناس تركوا الحق وأهله واتبعوا أهواءهم، وقلدوا أمر

دينهم من أضلهم وأغواهم، وقد أمروا فأعرضوا، وزُجروا فلم ينتهوا ﴿وَسَيَعْلَمُ
الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

وأما الكتاب الذي ذكرت هاهنا فهو العلم، لأن الله عز وجل لا يحتاج إلى
الكتاب.

٥٩) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ
مَا كُنْتُمْ قَوْلُوا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٥٠]. فقلت: ما معنى هذا الكلام؟
فإني لا أدري ما معنى الصلاة إلى شطره دون كله، وأي الشطرين أقصد إذا
صليت؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: ليس الأمر على ما توهمت ولا على ما
ظننت، وإنما المعنى في الشطر: الكل، وذلك جائز في لغة العرب، تعني العرب
بالشطر: النحو، فنحو الشيء عندها شطره.

ألا تسمع قول زهير بن أبي سلمى حيث يقول:

وعارض عمه بوارقه شطراه ريح وشطره برد^(١)

يريد: نحوه ريح ونحوه برد، ولو لم يكن على ما ذكرنا لك، لوجب أن أثبت له
ثلاثة شطور، وهذا ما لا يجوز ولا يعقل في عجمية ولا عربية أن يكون للشيء ثلاثة
شطور.

وقال خفاف بن بديه في مثل ذلك:

ألا من مبلغ عمروارسولا وما تغني الرسالة شطر عمر^(٢)

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

يريد: نحو عمر.

وقال لقيط الأيادي^(١):

وقد أظلكم من شطر ثغركم هـول له ظلم تغشاكم قطعاً
يريد: من نحو ثغركم، وهذا معروف في لغة العرب غير منكر ولا مجهول، وإنما
عنى بذلك: البيت الحرام، فأَي جوانبه استقبلت فهو قبلة، وليس من جوانبه جانب
إلا وبصرِك يحيط بجميعه والله الحمد، وإن كان بعضه بين عينيك ليس منه شيء
داخلاً ولا ذاهباً من موضعه، ولو ستر بعضه بعضاً فكله قبله ونور وهداية لمن
اهتدى به، نسأل الله الهداية بمنه وفضله.

٦٠) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ
مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ [البقرة: ١٠٦] قلت: فإن قال القائل: أهو بعض القرآن خير
من بعض ما تقول له؟

قال أحمد بن يحيى عليها السلام: المعنى في ذلك أنه يقول عز وجل خير لكم
فيها تخفيف لكم به خصه، وليس بعضه خير من بعض، بل كله في الفضل والشرف
والقدر عند الله عز وجل سواء.

٦١) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ [القصاص: ٧٦].
قلت: ما معنى هذا، والأنبياء صلوات الله عليهم والأئمة عليهم السلام
والصالحون يفرحون؟!

قال أحمد بن يحيى عليها السلام: إنما عني بالفرح في هذا الموضع البطر والأشر،
وأن يفرحوا ولا يشكروا.

(١) البت لقيط بن يعمر بن خارجه الإباضي، شاعر جاهلي فحل من أهل الحيرة، كان يحسن الفارسية.

(٦٢) وسألت عن قوله عز وجل في قصة قارون: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]. فقلت: كيف جاز أن يوصوه بالدنيا وهم يعظونه، وكان هو أشد في طلب الدنيا، وأحرص عليها منهم، وأشد رغبة فيها؟

قاله أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: إن قومه لم يأمروه بطلب الدنيا والحرص عليها، وإنما ذكروه أنها طريق إلى الآخرة، فأمروه أن لا يذهب عمره في معصية الله عز وجل، لأن الدنيا فيها تكتسب الجنة، وقد سمعت قول أمير المؤمنين صلوات الله عليه حيث سمع الرجل الذي ذم عنده الدنيا، فصرخ به ثم قال: «الدنيا موضع صدق لمن صدقها»^(١)، مع كلام اختصرناه قد سمعته.

(٦٣) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الإعراف: ٥٤]. فقلت: كيف مجاز الاستواء في التوحيد، وما معناه؟

قال أحمد بن يحيى عليها السلام: الاستواء هاهنا هو الاستيلاء، والعرش فهو: الملك، معروف ذلك في لغة العرب وأشعارها، من ذلك قول زهير بن أبي سلمى حيث يقول:

تدار كتما عيسا وقد ثل عرشها وذبيان إذ زلت بأقدامها النعل^(٢)
وفيه شواهد كثيرة، وكلام يطول، ولجدي القاسم بن إبراهيم عليه السلام في العرش والكرسي كتاب بليغ اجترينا [به] عن التطويل في جوابك هذا، فانظر فيه إن شاء الله.

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم/ ١٣١. باختلاف يسير.

(٢) ورد في الديوان هكذا:

تدار كتما الأحلاف قد ثل عرشها وذبيان قد زلت بأقدامها النعل

٦٤) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]. فقلت: ما معنى ذلك؟

قال أحمد بن يحيى عليه السلام: معنى قوله: ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾. يعني: نعمته نعمته في الدين ونعمته في الدنيا، وكذلك قوله: ﴿خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، وقوله: ﴿عَمِلْتُ أَيْدِينَ أَتَعْلَمُ﴾ [يس: ٧١]. يقول: ما توليته بنفسي، والعرب تقول لمن تخاطبه: في عنقك يا فلان لي يد، يعني: نعمة، لا أن في عنقه له يدا لازمة بكف وأصابع، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَنَشِيراً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّهُمْ قَدَّمَ صِدْقِي عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢٢]. فهل يجوز في العقول أن للمؤمنين عند الله عز وجل قدما مطروحة بعقب وأصابع، هذا ما لا يجوز في العقول، ولا يتوهمه مسلم!! وقد قال الشاعر في نحو ذلك:

تحملت من أسما ما ليس لي به ولا للجبال الراسيات يدان^(١)
والجبال ليس لها أيدي، فجاز هذا في لغة العرب، وإنما خاطبهم الله عز وجل بلغتهم التي يعرفون، وإنما جاء الهلاك في الدين والترك للتوحيد من جهل الخلق باللغة العربية.

ألا ترى أن العرب تقول ما زلنا نطأ السماء حتى وصلنا إليكم من مسيرة أيام كثيرة، وهذا الكلام عند من لا يفهمه غير جائز، أن يكون أحد يطأ السماء، وهو عند العرب وأهل المعرفة صحيح جائز، لأنهم يعنون بالسماء هاهنا: الغيث، أي: لم يزلوا يظنونهم حتى بلغوا إلى أصحابهم، وقال الشاعر في نحو ذلك:

(١) لم ألق عليه.

وكان نفحته وطيب نسيمه غب السماء صريمة مقفار^(١)

قال: غب السماء، يعني به: ثانية الغيث، أي اليوم الثاني من الغيث.

وقال الكميت بن زيد الأسدي:

تصل السماء إلى السماء بصوت أسحم ذي زماجر^(٢)

يعني: الغيث، فصيره ساء إلى ساء.

٦٥) وسألت فقلت: كيف الجواب لمن قال: إن الله جل ثناؤه على عرش مثل

السرير؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: نقول لهم: قال الله عز وجل: لَقَدْ كَفَرَ **﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾** لآل عمران: ٤٨١. من احتاج إلى شيء من جميع الأشياء كلها صغيرها وكبيرها، فهو فقير غير غني، فيثبت على من قال إن له عرشا مثل السرير أنه محتاج، ومن زعم أنه محتاج إلى قليل أو كثير فقد أوجب أنه فقير، ولزمه الكفر بقول الله عز وجل: لَقَدْ كَفَرَ: **﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾**. لأن من زعم أن الله عز وجل يشبه خلقه في مجيء أو ذهاب، أو صعود أو نزول، أو حركة أو سكون، أو عرش يستوي عليه كاستواء الملوك على أسرته، أو ملائكة تحمله كما يفعل الناس بحمل بعضهم لبعض، أو أمر من جميع الأمور التي تلزم التشبيه، فقد أوجب أنه فقير، ومن قال بذلك فقد كفر بالله العظيم، والله تبارك وتعالى هو الغني على الحقيقة لا على المجاز، فكل غني وإن عظم غناؤه لم يكن بغني على الحقيقة، وإنما هو غني المجاز، وذلك لو أن رجلا مَلَكَ

(١) لم أنف عليه.

(٢) لم أنف عليه.

الأرض ومن عليها لم يكن بغني، لأن الحاجة والفاقة والعجز والفقر لازم له، وإن مَلَكَ جميع الأرض ومن فيها، لأنه يحتاج إلى الطعام والشراب، والجينة والذهب، والغليظ والثياب، فالفقر له مقارب في جميع الأسباب، والله تبارك وتعالى هو الغني لا يحتاج إلى شيء من جميع الأشياء كلها، وذلك قوله عز وجل: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ [لقمان: ٢٦]. لأنه لا غني إلا هو تبارك اسمه.

٦٦) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧]. فقلت: أرى الجزاء ليس هو إلا للكفور وحده؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: هذا من الإضمار الذي ذكرت لك في القرآن، والمعنى فيه وهل يجازي بالعقوبة إلا الكفور، ومثله من الإضمار ما ذكرت في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠]. يذكر بعده شيئا، والإضمار مشهور في لغة العرب، قد قدمنا ذكره في هذه المسائل بما فيه الكفاية إن شاء الله، ومن ذلك قول الأعشى البكري:

أقول لما جاءني قوله سبحانه من علقمة الفاخر^(١)
يريد: سبحانه الله، فأضمره ولم يذكره.

٦٧) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿وَتُعْزِرُوهُ وَتُقِرُّوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ١]. فقلت: إن قال قائل: كيف يجوز التسبيح للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والتسبيح لا يكون إلا لله جل ثناؤه؟!

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: هذا مستعمل في لغة العرب من قصة

(١) ورد في الديوان هكذا:

أقول لما جاءني فجره سبحانه من علقمة الفاخر

تدخل بين قصتين، قال: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الفتح: ٩]. ثم ندب إلى نصره النبي صلى الله عليه فقال: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾. أي: تنصروه، ﴿وَتَوْفِّرُوهُ﴾ والتوفير لا يخفى على أحد، ثم رجع إلى نفسه تبارك وتعالى فقال: ﴿وَتُسَيِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾. لأنه قال: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ ثم عطف الكلام حتى عاد إلى تسييحه هو عز وجل.

(٦٨) وسألت عن قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]. فقلت: ما معنى التجلي من الله عز وجل؟

قال أحمد بن يحيى عليه السلام: قد قيل فيه بأقوال لا أشك أنك قد عرفتها، وأحسنها عندي ما أنا ذاكره لك، وهو أولى بلغة العرب، وله نظائر من القرآن، فأفهمه ذهنك إن شاء الله.

قال: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ يعني: فلما تجلى ربه بالجبل، أي تجلى لخلقهم الذين كانوا مع موسى صلوات الله عليه بالجبل، يعني أن تجليه بالجبل هو دلالة لهم عليه، فلما أوقع من الآية التي نظروا إليها، فقامت اللام الزائدة مقام الباء، لأن حروف الصفات يعقب بعضها بعضا، والله تبارك وتعالى لا يتجلى للجبل، والله عز وجل لم يغب عن الجبل منذ خلق الجبل، والتجلي يلزم من كان عليه حجاب وستر ثم تجلى عنه ذلك الحجاب، والله عز وجل متقدس متعال عن ذلك!! لأنه شاهد كل نجوى، وحاضر كل ملأ، لا يخلو منه مكان ولا يخفى عليه، والتجلي فقد تعرفه العرب في لغاتها وأشعارها، وأنه يجوز عندها على غير تجلي الرؤية، من ذلك قول الشاعر يصف بعض الملوك، لأنه تجلى لقوم خالفوا أمره، فوجه إليهم عسكرا ولم يبرح هو، قال الشاعر:

تجلى لهم بالمشرفية والقنا وإن كان عمن طعن الأسنة نائياً^(١)
فترى كيف خرج التجلي عند العرب، وكيف جوازه في لغاتهم ومخاطباتهم، وقد
قال عز وجل: ﴿يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١].
فكيف يستوفون الخيرات لو سبقوا الخيرات، لم يكن ذلك لهم بفخر، ولا لهم فيه
مديح، وإنها المعنى فيه: يسارعون في الخيرات وهم بها سابقون، فقامت اللام مقام
الباء. قال الشاعر:

لقد نلت أمراً لم تكن لتناله ولكن لفضل الله ما نلت ذلك^(٢)
يريد: بفضل الله، فأقام اللام مقام الباء، فهذا حجة في حروف الصفات التي
يعقب بعضها بعضاً، وقد جرى في ما سألت عنه نظائر لهذا في جواباتنا هذه، وفيه
لك الكفاية بحول الله وقوته.

وهذا الجواب في هذه الآية: ﴿يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١]، أجاب أبي الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين صلوات الله عليه وعلى
آبائه الطاهرين.

٦٩. وسألت هل يجري على الله عز وجل شيء مما يجري على المخلوقين في بعض
المعاني من قليل أو كثير؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: هذا قول لا يجوز ولا يصح في صفة الله تبارك
وتعالى، لأنه يقول في كتابه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وفي هذه الآية
كفاية، لأن من صفة الخلق أن الله عز وجل جعل منه ساكناً ومتحركاً، وحياً وميتاً،

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

وجمادى وحيوانا، وناطقا وصامتا، وداخلا وخارجا ومنقطععا، وليس يذهب منه شيء إلا فقد ونقص معناه، وليس يجوز على الله جل ثناؤه معنى شيء، وذلك أن جميع ما عددت لك مخلوق، والله عز وجل خلاف ذلك.

ومن الحجة أن الموصوف بتلك الصفة لا يكون فردا أبدا، لأنك تعلم أن الساكن وسكونه، والمتحرك وحركته، والحي وحياته، والميت وموته، والخارج وخروجه، والداخل ودخوله، وعلى مثل ذلك يجري ما ذكرنا لك، والله تبارك وتعالى بريء من شبه ذلك، عز وكرم وتقديس ذو السلطان العظيم.

واعلم أن الله جل ثناؤه خلق الحواس الخمس، وهي السمع والبصر والشم والذوق، واللمس للحر والبارد، واللين والخشن، وما أشبه ذلك مما تدركه الحواس الخمس، ولا يجوز أن يطلق إلى الله عز وجل منهن، لأن السمع إنما سمع صوتا فحدث له منه علم بالأصوات، وكذلك البصر إنما رأى شخصا فحصل له علم الأشخاص، وكذلك الأنف إنما شم ريحا فحدث له علم الأرواح، وكذلك الفم إنما ذاق فحدث له علم بما ذاق من حلو أو مر، وكذلك اليد إنما لمست فحدث له علم بالمحسوسات، والله عز وجل الخالق لذلك كله، والمصور له، والمستغني عنه، والله تبارك وتعالى خلق الإنسان لا يعلم شيئا، حتى إذا استفاد المعارف والعلوم وكل ما وصفنا، وذلك قوله في كتابه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨]. فإذا كان الله عز وجل لا يشبه شيئا من جميع خلقه، فهو من أن يشبه أفعال خلقه أبعد وأجل، فتعالى الله أن يشبه المخلوقين في شيء من جميع المعاني كلها علوا كبيرا.

واعلم أن حجة الله عز وجل قائمة بالتوحيد عن الله سبحانه قبل مجيء الأنبياء وبعد مجيئهم، لأن أنبياء الله صلوات الله عليهم إنما بلغوا التوحيد عن الله على ما

يجوز من الكلام بين الناس، وقد ذكر الله تبارك يدا وسمعا، وبصرا وعينا ووجها، ونفسا وجنبا، وقبضاً وبسطة، ومجينا واستواء على عرش، وإتيانا في ظلل من الغمام، وغير ذلك مما يجوز في اللغة العربية، التي غلط من أهل التشبيه المقصرين في توحيد الله عز وجل، فانظر أنت ذلك إلى مجاز الكلام وكيف مخرجه في اللغة، فاحمل عليه دون التشبيه الذي لا يليق بالآدميين، تُصِبْ رشداً إن شاء الله، ولولا الاجتزاء بما قد ذكره الهادي إلى الحق صلوات الله عليه في هذا المعنى في كتاب المسترشد لشرحناه وبيناه، ولكن لم يترك الهادي صلوات الله عليه لأحد كلاما، مع ما بيّن في كتاب المسترشد والله الحمد والمنة.

(٧٠) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] ؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: إن من زعم أن الله تبارك وتعالى دعا العباد إلى أمر قد حال بينهم وبينه، ونهاهم عما قضاه وقدر عليهم أن يعملوا به، وأراد بذلك المجبر السائل جهله، وأن يزين لنفسه خطاه، ويكابح الحق الذي جاء من عند الله عز وجل صراحا بدعواه، في قول الله جل ثناؤه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. كأنه يرى عند نفسه أن الله تقدس وتعالى قال لنبيه محمد صلوات الله عليه: إن دعائك للعباد وما أرسلناك من البرهان والنور والهدى والبيّنات والآيات الواضحات لا ينفع الناس شيئا، ولكن أنا أقصر عليه من شئت منهم، وليس ذلك كما تألولوه ولا كذلك فعل الله عز وجل، وإنما كان ذلك أن رجلا كان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكان ومنزلة، فحرص عليه أن يسلم فأخبر الله سبحانه نبيه صلوات الله عليه وعلى آله أن حرصك لا يغلب إرادة العبد أن يسلم، فإن أحدا لا يستطيع أن يغلب أحدا على إرادته وهواه إلا الله القوي

القادر الذي يملك تصريف القلوب في الهوى، وبيده النواصي والأقدام، وقال: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩]. أي قسرا وجبرا، وكذلك قوله: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [الأنعام: ٣٥]. وليس من صفته جل ثناؤه أن يجبر أحدا من خلقه على طاعة ولا معصية، حتى يختار كل منهم ما أراد من ذلك لنفسه، وبذلك أنزل الكتب وأرسل الرسل لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

(٧١) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٥]. وقلت: ما معنى ذلك؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: قوله: ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾. يقول: منهم ناج بعلمه سعيد في الجنة، ومنهم شقي بعلمه هالك في النار. وقال عز وجل: ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [آل عمران: ١٨٢، الأنفال: ٥١]. فكيف تكون يدها قدمتا له، وإنما هو أمر قدير عليه زعمت المجبرة! وبطل قوله عندهم ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٣٩]. نعوذ بالله لنا ولك من الجهل في دينه، والمعادنة لكتابه، إنه منان كريم.

(٧٢) وسألت عن قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود: ٣٤]؟

كانهم يرون أن القول على الله عز وجل يريد أن يمنعكم من الإيمان، ومما أمرني أن أدعوكم إليه من الحق، وليس وجه الآية كما ظنت المجبرة، إنما عنى نوح صلوات الله عليه إن كان الله يريد عذابكم فلن ينفعكم نصحي، والعذب فهو النفي.

ألا ترى أن الله سبحانه يقول: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ

وَاتَّبِعُوا الشَّهَرَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ [مريم: ٥٩]. يقول: فسوف يلقون عذابا، وقول إبليس اللعين ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: ١٦]. يقول: فبما جعلتني وحكمت عليّ أني من المعذنين، فالغي عقوبة كما ذكرنا، والغي على وجهين: عقوبة عاجلة.

وعقوبة آجلة.

العاجلة ما أصاب إبليس من اللعنة، وإخراجه مما كان فيه من الكرامة. والآجل قول الله عز وجل: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]. يقول: فسوف يلقون عذابا.

وجواب آخر يقول: إن كان الله يريد أن يغويكم، ولم يقل قد أراد إغواءكم، وإنها قال إن كان على مجاز الكلام، ولم يقل إنه قد فعل، وبهذا أجاب القاسم بن إبراهيم صلوات الله عليه.

(٧٣) وسألت فقلت: ما الدليل على أن الله تبارك وتعالى عدل لا يبور؟

الدليل على أن الله تبارك وتعالى عدل لا يبور: إقرارك أنه غني، لأننا وجدنا الجائز لا يحمله على الجور إلا استجلاب منفعة يجرها إلى نفسه، أو دفع مضرة ينشأها على نفسه، فلما كان الله جل ثناؤه لا يستجر إلى نفسه منفعة، ولا يدفع عنها مضرة، ثبت بالحقيقة أنه غني، وأن الغني عدل لا يبور، وهذه المسألة جواب الهادي إلى الحق صلوات الله عليه. وقولي فيها على قوله.

(٧٤) وسألت عن قوله: ﴿أَرْسَنَهَا﴾ [النازعات: ٣٢] في مواضع من القرآن، فقلت: ما معنى ذلك؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: أرساها على وجهين في القرآن، كل واحد منهما غير صاحبه.

فألوجه الأول: ﴿أَرْسَنَهَا﴾ يعني: أثبتها، فقال في سورة النازعات: ﴿وَأَلْجِبَالَ أَرْسَنَهَا﴾ [النازعات: ٣٢]. يقول أثبتها في الأرض لأن لا تزول بمن عليها، وكقوله: ﴿وَقُدُّوْا رَأْسَيْتَ﴾ [سبا: ١٣]. يعني ثابتات في الأرض.

والوجه الثاني: من ﴿أَرْسَنَهَا﴾ يعني به: حيناً، والحين هو الوقت، فذلك قوله عز وجل: ﴿أَيَّانَ مَرْسَنَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧، النازعات: ٤٢]. يقول مجيئها وقيامها وحينها.

(٧٥) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿رَبِّ أَرْجَعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]. فقلت: كيف جاز أن يجعل الله هاهنا جماعة؟

قال أحمد بن يحيى عليها السلام: إنما يجوز هذا القول في التعظيم للمخاطب.

(٧٦) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٥١]. فقلت: ما معنى هذه النجوم؟

قال أحمد بن يحيى عليها السلام: قد جاء في التفسير أن القرآن نزل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم آيات بعد آيات، فذلك في لغة العرب يجوز، تقول العرب اجعلوا لنا الدية على آل فلان نجوماً، أن يدفعوها، إليهم شيئاً بعد شيء، فيسمون ذلك نجوماً. قال زهير بن أبي سلمى:

ينجمها قوماً لقوم غرامة ولما يريقوا بينهم ملء محجم^(١)
وإنما أقسم بها كما أقسم بالطور، وإنما أراد بهذا القسم أن هذا القرآن لقرآن كريم، فهذا موضع القسم وهو عندي الجواب في هذه المسألة.

(١) ورد في الديوان هكذا:

ينجمها قومٌ لقوم غرامة ولما يريقوا بينهم ملء محجم

والجواب الأول قول بعض أهل العلم.

وسألت عن تفسير الجهاد كيف معانيه في القرآن؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: تفسير القرآن على ثلاثة وجوه:

فالوجه الأول من الجهاد يعني به: القول، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]. وهذا بمكة قبل أن يؤمر بالسيف، وقال في سورة النبي صلى الله عليه: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩]. يعني: بالقول الغليظ.

والوجه الثاني من الجهاد يعني به: القتال بالسلاح، فذلك قوله: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ - يعني: الذين يقاتلون في سبيل الله - بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥]، وقال في براءة: ﴿جِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣]. يعني: بالسيف، ومثلها في ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ حُرِّمَ﴾ [التحريم: ٩]^(١).

والوجه الثالث من الجهاد يعني به: العمل، فذلك قوله في سورة العنكبوت: ﴿وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ [العنكبوت: ٦]، من يعمل الخير فإنها يعمل لنفسه. وقال فيها أيضا: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]. يقول: عملوا لنا، وقال في سورة الحج: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨]. يقول: اعملوا لله حق عمله.

(١) يشير إلى الآية: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظُ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيُثَسَّسُ الْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩].

(٧٧) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]. وقلت: ما المكاء وما مخرجه في اللغة؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: المكاء في لغة العرب هو الصغير، موجود ذلك في كلامها وأشعارها، من ذلك قول عنتره العبسي:

وحليل غانية تركت مجدلا تمكوا ترايبد كشدق الأعلم^(١)
يقول: يصفر ويخور عند خروج نفسه حين قتله، وإن ترابيه - زعم الشاعر -
مفتحة كشدق الأعلم، والأعلم فهو مشقوق الشفة.

(٧٨) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿فَإِنْ طَبِخَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: ٤]. فقلت: كيف جاز أن يقول نفسا واحدة وهن جماعة أنفس؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: ذلك جائز في لغة العرب، قال الربيع بن زياد العبسي في نحو ذلك لقومه:

فإن طبختم نفسا بمقتل مالك فنفسى لعمرى لا تطيب لذللكا^(٢)
فصيرهم نفسا واحدة وهم جماعة رجال كثير.

(٧٩) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿وَمُهَيِّمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]. فقلت: ما معناه؟
قال أحمد بن يحيى رضي الله عنه: المهيمن هو الشاهد، قال عبد الله بن العباس
يمدح ابن عمه أمير المؤمنين صلوات الله عليه:

(١) ورد في الديوان هكذا:

وحليل غانية تركت مجدلا تمكوا فريسته كشدق الأعلم

(٢) لم أنف عليه.

ألا إن خير الناس يعد محمد مهيمنه التاليه في العرف والنكر^(١)
وفي أمير المؤمنين عليه السلام ما يقول عز وجل لنبيه صلوات الله عليه: ﴿أَفَمَنْ
كَانَ عَلَىٰ بَيْتِنَا مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ [هود: ١٧]. يعني بذلك: النبي صلى الله
عليه وآله، والتالي علي رضي الله عنه.

٨٠) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥]. فقلت: ما معنى مقيتا؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: المقيت في لغة العرب - برفعة الميم - القادر
على الشيء، والمقيت - بفتح الميم - فهو البغيض، قال قيس بن الأسلت الأنصاري
يذكر الاقتدار على الشيء ومعناه، قال في ذلك:

وذي ضغن كففت النفس عنه وكنت على إساءته مقيتا^(٢)
يعني: قديرا.

٨١) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]. فقلت: إن قال لنا قائل: كيف يجوز أن يكون الله عز وجل وكيلا،
ويقول العبد الله وكيلا، وكيف الجواب في هذا المعنى؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: قد بلغني أن القرامطة الكفار عليهم لعنة الله
يحتجون بهذه الآية على جهال الناس، ويغالطون الغباء وأهل الغفلة، ويقولون:
كيف يجوز أن يكون الله وكيلا، وإنما له الوكالة، يريدون بذلك الإلحاد، وإن كون

(١) البيت للشاعر: الأخضر اللهي. ورد في الديوان هكذا:

ألا إن خير الناس بعد محمد وصي النبي المصطفى عند ذي ذكر

(٢) لم أقف عليه.

وقدر خالقان، وذلك من جهل من يلقون من الناس بالدين، وبلغه العرب التي خاطب الله بها عز وجل رسوله صلى الله عليه، وخاطب رسول الله صلى الله عليه القوم أهل اللسان العربي، الذي بعث صلوات الله عليه به.

فالجواب لهم عليهم لعنة الله أن يقال لهم: إن اللغة العربية واسعة، جهلتها القرامطة وغيرهم، ولذلك مؤهوا على الخلق الذين لا يعقلون، ومن ذلك أن العرب تسمي أسماء كثيرة بأضدادها من الكلام، من ذلك أنك تقول: مولاي فلان الذي أعتقته، وفلان مولاي الذي أعتقني، فجاز الاسم لهما جميعا وهما ضدان، وتسمي العرب المكري الذي يكري الإبل كريا، وتسمي المكثري الذي اكثرى من الجمال أيضا كريا. قال الشاعر:

كريمة لا يطعم الكرياً ومثلها لا يصحب المطياً^(١)

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «البيعان بالخيار ما لم يفترا»، يعني: البائع والمشتري، فساهما: بيعان، وإنما أحدهما: بَيْعٌ، والآخر: مشتري، والوكيل يجوز في لغة العرب المالك للشيء كله يسمى وكيل شيء، أي: مالكة، والوكيل لغيره يسمى: وكيلاً، وكل ذلك جائز في اللغة معروف غير منكر والحمد لله، لا ما ذهبوا إليه من الكفر، وإن كون وقدر مخلقان من دون الله عز وجل وتقديس عما قالوا علواً كبيراً.

(٨٢) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣]. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: ٤١].

فقلت: ما معنى هذا في العدل؟

(١) لم أقف عليه.

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: اعلم - أرشدك الله - أن الجعل في كتاب الله عز وجل يخرج على وجهين:

فمنه جعلُ حَتْمٍ وهو قوله عز وجل: ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ ﴾ [الإسراء: ١٢]. وما أشبه لك من جعل الحتم.

والجعل الآخر فهو قوله عز وجل: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ [القصص: ٤١]. فذلك جعلُ حكمٍ وتسمية، أي: جعلناهم وسميئناهم بفعلهم، وكذلك أئمة الهدى استحقوا الإمامة بالهدى والتقوى، فحكم لهم بالهدى والتقوى، وجعلهم أئمة لعباده وكهفا ونجاة.



تفسير سورة بني إسرائيل

تفسير سورة بني إسرائيل

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله عز وجل: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ﴾.

قال الناصر لدين الله أحمد بن يحيى بن الحسين صلوات الله عليهم: قوله: ﴿سُبْحَنَ﴾ يريد بذلك التنزيه لنفسه والتقديس، جل ثناؤه، إذ لا يجوز التسييح لأحد غيره، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والتسييح فهو من لغة العرب المعروفة، وهو التنزيه.

أقول لما جاءني قوله سبحان من علقمة الفاجر يريد بذلك: التنزيه لله عز وجل والتعظيم، وأضمر الله في هذا الموضع لمعرفة بجواز ذلك عند العرب.

وأما قوله: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ فإنه يريد: محمداً عليه السلام، الإسماء هو: المسير بالليل، ولا يجوز أن يكون الإسماء بالنهار.

قال ذو الرمة:

فإن كنت إبراهيم تنوين فالحقي وإلا فارجعي بسلام
فلم تستطع مي مهاتنا السري ولا خوض ليل في البرين تمام^(١)

(١) البيتان لذي الرمة، ووردا هكذا:

ولم تستطع مي مهاتنا السرى ولا ليل عيس في البرين سوام
فإن كنت إبراهيم تنوين فالحقي نزره وإلا فارجعي بسلام

وأما قوله: ﴿لَيْلًا﴾. فإنه يعني به: قدرته، وتعجيل بلوغه إلى الشام، من مكة في ليلة واحدة، والمسجد الحرام: مسجد مكة، والمسجد الأقصى: مسجد بيت المقدس المبارك الذي بارك الله عز وجل فيه وفيها حوله، وأعظم النعمة على خلقه والإحسان إلى بريته، ويعني بقوله: ليلة واحدة، لأن قريشا لم تفقد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا ليلة واحدة.

قوله: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. يعني: ما أراه من عظمة سلطانه، ونبرات برهانه، السميع بلا آلة، والبصير بلا جاسة.

قوله: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾. يعني: التوراة، ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾. يعني: ما بين لهم من الحق، ودلهم عليه من الرشد، ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾. يقول: ألا تتخذوا من دونه جل ثناؤه الهاً يعبد، ولا رباً يؤخذ.

قوله: ﴿ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾. يعني: نسل الذين كانوا مع نوح عليه السلام في سفينته، والوارثين للأرض من ذريته، والشكور فهو: الحامد المطيع.

قوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ...﴾ الآية. يعني به: أعلمناهم بها سيفعلون بعد نزول التوراة، لا قضاء حتم ولا جبر، لأن القضاء في القرآن يتصرف على ثلاثة وجوه: فمنه قضاء خبر، وهو: الإعلام.

وقضاء حتم، وهو: الذي لا مخرج منه ولا حيلة.

وقضاء أمر، وهو قوله عز وجل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾. ولو كان هذا محتوماً ما قدر أحد أن يخرج من الطاعة إلى المعصية، ولا قدروا أن يعبدوا الأصنام من دون الله جل ثناؤه.

وأما قضاء الحتم فقوله: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢].
وأشبه ذلك في القرآن من القضاء الحتم.

وأما قوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾. فهذا قضاء إعلام، أخبرهم به، لا قضاء حتم.

قوله: ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَثِيرًا﴾. يعني: باتباع أهوائهم، ومخالفة ما جاء به موسى عليه السلام، من أحكام التوراة.

قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾. يعني: فسادهم الأول.

قوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَلِ الدِّيَارِ وَكَاتَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾. فذلك يخرج على التخلية من الله عز وجل، وقد ينتقم من الظالمين بعضهم ببعض على معنى الترك. وذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].
يعني: أنه يجلي بينهم ويتبرأ منهم.

قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾. وقد جاء في الرواية من خبر يحيى بن زكريا صلى الله عليه، بخبر بخت نصر الملك الذي كان في ذلك الزمان، فاستغنيا عن إعادته لشهرته، ﴿وَأَمَدَدْنَكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾.
يعني: ما خلق في دار الدنيا من البنين والأموال، فلو لا ما خلق من ذلك عز وجل وأوجده، لما قدروا عليه باحتياهم ومقدرتهم.

وأما النفير فهو: الرجال الكثير، معروف ذلك في لغة العرب وأشعارها.

قال رجا بن هارون الربيعي، من بني قيس بن ثعلبة:

فلذا دعوت بآل بكر صارخاً كثير النفير وعزت الأنصار^(١)
يريد: كثير الرجال عز ناصره.

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾. يقول: إن طاعتكم الله عز وجل هو إحسان منكم إلى أنفسكم، وإن عصيتم الله عز وجل حاق ذلك بكم، وكانت السواية^(٢) منكم إلى أنفسكم، تعقبكم النار في الآخرة.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُئَرُوا وُجُوهَكُمْ﴾. يعني: أنه يقبح وجوههم بمعصيتهم له ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم، بما استحلوا من محارمه، وانتهكوا من حرمانه. ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّوْا مَا عَلَوْا تَتَبَرَّأَ﴾ ﴿[الإسراء: ٧]﴾. يعني: بيت المقدس. وأما التبرير فمعروف في لغة العرب، وهو ضرب من الدمار والتبار.

قال الشاعر:

إن العهد الذي لم توف مدتها قد أورثك تباراً آخر الأبد^(٣)
يعني: أنها أورثت دماراً آخر عمره.

قوله: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ ﴿٢٠﴾. يقول سبحانه لأعداء الله عز وجل: لا يخرجون منه أبداً. تقول العرب: فلان محصور، إذا حصر عن الشيء، فهو حصير وحبس، وحبس إذا كان محبوباً عن شيء لا يناله ولا يقدر فيه على حيلة، وهو المسجون أيضاً.

(١) لم أقف عليه

(٢) يعني: الإساءة.

(٣) لم أقف عليه.

قال الشاعر:

فقولوا تركنا الهاشمي ابن صالح ببغداد حبسا بين راج وخائف^(١)
قوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقَرَأْنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾. يعني: أنه الدين المرتضى رب العالمين. ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾. يعني: الذين يؤدون الفرائض على وجهها، ويحبتون المحارم وقربها، والأجر الكبير، فهو: الثواب العظيم الذي على لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولم يخطر على قلب بشر، يصدق ذلك قوله عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَغْتَدْنَا لَهُم عَذَابًا أَلِيمًا﴾. يقول: إنه عز وجل أعد لأعدائه المخالفين لأمره، والعادلين عن طاعته، عذابا أليما، والأليم فهو: ألغاية القصوى من العقاب، والأشد من العذاب، نعوذ بجلال الله - لنا ولكم - من أليم عذابه، والمحذور من عقابه، إنه متان كريم.

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾. فالذي جاء في الرواية أن ذلك الإنسان عنى به: النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد الدار، وكان الذي دعا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو الذي ذكره الله عز وجل، حيث يقول: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِّنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾. يعني بذلك عز وجل: ما خلق من الشمس والقمر، وما جعل بينهما من

الفرق الواضح، وما فضل به ضوء النهار على ظلمة الليل، وما أُنقذ فيه من الصنع والتدبير، لمعازة الدنيا، ومصالح الخليقة، وذلك قوله: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾. يعني: تصرفهم في طلب المعاش وقوام الدنيا.

﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَنَهُ تَفْصِيلًا﴾^(١). فهذا ما لا يخفى على أحد من عدة الأيام والشهور والسنين، نعمة منه عز وجل ورحمة، ليعرفوا الأوقات، والمدد والحساب، والعدد والصيام في وقته، والحج في وقته، والآجال المضروبة بينهم في معاملاتهم، وأحكامهم، وأعيادهم، ونكاحهم، وديونهم، وأسفارهم، ومزروعهم، والأسباب التي لا غنى لهم عنها، ولا قوام لهم إلا بها.

قوله: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَزَمْتَهُ طَبَرُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾^(٢). يعني بذلك: عمله الذي عمل في أيام حياته من الخير والشر، فيجده مُحْصًى محكما مثبتا، لم يسقط منه صغيرة فتخفى، ولا كبيرة فتنسى، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ يَتْلَتَنَا مَا هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(٣). [الكهف: ٤٩]. والمغادرة في لغة العرب فهو الأمر الذي لا يترك منه شيء قَل ولا كثر.

قال الشاعر:

قتلنا بالرجال فلم نغادر لهم بالدار من يحمي السواما^(٤)

يقول: لم نترك من رجالهم من يمنع عن نعمهم وأموالهم أحداً إلا قتلناه.

﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾^(٥)، يقول: كفى لنفسه محاسباً، وعليه شاهداً، ولها محاجاً.

(١) لم أنف عليه.

وقد قال غيرنا: إنه عنى بذلك: الأسود بن عبد الأسود القرشي.

ونحن نقول: إن كل الناس داخل في هذه الصفة، غير معتزل عن هذه الشريطة، لقوله عز وجل: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ﴾. ولم يعن واحدا بعينه، وكذلك قوله: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾. فنقول: إن هذه الصفة يدخل فيها كل أحد من الناس.

وقد قال غيرنا: إنه يعني: الوليد بن المغيرة أنه الذي ضل، وإن الذي اهتدى أبو سلمة بن عبد الأسد.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. يعني بذلك: أن أحدا لا يدفع عن أحد، وأن أحدا لا يحمل ذنب أحد أبداً، ويصدق ذلك قوله عز وجل: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾. وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يَرَىٰ ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾. [النجم: ٣٩-٤١]، والأوزار في لغة العرب: فهي الأحمال والأعباء والأوقار.

قال الشاعر:

حامل الأعباء حين يُؤدِّب القوم لا زُمِّل ولا نُوَّاح^(١)

وقال آخر يصف الأوزار:

يحمل أوزارنا إذا حجر الغيث ولم تند بالبلال الرفود^(٢)

والرفود فهي: الناقة ذات اللبن الكثير ترفد أهلها.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾. يقول جل ثناؤه: إنه لم يكن ليعذب خلقه قبل إيجاب الحجة، والإبلاغ في المَعذرة، وإرسال الرسل، وإنزال

(١) لم أفد عليه.

(٢) لم أفد عليه.

الكتب، والإعذار والإنذار، تفضلا منه ورحمة وامتنانا، وكرما وإحسانا، فإذا بلغت الرسل وجاءت بالمعجزات، والدلالات الباهرات، والآيات الشافيات، وجبت الحجة، وقام العذر، وثبت الحق، واستحق النكال والثواب.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (١). يعني جل ثناؤه، وقهر سلطانه: أن أمره هذا الذي عنى في هذا الموضع، أي: أمرنا مترفيها بأمرنا فتركوه وفسقوا فيها، وهذا الكلام هو المضمّر في لغة العرب، الذي لا يجهله ذو لب، ولا ينكره من كان له في العربية أدنى حب.

قال الشاعر يذكر الإضرار في الكلام، ويستغني عن وضعه لعلم العرب به وصحته عندها:

وإن المنية من يَحْشُهَا فسوف يصادفها أين ما^(١)
يريد: أين ما كان من جميع الدنيا أدركته المنية، فأضمّر ذلك لعلمه أن العرب قد علمت ما أراد.

قال امرؤ القيس بن حجر الكندي، وكان من أهل نجد:

لعمرك لو شيء أتنا رسوله سواك ولكن لم نجد بك مدفعا^(٢)
فأضمّر ولم يأت بجواب لعمرك لو شيء أتنا سواك، وكان ينبغي أن يقول: لفعلنا كذا وكذا فأضمّره.

وقال الله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ (النور: ١٠). ثم وقف الكلام، وقد علمت العرب أن تحته لكان كذا وكذا من

(١) البيت لامرؤ القيس، وقد سبق.

(٢) لم أتف عليه.

العقاب، فأضمره ولم يذكره، وقال في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَ أَتَدْرِي نَجَّا مَتَهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنْتِزِكُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥-٤٦]. فأضمر والذي تعرف العرب أنه أراد به أنه عنى: أرسلون إلى يوسف الذي في الحبس، فأضمر إلى يوسف، وأضمر الإرسال، وأضمر المصير إليه، فلم يذكر ذلك، لاستغناء العرب عنه، بقوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾. ومثل هذا في القرآن كثير، في سورة يوسف وغيرها من السور، يطول بشرحه الكتاب، ولو لا كثرتة لفسرناه على جهته بمعانيه وشواهده من أشعار العرب ولغاتها، وفيها قلنا كفاية وشفاء، إن شاء الله.

والله عز وجل لا يأمر أحداً من جميع خلقه بفسق ولا فساد، ولا معصية ولا إحداد، ولا يصددهم عن خير ولا يرشدهم، جل عن ذلك وعلا علواً كبيراً، فقال عز وجل: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [١١: ١٠٦]. يقول جل ثناؤه: أمرناها بأمرنا ففتركت، فحق عليها القول، فوقع بها الهلاك والنقم بالدنيا والآخرة.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [١١: ١٠٧]. يقول: كفى به عز وجل عالماً بجميع الأشياء، إذ لا تخفى عليه خافية ولا يغيب عنه غائبة، لا يحجب عليه مستور.

وكيف يكون ذلك وهو القائل جل ثناؤه: ﴿أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢: ١؟] فقد علم بذنوبهم من قبل خلقه للساعات والأرضين، وإلى ما هم عليه باختيارهم صائرون.

﴿مَنْ كَانَ يَرْيِدُ الْغَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾. هو أنا قد رأينا الكل يريد أشياء كثيرة فلا توانيه، ولا تسعفه ولا تدانيه، فالله عز وجل يعجل لمن يشاء في

الدنيا ما أراد، ثم يُصَيِّرُهُ إلى جهنم يصلها مذبذوماً مدحوراً. والمذموم فهو: القبيح الفعل، والمدحور فهو في لغة أهل النجد: الملعون، ويقولون للرجل إذا غضبوا عليه: دحر الله فلانا، أي: لعنه الله.

قال الشاعر:

إن عوف بن عامر رآه ظلمي ولمّا زال فاجراً مدحوراً^(١)
وهو أيضاً في اللغة: المبعد.

﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾. يعني: الجنة، والسعي لها الأداء لجميع الفرائض، والاجتناب لجميع المحارم، فهذا السعي لها. ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾. أي: مؤمن بالله، قائم بفرائضه، مؤدي لما أمر به من طاعته. ﴿ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا ﴾. كلاً نُمِدُّهُ تَوْلَاً وَهَتُولَاً مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾. فالله عز وجل إنما يعطي المشركين ومن يعصيه من زخرف الدنيا وغضارتها، ما يكون له به عليهم الحجة، ويعطي المؤمنين الفضل فيما أنعم به عليهم من الهداية والدين، واتباع المرسلين.

ثم قال عز وجل: ﴿ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾. لأن درجات المؤمنين في الآخرة ما لا يبلغه وهم متوهم، ولا يصفه لسان متكلم، لجليل خطره، وعظيم شأنه، وشرف قدره، وكذلك ما يحل بأعداء الله عز وجل، أهل النار من النكال العظيم، وظل اليحوم، وأكل الزقوم، وشراب الحميم.

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾. فأمره الله جل ثناؤه، ومن اتبعه أن لا يجعلوا معه إلهاً، ولا يشركوا بعبادته أحداً، وأن من فعل ذلك فقد استوجب الدم والخذلان في الدنيا والآخرة.

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۖ ﴾. أمرا لا جزاء، وتحذيراً لا قسراً، فلمن أطاع الجنة، ولمن عصى النار.

﴿ وَيَا لَوْلَا الَّذِينَ إِحْسَنَّا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا تَنْهَرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۖ ﴾. هذه وصية من الله سبحانه في الوالدين، أن لا يقطعوا ولا يُجفأ بهما، وأن يُحسن إليهما جزاء بها أحسناً، وأن يُحفظا كما حفظا، ويُكرما كما أكرما، ويُربيا كما رَبَّيا، رحمة منه عز وجل وتأديبا لخلقها، وتنبيهاً على الصواب، ليجزيهم على ذلك الجنة، ويوجب لهم الكرامة، ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا ۖ ﴾. والأف: هو التأفف في لغة العرب المعروفة، وهو التأذي والاستفقال.

قال الشاعر:

حللنا بكم حتى إذا طال مكثنا بدالي تأذي منكم وتأفف
وطال ثوانا عندكم فمللتم وإننا يقيناً فاعلموا سنخفف^(١)
﴿ وَلَا تَنْهَرُهُمَا ۖ ﴾. فالانتهاز هو: الصياح بالغضب والكلام الغليظ.

قال الشاعر:

بدالي من أبي زيد شفار في رسائله انتهار^(٢)
والقول الكريم الذي أمر الله به عز وجل فهو: اللين الجميل الحسن من القول، كما قال لموسى وهارون عليهما السلام، ﴿ أَذْهَبَا إِلَيَّ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ ﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴿ طه: ٤٣ - ٤٤ ﴾. أراد بذلك استعطافه إلى الحق، والرجوع إلى التوبة،

(١) لم أقف عليها.

(٢) لم أقف عليه.

لكرمه الله عز وجل ورأفته بخلقه، لأن الكلام الغليظ يباعد ولا يقرب، وينفر ولا يؤلف.

﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾^(١) يوصيه بلين الجانب لهما، والتذلل لعظيم قدرهما، والرافة بهما، والرفقة عليهما.

﴿رُّكُّكُمْ أَكْثَرُ عِلْمٍ بِمَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾^(٢). فالله عز وجل المطلع على ضائر النفوس، وسرائر الصدور، فمن كان صالحاً أثيب، ومن كان عاصياً عوقب، والأوابون فهم التائبون المفلحون، الذين يستوجبون من الله جل ثناؤه الغفران، وينجون من النيران، تقول العرب: قد آب فلان إلى ربه، أي: قد تاب عن ذنبه ورجع عنه، كما تقول: قد آب فلان من سفره، أي: رجع من سفره.

قال الشاعر:

وآب إلينا مالك بعد ما غدا على حد صرم لا يريد رجوعاً^(٣)
﴿وَأَنذِرْ الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذِرْ تَبَذِيرًا﴾^(٤).
فأمره بصلة القرابة لما عظم من فرض ذوي الأرحام، وهذا الذي ذكر الله سبحانه في قوله: ﴿وَأَنذِرْ الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾. فهذه للناس كلهم عامة، وعليهم واجبة، أن يؤتوا القريب والمسكين وابن السبيل، وأن يأتوا فيهم ما فسرناه وبيناه، لأن الله عز وجل فرض على الناس فروضاً، وجعل الدني والشريف فيهما سواء.

وأما ابن السبيل فهو: ما رُ الطريق المنقطع.

(١) لم أقف عليه.

والمسكين فهو: الذي لا مال له، وهما اللذان تجب مواساتهما، والإحسان إليهما.
والتذير فهو: ضرب من الفساد، وكثرة الإنفاق، فأمره عليه السلام بالاقتصاد،
لأن من أنفق في غير طاعة الله عز وجل صار ماليا للشيطان.

﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ۝﴾. أي: عاصيا.

وقد قال غيرنا: إنه عنى بكفور، أي: جاحد، وليس عندنا كذلك، بل كَفَرُ
إبليس اللعين وهو يعلم أن الله عز وجل ربه وخالقه، الدليل على ذلك قوله عز
وجل يخبر عنه: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ۝﴾ [ص: ٧٦]. فأقر أن الله
جل ثناؤه خالقه، ولم يحدد ذلك.

﴿وَإِنَّمَا تُعْرِضْنَ عَنْهُمْ أَبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهُنَّ لَأَهْمَ قَوْلًا
مَيِّسُورًا ۝﴾. يريد بذلك: المشركين من قومه.

يقول: تُعرض عنهم اعراضاً، يريد: صبراً وثواباً فافعل.

و ﴿قُلْ لَأَهْمَ قَوْلًا مَيِّسُورًا ۝﴾، يعني: سداد من القول في اللين والحلم، وما
يشبهه عليه السلام من الفضل والكرم.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ۝﴾. يعني بذلك: البخل، فكرهه وأدبه
عليه، وأمره بالجميل من الإصلاح.

ثم قال له: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝﴾. يعني:
أنه يلام ويقال فيه القول، و ﴿مَّحْسُورًا ۝﴾ لا يبقى معه شيء.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۝﴾. يعني: أنه لو أراد لبسط عليه
الرزق، وأن يجعل الجبال كلها له ذهباً وفضة، لكان ذلك عليه.

﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝﴾. يقول: لكرامتك عندي، وعظيم قدرك
لدي، حَيَّتْكَ عن تافه الدنيا، وجعلت لك كرامة الآخرة.

وقد جاء في الأخبار «أن الله عز وجل يحمي عبده المؤمن الكريم عليه عن الدنيا، كما يحمي الطبيب الرجل العليل من الأشياء التي تنوق إليها نفسه»، لما يريد له من دائم الكرامة في الجنة.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ﴾. وذلك أن العرب كانت تقتل أولادها من البنات خاصة، على ضربين:

أما أحدهما فكان من خشية الفقر.

وأما الآخر فكان من الغيرة والحمية.

والإملاق في لغة العرب، فهو: الفقر، وقلة ذات اليد، والضيق في المعاش.

تقول العرب: فلان رجل مملق، أي: فقير.

قال الشاعر:

إننا معشر نجود على الضيف على حالنا من الإملاق^(١)

يعني: على حالهم من الفقر فيجودون، ويطعمون وهم في غير سعة، لكرمهم وسعة أخلاقهم.

﴿نَحْنُ نَرِزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّا قَتَلْتُمْ كَانَ خِطَاً كَبِيراً﴾. يعني: إثماً عظيماً.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾. يعني:

سوء السبيل إلى النار.

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: «(في الزنا ست خصال، ثلاث في الدنيا، وثلاث في الآخرة، فأما اللواتي في الدنيا، فإنه يذهب البهاء، ويورث الفقر، ويقطع العمر، وأما اللواتي في الآخرة، فيوجب سخط الرحمن، وسوء الحساب، والخلود في النار)».

(١) لم أقف عليه.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾. يعني: إلا من قُتل بحق في جميع الأسباب التي يحل بها القتل، بين قَوْدٍ أو حد من حدود الله عز وجل، ممن أوجب الله عز وجل قتله، ممن عاند المسلمين من المشركين، وغيرهم من الباغين، والظالمين، والمتردين، وأهل الكتاب، ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. ومن تعدى في شيء من القتل، فقد عاند الله عز وجل وخرج من حكمه.

وقوله جل ثناؤه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾. يعني: ألا يقرب ماله إلا بما فيه له الصلاح، وإدخال المرافق، إزاحة الضرر عنه، فقد قال عز وجل في سورة البقرة: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتِيمِ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. يعني: في البيع والشراء والتزويج والعارية، وما أشبه ذلك: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. يعني: في مال اليتيم، ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾، يعني: مبالغ الرجال.

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾. يعني: أوفوا بعهد الله عز وجل وبذمتكم، لأن الوفاء بالعهد أجل بالمؤمنين، وأحسن بالصالحين.

وقد بلغك كيف كان قصة هلال بن عويمر، وما ذكر الله عز وجل من خبره في سورة براءة، حيث قال: ﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَبِئْسَ أَتَيْنَا مِنْ فُضْلِهِ لَنُصَدِّقَنَّهُ وَلَنُكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥]. ثم لم يف بعهده، ولا بما أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من نفسه بذلك، فأعقبه نفاقا في قلبه إلى أن يلقي ربه.

وقد فسر الهادي إلى الحق صلوات الله عليه في كتاب الأحكام، فأغنانا ذلك عن إعادته.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾. يحضهم عز وجل

على الوفاء في كيلهم، ووزنهم ومعاملاتهم، إذ كان ذلك أجل وأزكى عند الله عز وجل، وأقرب إلى الجنة وأنجا من النار.

والقسطاس فهو: الميزان الوافي الذي لا زيادة فيه ولا نقصان، وهو الحق المستقيم.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾. يأمره كما تسمع أن لا يقول إلا ما يعلم، ولا يشهد إلا بما أيقن، ولا يعمل إلا بما أتقن، إذا كان الله عز وجل لا بد أن يسأل البصر عن فعله، والفؤاد عن فعله، وجميع الجوارح عن أفعالها، فلا يجوز عنده عز وجل إلا الحق، ولا يقوم لديه إلا الصدق، ولا ينجو إلا المحق.

وقد ينبغي لكل مسلم أن يحافظ على حواسه، ويحول بينها وبين الهوى بجهده وطاقته، فلا يقفو من الأمور كلها إلا صحيحها، ولا يتغاطى منها محرماً قبيحاً، ولا يقول إلا حقاً مشروحاً.

والقفارة في لغة العرب فهو: التبع لكل شيء من خلفه، فما تبعته من خلفه فقد قفوته وقفرته.

لأن العرب تقول: تقف الأثر وتعقر الأثر.

وتقول العرب: نحن نقفوا آثار الخيل، وآثار الإبل، وآثار الناس، ونحن نفقر سيرة فلان وفعله، ونحن نقفوا آباءنا وأجدادنا، يريدون بذلك: أنا نتبع آثارهم، ونقفوا مكارمهم.

قال الشاعر:

لمن ظعنٌ عَدَوْنَ مقفيات على أثر الخليط متبعات

قفوت حدودهن وقد تولت وحال الآل دون الباكرات^(١)
ويجب مع ذلك غض البصر، وكف جميع الجوارح عن كل مائمه، ديانة وتكرماً،
وقد كانت الجاهلية على كفرها تأنف عن كل مائمه، وتكره الأمور القبيحة، فكيف
بأهل الإسلام الذي عظمه الله عز وجل وطهره، وطهر أهله؟!
ألم تسمع إلى قول عنتر بن شداد العبسي حيث يقول وهو مشرك جاهلي:
قال عنتر:

وأغض طرفي ما بدت لي جاري حتى يوارى جاري ما واه^(٢)
﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ آلَ جَبَالٍ
طُولًا ﴾ ﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ ﴿ . والمرح هو الخيلاء
والكبر والته، في لغة العرب.
وقد ذكر الله عز وجل ذلك في خلقه، وأمرهم أن لا يفعلوه لأنهم عبيد أذلة،
لجبار متكبر قدوس متعظم، حي لا يموت، ولا يزول ملكه، فأما من يموت ويأكل
الطعام فهو عاجز بين العجز، فكيف يتكبر من هذه صفته، وهو الذليل الضعيف
المقهور؟!
والسينة المكروهة لا تخفى على أحد.

وقوله عز وجل: ﴿ أَفَأَصْفُكُمْ رَبُّكُمُ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا ﴾ .
يريد بهذا القول: المشركين الذين زعموا أن الملائكة إناث، افتراء منهم على الله عز
وجل وعثيا.

(١) لم أنف عليها.

(٢) انظر ديوان عنتر.

وقد ذكر بعض أهل العلم أنه قال ذلك من العرب قوم يقال لهم: خزاعة، وهم كانوا حول مكة، فذكروا عنهم أنهم قالوا للملائكة بنات الله عز وجل، وتزهر عما قالوا، وتقدس وعلا علواً كبيراً.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾. يقول: ولقد بينا لهم من كل شيء فيه منفعة وهدى، ولهم فيه نجاة ورحمة، فأعلمناهم بما كان قبلهم، وما هو كائن بعدهم، فأبوا إلا نفوراً.

﴿قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا يَتَّبِعُونَ إِلَهَ إِلَّا ذِي الْعَرْشِ سُبُلًا﴾. يقول لو كان لله عز وجل شركاء كما قلتم، أو نظراء كما كذبتم، أو مشاقون كما زعمتم، لطلبوا سبيلاً إلى إزالته، واحتالوا بكيدهم في إزاحته، قدوس قدوس، رب الملائكة والروح، الذي لا شريك له، ولا مضاد ولا مضار، ولا مساوي ولا مضاهي، ولا مؤازر ولا مظاهر ولا مظافر، ولا مساهم ولا مقاسم ولا مخاصم، ولا ند ولا مقاوم، ولا منافر ولا مكابر، ولا مزاحم، عز فبذَّ عزَّه كلَّ عز، وقهر سلطانه كل قاهر، ودام فأفنى دوائمه كلَّ دائم، سبحانه وتعالى لا إله غيره، ولا معبود سواه، ولا خالق ولا رازق إلا إياه. وهو رب العرش العظيم، يسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن، ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾. يقول: ﴿إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾، أي: هو مطيع له خاضع لعظمته، فيه آية الفطرة، ودلالة البراية، فهو شاهد لحالقه، مسبح ببيته لبيانه، ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، يقول: لا تنزلونه منازل، ولا تعرفون كيفيته، والحليم فهو الذي لا يعجز، والغفور فهو العافي عن الذنوب من أناب.

وفيه وجه آخر، وهو أحب إلي في معنى قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ

يَحْمَدُهُ ﴿١٠﴾ يعني بذلك سبحانه: أنه إذا رأى خلقه بدائع صنعه، وعجائب تدبيره، سبحوا لما رأوا من خلقه، فلما سبح المسبحون لما عاينوا من عظيم قدرته، جاز أن يقول: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾، لما كان من تسبيح المسيح لما رأى من خلقه، نسب تسبيح المسيح إلى الخلق، لما رأى المسيح من قدرة الله عز وجل فيه.

ومثل ذلك ما يشهد لنا من كتاب الله عز وجل حيث يقول في قصة هارون: ﴿إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوبُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٢٦]. وإنا المعنى فيه الصحيح عند أهل العلم، وجميع أهل التفسير: أن العصبة أولى القوة هم الذين ينوون بمفاتيحه، كان العصبة تحمل المفاتيح، والمفاتيح لا تحمل العصبة ولا غيرها، فهذا آين شاهد وأحسن دليل.

ومن ذلك قول الله عز وجل أيضا: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨-٩]. وإنا المعنى فيه عند أهل العلم: وإذا الموءدة سئلت عنها من قتلها، بأي ذنب قتلها؟! لأنها هي لا تُسأل وهي المقتولة، إذ كان ليس عليها في العدل سؤال، لأن الله عز وجل يقول: ﴿قَوْرَبِكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ] [الحجر: ٩٢-٩٣]. والمسؤول إنها هو القاتل لا المقتول.

وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: ٨]. يقول: سُئِلَ قَاتِلُهَا، وهذا فغير منكّر في لغات العرب، ولا مجهول في كلامها وخطابها، وقلبي لمعاني الأشياء، من ذلك أنها تقول للديغ: السليم، وتقول للشمس: جونة، لشدة بياضها، والجون عندها: الأسمر، فقلبت الاسم.

وتقول للظبا: الآدم، تعني به: الظبا البيض.

قال الشاعر:

حتى لحقناهم تعدو فوارسنا كأننا رُغِنَ قَفٍ يرفع الآلا^(١)
والآل هو الذي يرفع القف. والآل ما رفع الأشياء في البرية وبينها حتى يراها
الناظر من الأمد البعيد، وليس للآل شيء يرفعه غيره.

وقوله عز وجل يعني: النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ
الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾^(٢). يريد بذلك: الذين لا يصدقونك
بما تذكر من البعث، والحساب، والجنة والنار، يقول: لا يصلُّون إليك بسوء ولا
بمكيدة ولا مكروه، مع حجابنا المحض من الأسواء، والحافظ من الأعداء.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ
رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَذْنَبِهِمْ نُفُورًا﴾^(٣).

واعلم - أرشدك الله - أن الجعل في كتاب الله عز وجل، يخرج على وجهين
ليس لهما ثالث:

فأحدهما: جعل حتم. فهو الخلق وذلك قول عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ
سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]^(٤). ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٢].
﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦]. وما أشبه ذلك في القرآن فهو جعل خلق وحتم.

وأما الجعل الآخر: فهو جعل حُكم وتسمية. مثل قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى
قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الإسراء: ٤٦]. ومثل قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمًا يَهْتَدُونَ
بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة: ٢٤]. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَمًا يَذْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: ٤١]. فهذا وما
كان مثله في القرآن جعل حكم وتسمية، لا جعل خلق.

والوقر فهو: الصمم المعروف، ذلك في لغة العرب غير منكر.

(١) البيت للناطقة الجعدي. ورد هكذا: حتى لحقناهم تعدي...

وقال في موضع آخر: ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿٧﴾. يعني بذلك: كأن في أذنيه صمًا.

قال الشاعر:

وقفنا بدار الحى نسأل عنهم فردت علينا أن في سمعها وقراً^(١)
والأكنة: ما يستر الشيء، وحال دونه، وهو مثل قوله: ﴿وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ
غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]. وذلك كله حكم وتسمية، لا أن الله غطى على قلب أحد، ولا
غشا على بصره، ولا حال بينه وبين هداة.

﴿وَلَوْ أَعْلَى أَذْبَرَهُمْ نُفُورًا﴾ ﴿٨﴾. يعني: أنهم ينفرون من توحيد الله عز
وجل، ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾.
يعني: يتناجون به من تكذيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والاستهزاء به،
والمناجاة في لغة العرب فهي: المساواة والمخافتة بالشيء من الكلام.

قال الشاعر:

يناجون حتى لا يبين كلامهم سراراً لئلا يعلم الناس ذلك^(٢)
﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ ﴿٩﴾. يقول هذا بعضهم
لبعض، والمسحور عند العرب يخرج في لغتهم على وجهين:
أحدهما: أنهم فيما يقولون هم: إن الرجل يُرقى له الرُّقى، ويعقد له العقد، حتى
يزول عقله، ويختلط عليه أمره.

والوجه الآخر: من السحر عندهم فهو السحر بالكلام، الذي يتعمل فيه الناس

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

من الكذب والحيل والمكائد، والمكر حتى يزيغوا عقل الإنسان، ويصدوه عن طريقه، ويتعملون عليه في قطع قريبه، ومفارقة خليله، وطلاق زوجته، والرجوع عن رأيه، الصد عن هواه، وهذا فقد يكون كثيرا في الناس اليوم وقبل اليوم، وهو السحر عند العرب.

يقول الرجل لصاحبه إذا أخذ عنه: سحرنى فلان.

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: «إن من البيان لسحراً...» في حديث طويل، وقد كانوا أيضا يقولون في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إنه مجنون، وإنه كاهن، وإنه محتال، وكان الله عز وجل المتولي لتصديقه، والمطهر لبراهينه، والدال على معجزاته، والمكذب لهم ببيان الحجة، عند وضوح الطريقة، حتى قامت الحجة، وغلب الحق، وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً.

ثم قال عز وجل: ﴿أَنْظِرْ﴾ يا محمد، ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا قَلِيلًا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾. يقول: إنهم لا يريدون الهدى، ولا الرجوع إلى الحق.

﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾. والرفات في لغة العرب فهو: ما تكسر من الأشياء، وصار حطاماً متهشماً، سَمَتْهُ العرب: رفاتاً، إذا كانت لا تطمع له بجبر، ولأجزائه باتصال، لشدة تحطمه وتكسره، ولأنها قد أيست من كل رفات أن يعود سوياً.

قال الشاعر:

تركناهم غداة الخيل تردى هشيماً بالأسنة أو رفاتاً^(١)

فعظم عند المشركين أن يكون الله جل ثناؤه يعيد الخلق بعد أن صاروا رفاتاً

(١) لم أقف عليه.

خلقاً جديداً، منشوراً من القبور، فقال عز وجل: ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۖ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾. فإن الله عز وجل قادر على ما أراد، لا يعجزه شيء، ولا يكبر عليه شيء، ولا يغلبه شيء، ولا يمتنع عليه شيء، وهو على كل شيء قدير. قال الله عز وجل: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ لك يا محمد ﴿مَنْ يُعِيدُنَا؟﴾ أي: مَنْ الذي ينشئ خلقنا بعد الموت؟ قال الله جل ثناؤه: ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. يعني: الذي خلقكم أول مرة، والفاطر هو الخالق. قال الله سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١].^(١)

ثم قال عز وجل: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قَوْلُ عَمَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾. وعسى من الله حاجة، والإنغاض في لغة العرب فهو: تحريك الرأس على طريقة المستهزئ، الذي يؤيس من الشيء، ويباعد كونه، ويكذب به.

قال الشاعر:

أنفضك رأسك مؤيساً من نضرنا فأتاك مثل الأسد للميعاد^(٢)
قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾. مثل قوله: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَادِينَ﴾ [الزمنون: ١١٣]. لأنهم لا يعلمون كم لبثوا تحت أطباق الثرى. وقوله عز وجل لنبيه عليه السلام: ﴿وَقُلِ لِعِبَادِي﴾. يعني بذلك: أوليائه ﴿يَقُولُوا أَتَىٰ هِيَ أَحْسَنٌ﴾. وهي قول: لا إله إلا الله.

(١) في المخطوط: ﴿الحمد لله الذي فطر السموات والأرض﴾. ولا يوجد في القرآن بهذا اللفظ.

(٢) لم أنف عليه.

ثم قال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَتْ لِلْإِنْسَانِ عَذْوًا مُبِينًا﴾. يعني: أن الشيطان يوسوس بينهم، ويغري بعضهم ببعض في تكذيب الرسل عليهم السلام، والجحود لله جل ثناؤه، وجميع المعاصي التي كرهها الله عز وجل، ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾. فالله عز وجل هو العالم كما قال: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الشورى: ١٢]، لا تخفى عليه خافية، لا ظاهرة ولا باطنة، ولا سرّاً ولا علانية، ولا في ضمير ولا في فكرة، ولا في هامة ولا في رؤية.

ومعنى قوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾. فهو: إن يُرد يرحمكم ويتفضل عليكم، فهو الولي لذلك والقادر عليه، لا مانع لذلك، ولا حائل لدونه، ولا صادل له عنه، لأنه رب الأرباب، وسيد العباد، والمنفذ لما يشاء في جميع الأسباب.

ومعنى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾. والوكيل في لغة العرب أيضاً فهو الذي يؤكّل لأخذ الشيء وقبضه، وتوكله العرب أيضاً على حقوقها وأموالها في الحق يقبضه، فأعلمنا الله عز وجل أنه لم يجعل محمداً عليه السلام وكيلاً في عقوبة عباده التي جعلها في الآخرة، وأنه إنما أرسل محمداً عليه السلام بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، ومعدّراً منذراً، وقائماً بأحكام الدنيا بالحق فيما بين العباد لا غير ذلك.

فبين الله لنا سبحانه أنه لم يجعل محمداً ولا أحداً من الأنبياء عليهم السلام وكيلاً في عفوه ولا عقابه، وأنه المتولي لما أراد من أمره، سبحانه لا إله إلا هو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وذلك قوله سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]. وقوله عز وجل لنبيه عليه السلام: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. يريد: أنه خلقهم وأنه لا يخفى عليه شيء من أمرهم.

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.. فالله عز وجل قد فضل بعض رسله على بعض، منهم من جعله من أصحاب الشرائع والكتب، ومنهم من كلمه، ومنهم من اتخذه خليلاً، وغير ذلك من التفضيل.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ دُونِي﴾. وكل زعم في كتاب الله عز وجل فهو كذب من قائله، مثل قوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّنْ يُعْثُوا قُلُوبَنَا وَلَئِنَّا لَنَرِي لَتَعَثُنَ﴾ [التغابن: ٧]، ومثل قوله: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَن لَّنْ نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٨].

﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦]. يعني بذلك: إن الذين تدعونهم من دونه لا يقدرُونَ أن يكشفوا عنهم الضر من السقم، ولا الضر من الفقر، ولا الضر من غير ذلك، ولا يحولونهم إلى الغنى والصحة، لعجزهم عن ذلك، وأنهم لا يقدرُونَ لهم ولا لأنفسهم على نفع ولا ضرر.

ثم ذكر عز وجل أوليائه، وأهل طاعته، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾. يقول عز وجل: يتضرعون إلى الله جل ثناؤه في طلب الجنة والدرجة العليا، ﴿أَبْتُهُمْ أَقْرَبُ﴾. أي: يتقربون إليه بالأفضل الزكي من الأعمال، ﴿وَيَسْرَجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾. قال: يخافون أن يعذبهم الله جل ثناؤه على لفظهم، وعلى الردي من فعلهم، وعلى الغضب والمنع.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا لَنَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾. يعني: أنه يهلك أهل القرى الظالمين منهم بالنقم، والمؤمنين بالموت، لأنه ليس من أهل قرية إلا وهم فانون ذاهبون، وإلى الله جل ثناؤه صائرون، ولم يعن عز وجل بهلاك القرى الجُدُر ولا الخشب، وإنما عنى الناس خاصة، لأن القرى لا عذاب عليها، وإنما القرى في لغة العرب أهل القرى، قال الله عز وجل: ﴿وَسُئِلَ الْقَرْيَةُ الَّتِي كُتِّبَ فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]. يريد: أهل القرية وأهل العير، إذ كانت القرية والعير لا يتكلمان، فقال:

﴿وَأَن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ مُُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾. فالإهلاك هو الموت، والعذاب فهو ما نزل بالأولين من النقم والجوع، وما هو نازل بالآخرين، مثل ما أصاب أهل مكة من الجوع في أيام النبي عليه السلام، ومثل قوله: ﴿فَأَرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الدخان: ١٠ - ١١]، فهو الذي أصابهم من شدة الجوع، كانوا يرون الدخان بينهم وبين السماء.

ثم قال: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الدخان: ١٢]. يعني: يوم بدر، وما حل بهم فيه من القتل والأسر.

وقوله عز وجل: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿١٣﴾﴾. يقول: مكتوبا في اللوح المحفوظ، وهو علم الله تبارك وتعالى الذي لا يحتاج إلى شيء.

ومعنى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾. يعني بذلك: الآيات التي كانت مع موسى عليه السلام، وهي تسع آيات منها:

العصا، والحجر، واليد، وقرق البحر، وتلك العجائب التي لا تخفى على أحد، ﴿إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾، مثل فرعون وقومه، واسمه الوليد بن مرة بن مصعب بن عيان بن أهيب بن الوليد بن الريان العلقمي فيما يقال.

﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴿١٤﴾﴾. أي: آية من آيات الله عز وجل، فكانت لهم عوناً على دهرهم، ورحمة من فاقتهم، ومنفعة لعبالاتهم، يشربون منها لبناً خالصاً، بلا تعب ولا نصب ولا غم، في خفض وذعة وعظيم نعمة، ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾. أي: كذبوا نبي الله تبارك وتعالى، فهو صالح صلى الله عليه، وعقروا الناقة المباركة الكافية وعصوا ربهم، فحل بهم البلاء والدمار، وقوله: ﴿مُبْصِرَةً﴾ يعني: أنها إحدى البصائر الدالة.

﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَحْوِيلًا ﴾. يعني: ليزدجر الخلق ويكفوا عن معاصي الذي خلقهم، وليخافوا عذابه ولم يزدادوا إلا طغيانا كبيرا.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾. يعني: أهل مكة، ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾. فالفتنة تخرج في كتاب الله عز وجل على وجوه، منها: محنة، وغير ذلك، قد مضى من قبلي إليكم كتاب فيه تفسير المحنة على عشرة وجوه، وفي ذلك كفاية لك إنشاء الله.

وقد اختلف الناس في الرؤيا، وقالوا فيها بأقاييل، غير أن إجماعنا وإجماعهم، في الرواية على أنه عليه السلام رأى رجلاً من قريش ترقى منبره، يتداولونه بالظلم، كما يتداول الصبيان الكرة.

وهذا الخبر فقد رواه الجميع، وله تفسير يطول به الكتاب، ونحن نفسره في وقت فراغه إن شاء الله.

والشجرة الملعونة في القرآن فهم بنو أمية.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾: أمر من الله سبحانه للملائكة بالسجود، فسجدوا لآدم طاعة لله جل ثناؤه، وإنفاذا لأمره بالسجود لله عز وجل، فهو تعظيم لآدم عليهم السلام جميعاً.

وقوله: ﴿ رُؤْيَاكُمْ أَلَدَى يُرْجَى لَكُمْ أَلْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ ﴾. وهي السفن سخرها الله عز وجل، وجعل لها سائقاً بالرياح، فسخرها وأجراها بقدرته، وهو السميع العليم، والتسخير في اللغة فهو: التذليل.

وقوله: ﴿ وَإِذْ أَمَرْنَا النَّفُثَ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾. فقد قال قوم: إنه عنى بهذا: المشركين من أهل مكة خاصة، وهو عندي يدخل في جميع من ركب البحر، ودعا الله عز وجل إذا خاف، فإذا نجا وسلم أعرض عن أمر الله عز وجل، وصد عن طاعته.

﴿ أَقَامْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ﴾. يعني: الأمان والسلامة، وطلب النفس من الغرق.

والخسف فهو انخساف الأرض وانخراقها إلى أسفل.

﴿ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾. والحاصب الرياح الشديدة العاصفة، التي تغرق السفن في البحر وتقلبها، ويكون فيها التراب.

﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى ﴾. يعني: مرة أخرى، والعرب تعرف التارة في لغتها، وهي مشهورة عندها، أنها مرة أخرى.

تقول العرب: كرة أخرى، وطرفة أخرى، ووقوعة أخرى، وتارة أخرى، وفينة أخرى، كل ذلك في معنى واحد.

قال الشاعر:

فتارة نحن في خفض وفي دعة وتارة تحت أطراف القنا الذبل^(١)
﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ ﴾. يعني به: الريح الشديدة التي تقصف الشجر، وما أشبهه.

وقوله: ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ۖ ﴾. يقول: نصبراً.
والعرب تسمي طالب الثأر: تبعاً، لأنه يتبع بطلب الدم، وينصر من ظلم من قومه، ويتبع بثأره.

قال الشاعر:

ونحن المدركون لكل وتر إذا طل القتيل عن التبيع^(٢)

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

يقول: نحن ندرك بدمائنا، إذا لم يدرك التبع بثأره، وطل دمه.

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَيْلِ وَالْبَحْرِ ﴾. يعني: في البحر، على ما لطف لهم به من الفلك الجاري بقدرته، في الأمواج التي كأنها الجبال في البر، على ما سخر لهم من أنعامه المطيعة لهم بقدرته، من الإبل والحيل والبغال والحمير.

﴿ وَزَرَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾. يعني: ما تفضل به عز وجل من نفيس الثمار، وجميع الحبوب، ولحوم الأنعام، وصيد البر والبحر، والعسل، واللبن، والماء، والنعم التي لا تحصى، وذلك قوله عز وجل: ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨].

﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾. صدق الله جل ثناؤه، لقد فضل بني آدم على سائر الحيوان، وأعظم عليهم المنه، وأجزل لهم العطية، فله الحمد على نعمه كثيرًا، كما هو أهله ومستحقه.

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ ﴾. يريد بهذا: جميع الخلق، فليس من أحد إلا وله إمام، إما إمام هدى، وإما إمام ضلالة.

﴿ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾. فقد نجا وأفلح، و ﴿ مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ﴾ [الحاقة: ٢٥]. فقد هوى، وصار في سجن لظي، حيث لا راحة ترجأ ولا أسير يفدى.

﴿ فَأُولَٰئِكَ يَفْرَهُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾. والفetil في لغة العرب والمعروف عندها في كلامها وخطابها، والنقير والقطمير، فكل ذلك في النواة موجود، والنواة فهي العجمة التي تكون في جوف التمر، فالشق الطويل الذي يكون في بطن النواة، اسمه عند العرب: الفتيل. والنقير فهو ذلك النقير الذي يكون في وسط ظهر النواة، مثل الخردلة، ومنه يكون انتشار نباتها إذ نبتت. وأما القطمير

فهو الذي يكون على النواة غلافاً لها، وهو قشرة بيضاء رقيقة شديدة الرقة، فذلك القطمير، وكل ذلك تعرفه العرب، وتخطب به وتذكره في لغاتها وأشعارها.

قال الشاعر يذكر الفتيل:

لسنا نسيغكم فتيلاً بعد ما جرت الحكومة بيننا في المقسم^(١)

قال آخر يذكر النقيز:

ما تركنا على الكلاب لقيس يوم رمنا القضاء حقاً نقيراً^(٢)

قال آخر يذكر القطمير:

لسنا نخلف قطميراً لظالمنا ولا تطل دمانا عند أعدانا^(٣)

فذكر الله عز وجل ذلك كله فقال: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾^(٤). وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾^(٥) [النساء: ٥٣]. وقال: ﴿بِمَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾^(٦) [فاطر: ١٣]. أي: أنه لا يضيع عنده شيء، وإن صغر ذلك الشيء، فكان قياس الفتيل والنقيز والقطمير.

﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(٧). يعني: أن من كان أعمى عن الحق في الدنيا، فهو في الآخرة أعمى، أي: حاله في النار حابط العمل، بائر السعي.

وقوله لنبيه عليه السلام: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَةً وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ حَلِيلًا﴾^(٨). فقد قالوا: إنهم وفد ثقيف،

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

وقالوا: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان حاصر ثقيفاً بعد فتح مكة، وهو ذا قُرَّ في ذي القعدة بضعاً وعشرين يوماً، ثم انصرف عنهم، وقال عليه السلام: «نهيت عن قتال ثقيف»، وقد كانوا قتلوا من أصحابه أربعة عشر رجلاً منهم ابن أبي بكر بن أبي قحافة، وعبد الله بن أمية، زاد الركب وهو ابن عمه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأمه عاتكة ابنة عبد المطلب، وهو أخو [أم] سلمة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعبد الله بن عامر بن ربيعة، وعبد الله بن الحارث بن قيس بن عدي بن عطية، وسعد بن سعيد بن العاص بن أمية، فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتاه وفد ثقيف بنو عمير بن عبد ياليل، وقد كانوا أقدوا إليه من كل بطن جلاً لشدة شوكتهم وجراتهم على الله عز وجل، وكان فيهم عشان بن أبي العاص، فأتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فسرَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليه وآله وسلم بمجيئهم، فسألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليه وآله وسلم، أن يمتنعهم باللات سنة، وسألوه أشياء كثيرة، منها:

أن لا تخنى نساؤهم في الصلاة، وأن يُحرَّم واديهم كما حرمت مكة شجرها وطيرها ووحشها. فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى ما يصلح ويجوز من مسائلهم، إلا التمتع باللات، وتحريم الوادي. فجعلوا يردون عليه ويقولون فسنة واحدة، حتى تعرف العرب فضلنا عليهم، فأمسك عنهم في الثانية، ولم يردِّ عليهم جواباً، فدخلهم الطمع فيما طلبوا، فأنزل الله: ﴿لَوْلَا أَنْ يَشْعُنَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾. وقوله عز وجل: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ﴾. يعني بذلك: كيدهم له، وما أرادوا به من الغوائل، فحماه الله عز وجل عن ذلك كله، وأيده بنصره، وحفظه من كيد الظالمين.

وقد جاء في الرواية: أن قريظة والنظر وبني قينقاع، اجتمعوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، حيث هاجر، فقالوا له: يا أبا القاسم إن الأنبياء بعثوا بالشام، وهي بلاد

مقدسة، وأنت قد عرفت مهاجر إبراهيم كان إليها، وكان بها إسحاق ويعقوب،
والأسباط، وعمران يعنون: أبا مريم ابنة عمران، وزكريا، وموسى، وهارون،
وعيسى، ويحيى، وجميع الأنبياء، إلا قليلاً منهم، فلو أنك خرجت إلى الشام
صدقناك، وأماناً بك واتبعناك.

قال فوقع في قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك لما يجب من إسلام الناس.
قال: فأنزل الله عز وجل عليه: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ
مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خَلْقَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾. يقول: حتى يحل بهم الهلاك.
وقوله عز وجل: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ۝﴾. يقول: إن هذه
سنته فيمن كذب رسله، وعصى أمره، فافتري عليه الباطل.

وقوله عز وجل: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ۝﴾. يقول:
لزوال الشمس وهو الدلوك، وفيه تجب صلاة الظهر والعصر، وغسق الليل فهو:
غشيانه وظلمته.

﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ ۝﴾. يعني به: صلاة الفجر.

﴿إِنْ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَتْ مَشْهُودًا ۝﴾. يقول: تشهد ملائكة الليل
وملائكة النهار.

وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ ۝﴾. يعني: القرآن، والتهجد فهو
الصلاة، أي فصل به.

﴿نَافِلَةً لَكَ ۝﴾. يقول: فضيلة لك.

وقد قال غيرنا: إن ذلك فريضة، وليس ذلك عندنا إلا نافلة، فضله بها، ودله
على الرشيد فيها.

﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۖ﴾. وعسى من أن الله عز وجل واجبة، وهو المقام الذي يغبطه الأولون والآخرون، فزاده الله شرفاً، وعَرَفَ بيننا وبينه في ذلك المقام المحمود العظيم، حيث يشاء عليه السلام، فيعطى ويشفع فيُشفَّع.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾. يعني: النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وقد جاء في الرواية: أنه عنى بالمدخل الصدق: مكة، يدخلها بالعز والفتح، والقوة والقدرة، والسلطان، والحجة البالغة على جميع من عانده عليه السلام.

﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾. من مكة إلى المدينة، يقول: لا ألقى إلا مؤمناً ومحباً، ولا ألقى مشركاً ولا كافراً.

﴿وَأَجْعَلْ لِي مِّنْ لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ۖ﴾. يعني: حجة ظاهرة، وتبصرني بها على جميع من خالف أمري.

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾. قال: أمره إذا وقف على الأصنام بمكة تُعبد من دون الله، أن يقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۖ﴾. قالوا: إن ذلك كما يزهد السهم عن نفس الغرض.

فذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فعل ذلك بالأصنام، فخرت ساقطة على وجوها.

وذكروا أن رجلاً من أصحابه كان بعد حين واجه الأصنام، فقال الرجل للأصنام: يا معشر الأصنام، هذا أحمد إن كان حقاً للإله فاسجدوا. قال: فخرت الأصنام على وجوها ساقطة، وأمر بها رسول الله عليه السلام فكسرت.

وذكر أنه كان حول الكعبة ستون وثلاثمائة صنم يوم فتح مكة، فأزاحها عليه السلام كلها، فذلك قوله: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾. فكان الله هو الحق خالق

كل شيء وباريه، يُعبد وحده، ويُكفر بها سواه من الأصنام وغيرها، فأذهب الله عز وجل بمحمد عليه السلام الأصنام، وجميع ما عُبد من دون الله، وعُبد الله وحده، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقوله عز وجل: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، هذه خاصة للمؤمنين، دون غيرهم من أعدائه عز وجل، شفاء لكل عى، وبرؤ لكل داء، وهدى من كل ضلال، ونور من كل ظلمة، ونجاة من هلكة.

﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾. يقول: لا يزيدهم إلا بلاء في الدنيا والآخرة، كما أعرضوا عنه وهم قادرون على اتباعه والعمل به.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بِنِعْمَتِنَا﴾. فالمعرض في لغة العرب هو الصَّاد، والنائي: المتباعد بجانبه، وكل من تباعد فقد نأ.

قال الشاعر:

نأت دارها عنافيأرب ليلة لهونا بسلمي والمبزار قريب^(١)

وجاء في الرواية أنه عنى بهذا النائي بجانبه: الوليد بن المغيرة.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾. يقول: إذا مسه مرض أو فقر يئس من رحمة الله، ولعمري إن الكفار لَيَئُوسُونَ من رحمة الله عز وجل.

﴿كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾. يقول: كل يعمل على طريقته وما يشتهي، ومثل قوله: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلَةٍ أَزْوَاجًا﴾ [ص: ٥٨]. فقال: من مثله، والشاكلة: المثل والشبه.

وقد قالوا: إنه ناحية، والقول الأول أحب إلينا، وهو الصواب عندنا.

(١) لم أفق عليه.

﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾. يقول: إنه أعلم بمن هو أهدى ديناً.
وقوله عز وجل لنبيه عليه السلام: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾. والروح عندنا على معنيين:

أحدهما: جبريل عليه السلام، وقد قال غيرنا: إنه ملك أعظم من جبريل، ونحن نقول: إنه جبريل صلى الله عليه، لقول الله عز وجل: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ ﴿الشعراء: ١٩٣-١٩٥﴾. والذي كان ينزل عليه الوحي، فهو جبريل عليه السلام لا غير، ولذلك قلنا: إنه جبريل دون غيره.

والروح الآخر: فهو الذي به تقوى الأبدان، وهو قوله سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾. فستر الله عز وجل الروح عن خلقه فلا يعلمه أحد، لقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾. ولم يفسره.

وقوله: ﴿وَلَمَّا شَقَنَّا السَّجَّةَ بَالَدَتْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾. يقول عز وجل: لو شئنا لأنسيناك ما أوحينا إليك ولأذهبناه منك، حتى لا تجد منه قليلاً ولا كثيراً، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾. والوكيل فهو المطالب، يقول: لا تجد بذلك علينا تابِعاً ولا راد سواناً، يريد: ليس لك حافظ يحفظك غيري.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾. يقول إن رحمته سبقت لمحمد عليه السلام، وأنه جعله سيد ولد آدم.

﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ﴾ ﴿لَمَّا اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾. يقول: إن اجتمع من خلق الله من خلقه لو اجتمعوا على أن يأتوا بقرآن مثل هذا القرآن، لا

يقدرون على ذلك أبداً، ولو أعان بعضهم بعضاً، وتظاهروا على ذلك وتوازروا.
والظهير في لغة العرب فهو: المعين، والممد، والنصير، والمكاتف.
تقول العرب: ظاهرنا آل فلان على نبي فلان، أي: أعانواهم ونصروهم
وأمدوهم وكاتفوهم، كل ذلك معنى واحد.
قال الشاعر:

تُظَاهِرُنَا بَنُو أَسَدٍ لَأَنَّا وَهُمْ مِنْ خَنْدَفِ لَبِ اللَّبَابِ^(١)
﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا
كُفُورًا ﴾. يعني: ما ضرب لهم من الأمثال النيرة، والدلائل الشافية، فأبى
أكثر الناس إلا كفوراً، يقول: إلا جحوداً.

وقوله عز وجل: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾. أي: لن نصدقك يا محمد، ﴿حَتَّى تَفْجُرَ
لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾. يريد: أنهاراً في جبال مكة وأوديتها.
﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٌ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾.
يقول: خلاها أي: بينها.

﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِشْفًا﴾. يريد: العذاب.

والكسف في لغة العرب فهو: القطع.

﴿أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَكَةِ قَبِيلًا﴾. أو يكون لك بيت من زخرف، يقول:
من ذهب، ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّىٰ تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا
نَقْرُؤُهُ﴾. قالوا: يكون الكتاب من الله إلى فلان بن فلان.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ أي: عَظُمَ وتنزهه، ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾.

وقوله: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ يعني: أهل مكة، ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾ وهو محمد عليه السلام، جاء بالبينات والحق من عند الله عز وجل.

﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾. ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُشُّونَ مَطْمَئِينَ لَنُزِّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾. ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾. يقول: كفى بشهادة ربك الذي أرسلك بالصدق والرشاد، على من خالف أمرك وكذبك شهيداً!!

يقول: كفى به شاهداً عدلاً!!

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾. يقول: فهو السعيد ﴿وَمَنْ يَضِلَّ﴾، يريد: من سواه وحكم عليه بالضلالة بفعله، ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عُمِّيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَا أَوْسَنَهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾. فالأعمى الذي لا يبصر، والأصم الذي لا يسمع، والبكم الذي لا يتكلم، فكَذَلِكَ أَهْلُ النَّارِ لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يَبْصُرُونَ وَلَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا مِنَ الرَّاحَةِ وَلَا الْفَرْحِ، ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: كلما صاروا فحماً أعيدوا خلقاً جديداً.

﴿ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾. يقول: كفروا بمحمد عليه السلام، وما جاء به من الأحكام، والفرائض الراشدة، والحلال والحرام.

وقوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِنْلَهُمْ﴾. يريد: عبيداً آخرين، يعبدونه ويوحدونه، ولا يعصونه ولا يعدلون به شيئا.

﴿وَجَعَلْ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. يريد: لا شك فيه، يعني: أجل الموت، وأجل القيامة.

﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً﴾. بالظالمين هاهنا المشركين، أي: أنهم أبوا إلا جحوداً.

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَنُ قَتُوراً﴾. يعني: خزائن الرزق، الذي لا يملكه أحد، ولا يقدر عليه ملك من الملوك، ولا يطيقه منفق من المنفقين، غير الله ذي القوة تبارك وتعالى.

﴿قَتُوراً﴾. يعني: بخيلاً.

وذلك معروف في العرب، تقول القاتر، والمقتر، والقنور، ذلك كله تعرفه العرب، تقول: فلان قنور، أي: ممسك شديد، أي: بخيل، ومقتر مقل.

قال الشاعر:

وقد علمت هند بأني ماجد وإن حل أضيافي فليست بمقتر^(١)

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾. يريد بذلك: المعجزات التي جاء بها موسى عليه السلام، مما قد قدمنا ذكره في أول كتابنا هذا.

مثل العصا، والبحر، والحجر، واليد، والضفادع، والجراد، والقمل، والدم، وننق الجبل الذي نتقه على بني إسرائيل.

﴿فَسَلِّ﴾. يا محمد، ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾. يعني: بني قريظة والنضير، وبني قريظة والنضير كانوا قريبا منه، مثل عبد الله بن سلام، ومن كان معه من قومه: ﴿إِذْ جَاءَهُمْ﴾. موسى ﴿فِيَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾. ﴿﴾. مثل ما قالوا للمحمد عليه السلام، إنه مسحور وساحر، وقد مضى تفسيرها.

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَنْفِرُ عَوْتُ مَثْبُورًا﴾. ﴿﴾. يعني بالبصائر: الآيات التي ذكرها عز وجل في قصة موسى عليه السلام، من التوراة والأحكام والبصائر الواضحة.

وقوله: ﴿مَثْبُورًا﴾. ﴿﴾. عنى بالثبور: أنه ملعون مخدول.

وقد قال غيرنا غير ذلك، من الكلام الذي لا يحسن ذكره ولا إعادته، لنزاهة موسى عليه السلام عن مثل ذلك القول، الذي قاله من لا فهم له ولا معرفة.

والثبور في بعض اللغة: المشكور أيضاً.

﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾. يعني: فرعون أراد أن يخرجهم من أرض مصر، أو يقتلهم.

﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾. ﴿﴾. وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾. يعني: بيت المقدس وما حوله.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾. ﴿﴾. يقول: من كل موضع.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلُهُ﴾. يقول: أنزلناه حقاً من عندنا، وبالصدق والحق الذي أراده الله من خلقه من طاعته، يقول: بالحق أنزلناه، أي: بحق أنزلناه من عندنا، وبالحق الذي أراده نزل، من الفرائض والأحكام، التي جاء بها محمد عليه السلام، كما قال سبحانه: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. ﴿﴾ [فصلت: ٤٢].

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [٥٤]. يعني: مبشراً لأوليائي وأهل طاعتي، ونذيراً لأعدائي وأهل معصيتي.

﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ﴾. يقول: قرأناه شيئاً بعد شيء، يريد بالناس أي: جميع الخلق كلهم.

وقوله: ﴿ عَلَى مُكْثٍ ﴾. يعني به: مدة تكون من بعد لأمتك يتعاطفون به ويتواصفون لحكمه وشرفه، ويحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويتدبرون عجائبه المحكمة، ودلائله المتقنة، ويقفون عند متشابهه، إذا لم يعلمه منهم من يعلمه، ويؤمنون بكلمه، ويتنهون عما نهاهم عنه، ويقولون كله من حكمة ربنا وتنزيله.

﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ [٥٥]. يقول: شيئاً بعد شيء، يقول: نجوماً بعد نجوم، مثل قوله: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ [الواقعة: ٧٥]. يقول: بنزول القرآن، مثل قول جبريل عليه السلام: ﴿ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ [مريم: ٥٢].

﴿ قُلْ ءَامِنُوا بِعَزَائِكُمْ أَذْهَبُوا الذِّينَ أَتَوْا أَلْعَلَمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ [٥٦] وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ [٥٧] وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [٥٨]. يعني بذلك: قوم محمد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أنهم إن لم يؤمنوا به وجهلوا، فقد عرفه وآمن به من أهل الكتاب من قد سمى، ممن آمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، وصدق بها نزل من عند الله جل ثناؤه، ممن عنده علم الكتاب، لما رأوا من الحق، ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾، حتى تقع جباههم وأذقانهم على الأرض خشعاً لله، خائفين باكين من عذابه، راجين رحمته، متذللين له سبحانه، خاضعين له.

﴿ قُلْ أَذْعُوا اللَّهَ ﴾. يا معشر المؤمنين، ﴿ أَوْ أَذْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾. فقد ذكر في بعض الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال وهو ساجد: «يا الله يا

رحمن». فسمعه أبو جهل اللعين، وكان لا يعرف الرحمن، فقال: محمد ينهانا أن لا نعبد إلهين، وهو يدعوا إلهاً آخر مع الله يقال له: الرحمن. فأنزل الله عز وجل ﴿أَيُّهَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾. يريد: أن أسماء كثيرة وهو الواحد وحده، الفرد لا نظير له، ولا عدل ولا مثيل ولا شريك، عز وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾. يقول: في نفسك، ﴿وَأَتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾. والسبيل فهو: الوسط من الأمر الذي لا يعلي صوته ولا يسره، يكون بين ذلك وسطاً حسناً، لا رفعاً شديداً ولا خفضاً غامضاً.

مثل قوله في سورة الأعراف: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصْصَالِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، فأمره عز وجل في سورة الأعراف بالذكر الخفي، وأمره في سورة بني إسرائيل بأن يتوسط بالصلاة بين الأمرين، كما وصفنا.

وقوله عز وجل: ﴿بِالْعُدُوِّ﴾. فهو: أول النهار.

والأصصال فهو: المساء عند الغروب.

﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. والغافلون فهم: التاركون لأمر الله عز وجل، لأن الغفلة هي الترك.

والترك على وجهين:

عمد، ونسيان.

فالنسيان: مغفور، وصاحبه مُصِحٌّ.

والعمد فصاحبه يعذب عليه.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾. قوله: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾، فهو:

تنزيه لنفسه سبحانه وتعالى.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾. يقول: لم يكن له شريك في ملكه.
 ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾. فينصره من ذل حلّ به، ولا من عدو ثار
 عليه، جل عن ذلك وتقدس.

﴿وَكِبْرُهُ تَكْبِيرٌ أَكْبَرُ﴾. يقول: عَظَمَهُ تعظيها، لأنه العظيم الذي لا عظيم بعده.
 والكبير: الذي لا شيء أكبر منه.
 والعزیز: الذي لا عزیز أعز منه.

فليس يقاس به أحد، ولا يناظره أحد، ولا يقوم له أحد، وهو الأول الذي لا
 يسبقه شيء، والآخر الذي لا غاية له، ولا منتهى يُوقف عليه، وهو مالك يوم الدين،
 ومصداق المرسلين، ومجازي المؤمنين، ومعاقب الظالمين، وهو ديان الدين، وولي
 المتقين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد خاتم النبيين، وآله وسلم تسليما.



تفسير سورة النور للحسن بن أحمد بن يحيى الهادي

تفسير سورة النور للحسين بن أحمد بن يحيى الهادي

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله عز وجل: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾. قال المنتخب عليه السلام: معنى الحسن بن الإمام القاسم ﴿سُورَةٌ﴾ هو: ما انضمت عليه وجمعت معانيه، واتسق تأليفه، وتتابع حروفه. ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ هو: الفرض الذي فيها من الأحكام، والحلال والحرام، والسنن والمنتهى كما ذكره أصحاب كتب الأنساب النظر التحق (طه/ص) فصول الخطاب.

و ﴿بَيِّنَتْ﴾. فيقول: وأضحات منبرات، لطالب الحق والدلالات. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. يقول: لتذكروا ما يجب عليكم من الأمر، وتحافوا الغفلة عن الذكر، و ﴿لَعَلَّ﴾ كلمة للعرب تقيمها في بعض كلامها مقام الشك، وفي بعضه مقام الإيجاب.

قال الشاعر:

أرني جواداً مات هزلاً لعلني أرى ما تُريني أو بخيلاً مخلد^(١)
﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾. ﴿الزَّانِيَةُ﴾ هي: للفقير غير تزويج، ولا عقد نكاح، على ما وقعت به شرائط الحلال.

(١) البيت: للأسود بن يعفر النهشلي، شاعر جاهلي من سادات تميم من أهل العراق، كان مضجاً جواداً، ولما أسن كف بصره، ويقال له أعشى بن نهشل.

﴿وَالزَّانِي﴾ فهو: خذنها، والفاعل كفعلها، وهذه الآية التي في جلد الزاني، محكمة غير منسوخة.

قوله: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾. يقول: لا تأخذكم بهما رحمة في أمر الله، وفيها حث على إقامته عليهما.

قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. يقول: إن كنتم تصدقون ﴿بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. يريد: يوم البعث والحساب، وما أعد فيه من الثواب الدائم، والعقاب اللازم.

اسمع أيها الطاعن في آيات الله، والمضيف المنكرات إلى الله، كيف نهى وأمر وحذر وزجر، وأعذر وأنذر، ولم يأخذ أحداً بغير ما عمل واجترح، ولا بسوء ما قدم وكدح، إذ كان لا يسمى الزاني: زانيا حيث يوجد في الأرض، حتى يأتي من الفح، ما يغير به مرسوم الفرض، وكم من آية تشهد مبرهنة للدليل، وموضحة للتنزيل، على أن الله لم يظلم ولم يغشم، ولم يُعِن عاصيا فيما ارتكب، وإنه لا يحمل على فعل ثم يعذب عليه، ولا على أمر ثم يؤاخذ فيه، تنزه الله وتقدس وعلا عما ينسب إليه المبطلون.

قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. يقول: ليشهدوا إقامة العذاب عليهما، والعذاب هاهنا فهو الحد، والطائفة فهي: الجماعة الملمة بالموضع، المقيمة على المكان الواحد.

وقد قيل: إن أقل الطائفة في هذا الموضع ستة وأكثر، على قدر إمكان الجماعة. قوله: ﴿وَالزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾. يقول: لا يطاوعه على الزنا إلا زانية أو مشركة، تفعل مثل فعله، وتستخف بالحكم مثل استخفافه، وكان أهل الشرك على غير ديانة ثابتة، ولا طريقة مستقيمة، ولا حفظ كتاب ولا سنة.

قوله: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾. يقول: لا يطاوعها على الزنا إلا زان أو مشرك، كمثل حالها في الفسق والكفر والشرك.

وقد يقال: إن هذا أنزل في قوم استأذنوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ينكحون نساء مشهورات بالفجور، من الإماء ومن اليهود.

وكان هؤلاء من أصحاب الفقر، فهم فقراء، فنهاهم الله فانتهوا، وإننا أرادوا أن يتبَلَّغوا بأموالهم، وظنوا أن ذلك يحل، فمنعهم الله عنه فامتنعوا.

قوله: ﴿وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾. فمعنى ﴿حَرَّمَ﴾: حظر، ولم يُطْلَق لهم فعله.

وقوله: ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، فإنما هو من الكلام الذي يخرج يخرج الخصوص في اللفظ، ويجري مجرى العموم في الحكم، ولو كان هذا لم يحرم إلا على المؤمنين، لكان قد أطلق للكافرين، ومحال أن يحرم الله على متعبدين أمراً في ساعة واحدة، ويحله في ساعة واحدة، ولكنه ما مدح به المؤمنين، وهو محرم على جميع من خصه الأمر والنهي من البالغين، بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾. و ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾: العفاف المؤمنات، والمحصنات أيضاً: ذوات الأزواج.

قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ على قذفهم، ومعنى ﴿يَرْمُونَ﴾ هو: يقذفون. قال الشاعر:

رموني بحدثم زكوا شهادتي وكيف يرد الدر في الضرع حاله^(١)

(١) لم أعثر عليه.

﴿ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [١] الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [٢].
يقول: إذا تابوا وأصلحوا، وندموا على بهتانهم، وما كان من خطاياهم، كفر ذنوبهم وعطف عليهم برحمته، يقول: فاقبلوا شهادتهم، وقد زعم قوم أن الشهادة لا تقبل أبداً، وإذا زاحت الشهادة للجرحة البينة والكذب الواضح، وجب القبول للتوبة والصدق الصحيح.

وقد يروى أنه قيل: «توشكون أن تعرفوا خياركم شراركم، بالثناء القبيح، من الثناء الحسن».

قوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ﴾. يقول: يقذفون أزواجهم بالزنا.

يقال: «إن هذه الآية نزلت في عاصم بن عدي وامراته، يقال: أنه وجد شريك بن عبده عليها، وكان ضيفه، فقص على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القصة. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: بيتك وإلا فالجلد. فقال: رأيت عيناى، وسمعت أذناى، ما كان الله ليجلد ظهري. فقال الأنصار: يجلد العشية، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أبشر قد أنزل الله فيك وفي صاحبك، ثم تلا عليه: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ﴾ ... » إلى آخر القصة، ثم لاعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بينهما، بعد أن رده على شهادته، وردها على شهادتها.

ولو نكل عن شهادته وقوله لحدّه في قذفه، ولم يكن عليها حد، ولو نكلت عن شهادتها لحدّها ولم يكن عليه حد، وهذه الملاعة لا تكون إلا بين يدي الحاكم، لأنها فرقة لا يرجعان بعدها، والولد إن كان ولدًا، ولدٌ الملاعة ينسب إلا أمه، ولا ينسب

إلا أبيه، وعصبته عصبه أمه، يرثهم ويرثونه على مجرى السهام.

فإن كان اللعان وقد دخل بها، فعليه المهر كاملاً، وإن لم يكن دخل بها فلها نصف المهر، وإن قذف هذه الملائنة قاذف، ولم يأت على قوله بأربعة شهداء جُلد بها الحد، وكذلك إن عاد الزوج بعد الملائنة والفرقة لها بالقذف جلد لها، والملائنة فقد تقع بحمل وبغير حمل.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾. يقول: تاب عليكم فستركم بما أظهر من براءة هذا الصادق، والمخرج الذي جعله له، وأجره حكماً فيمن قال كقوله.

﴿حَكِيمٌ﴾. يقول: ليس في تدبيره تفاوت ولا فساد، وفضل الله فلا يحصى ولا يُوقف له على حد، غير أن من فضله في هذا الموضع ما أراح من الحدود الواجبة بالأبيان، وأظهر من الحكم بالدعوى مع اليمين، إذا عدت البيئات، ووقعت الشبهات.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾. فالإفك: الكذب والبهتان، والزور من الشهادة والعدوان، في قذف الرجال والنسوان، وفي غير ذلك من المعاني.

﴿عُصْبَةٌ﴾، والعصبة الجماعة من العشرة، فما قاربها وزاد عليها. وسميت العصبة باجتماع بعضها إلى بعض، وكانت هذه العصبة من المهاجرين والأنصار.

قوله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾. يقول: لا تعدوا هذا القذف شراً لكم، بل هو خير لكم، لما في عاقبته من البيان والحكم، والرحمة والعلم، وما يتلى في البراءة منه من القرآن، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فتراث الله زوج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأظهر طهارتها من قذف القاذفين، وعيب المرجفين، وهتان المعتدين، فتاب من كان صاحب شك، وازداد هلاكاً

وحسرة من كان صاحب إفك، على المعاندة لليقين والترك، وعظمت المنة فيما أنزل الله، وارتدع الخائفون، وزال الشك، وغلب الحق، وبطل ما زوروا من الكذب.

وقوله: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. معنى ﴿أَكْتَسَبَ﴾ يقول: اقترف وارتكب من الإثم والزور والحرام.

قوله: ﴿الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾. يقول: كان صاحب القول العظيم، فيقال: إنه عبد الله بن أبي سلول.

وهذه القصة نزلت في عائشة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم، في غزوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقد نزه الله أثوابها من العيب، وصان جيبها عن هذا الريب. والذي رُويت به صفوان بن المعطل السلمي، يقال: إنه كان رجلاً حصوراً لا يصل إلى النساء، وكان رجلاً صالحاً، وقتل شهيداً.

وذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خرج غازياً في حر شديد، وكانت معه عائشة، وكان صفوان بن المعطل إذا سار النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسار المؤمنون من مبيتهم، مكث حتى يصبح فينظر ما أسقط الناس من متاعهم في منازلهم إذا ارتحلوا، فيحمله، فتقدم به العسكر فيعرفه فكان يفعل ذلك، وأن عائشة لما نودي في الناس بالرحيل، رحل بها جملها، فركبت ودخلت هودجها، ثم ذكرت قلادة لها من جزع، فنزلت ولم يشعر صاحب الجمل، وكانت خفيفة الجسم، حدث السن، فلم يتبين ثقل الهودج من خفته لقائده، فبعث الجمل وسار ولا يدري إلا أن عائشة في هودجها، فساروا حتى نزولاً بعدما أصبحوا وعائشة في أثر الجمل، بعدما أصابت قلادتها وسبقها الناس، وأصبح صفوان بن المعطل في الدار يتلمس ما أسقط الناس، ثم ركب بعيره وانطلق يسير على آثار الناس، فإذا بعائشة تمشي، ولما سمعت الجلبة

من خلفها غطت وجهها، فقال صفوان - وكبر ذلك عليه وضاق به ذرعاً - ولم يجد بداً أن يقول: ما شأنك يا أم المؤمنين؟ حدثيني الحديث على وجهه! فحدثته فأنها بيعيره، فأقسم عليها لتركن الرجل، فأبت عليه، فركبت عجز البعير تسترا، وركب ابن المعطل الرجل، ونزل الناس وفُقدت عائشة، وضرب لها من كل وجه، ولم يعلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بفقدها، فدخل علي بن أبي طالب عليه السلام على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله إن عائشة قد فُقدت، ولا ندري أين ذهبت، فبنا هم كذلك إذ طلع عليهم صفوان مردفاً عائش، فرماها ناس، منهم عبد الله بن أبي سلول، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثانة، فضرب النبي صلى الله عليه وآله وسلم عبد الله بن أبي سلول، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثانة، ويقال: إنه ضرب حمّة ابنة جحش حد القذف.

وأكذب حسان بن ثابت نفسه، فقال في عائشة:

حَصَانٌ رَزَانٌ لَا تَزْنُ بِرِيَّةٍ وتصيح غرثى من لحوم الغوافل
لأن كنت أهجوكم كما قد زعمتم فلا رفعت سيوطي إلي أنامل
وكيف وودي ما حييت ونصرتي لآل رسول الله زين المحافل^(١)

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شديد الغيرة، فقال: لا تدخلن عائشة لي رحلاً، فلما انتهت إلى منزل النبي صلى الله عليه وآله وسلم خرج علي بن

(١) في الديوان:

حسان رزان ما تزن برية وتصيح غرثى من لحوم الغوافل
فإن كنت أهجوكم كما قد زعمتم فلا رفعت سيوطي إلي أنامل
فإن الذي قد قيل ليس بلا نط بك الدهر بل سمي أمرى بك ماحل
وكيف وودي ما حييت ونصرتي لآل نبي الله زين المحافل

أبي طالب عليه السلام فقال لها: إن النبي قد بلغه عنك الذي يكره، فالخفي بأهلك.
فاسترجعت عائشة ثم خرجت تبكي حتى أتت رحل أبيها أبي بكر، فقال لها:
مالك يا عائشة؟

فقالت: أخرجني النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

قال أبو بكر: فأنا أحق أن أخرجك، لا والله لا تدخلين رحلاً حتى ينزل الله
عذرك إن كان لك عذر، أو يرضى عنك النبي صلى الله عليه وآله وسلم. فانطلقت
تجول في العسكر لا يؤمها أحد من الناس، وهي تدعو الله وتبكي وتساله أن ينزل
عذرها وبرأتها، فنزل جبريل عليه السلام بعذرها من الله، وعاتب المؤمنين في الذي
خاضوا فيه من أمرها، وجعل اللعنة على من ﴿تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.
فقال سعد بن معاذ الأوسي - أحد النقباء - حين سمع ذلك من الناس:
﴿سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾.

قوله: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾. يعني: فهلا إذ سمعتموه، فوعظهم الله أن
يعودوا لمثله أبداً، إن كانوا مؤمنين، فلما أنزل الله عذرها، أرسل إليها نبي الله،
فانطلقت البشري إلى أبي بكر بالذي أكرم الله به عائشة، وأنزل من عذرها، فأرسل
إليها أبوها، فقال: لكن الله علام الغيوب، فحلف أبو بكر وأناس من أصحاب
النبي صلى الله عليه وآله وسلم - وساءهم الذي كان - والله لا نفع رجلا من
الذين قالوا لعائشة معاً قالوا، وما نصلهم ولا نوفقهم، وكان مسطح بن أثاثه بينه
وبين أبي بكر قرابة من قبل النساء، وكانت به فاقة، وأقبل مسطح إلى أبي بكر،
ليعتذر إليه، فقال مسطح: أي خال، جعلني الله فداك، والله الذي أنزل الكتاب على
محمد ما قذفتها، ولا تكلمت بشيء مما قيل لها.

فقال أبو بكر: ولكنك قد أعجبتك الذي الذي قيل لها.

فقال: لعله قد كان بعض ذلك، فأنزل الله في شأن مسطح: ﴿وَلَا يَأْتِلْ أَوْلُوا
الْفَضْلَ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾. يقول: لا يحلف أولوا الفضل منكم والسعة ﴿أَنْ يُؤْتُوا
أُولَى الْقُرْبَى﴾.

قوله: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾. يقول:
لم يزولوا عن يقينهم الذي علموه بخير لا يشبوه، ولا يعلمون باطنه، ﴿وَقَالُوا
هَذَا أَفْكٌ﴾. يعني: كذب وزور وهتان، لا ترد الحقائق بالشكوك والظنون.

قوله: ﴿لَوْلَا جَاءَ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ قُلْتُ لَكَ عِنْدَ
اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾. يقول: فهلا جاءوا عليه بأربعة شهداء إن كانوا
صادقين، ففرق عز وجل بين الخير والشهادة، إذ لكل واحد منهما وجه على صاحبه،
والشهادة لا تكون إلا علم، وكثير من الأخبار قد تكون عن الحدس والظن والرجم
والتوهم، والخير الضعيف الذي لا يصدق عند الفحص والنص، ﴿قُلْتُ لَكَ عِنْدَ
اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾. معنى: حكمهم عند الله الكذب.

قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا
أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. تهدد للسامعين التاركين للنكير، المصغين إلى
القائلين، المنصتين إلى أخبار المجترئين في الطعن على المؤمنين، وإيجاز شهادة
الشاهدين، إذا أنت على اليقين، وهذا في أمر عاتشة، وخوض من خاض في قذفها،
وسمعة ولم يغير ولم ينكر.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾. فالمحصنات فهن العفاف.

﴿أَلَمْ تَكُنْ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾. فيعني: نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم بهذا
القول خاصة، لأنهن غافلات عن الفواحش، وعن من يقذفهن بها، وهذا لمن كانت
من النساء غافلة، شرط لا يمنع منه.

قوله: ﴿لَعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. يقول: حكم عليهم باللعة، واللعة فهي: [في] الدنيا الحدود، وإسقاط الشهادة ما لم يتوبوا. واللعة في الآخرة العذاب، تهديد للنساء معين.

هذا ومسطح بدري مهاجر، وحسان محله في مدح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومكانه من الأنصار ووسطه في الدار مشهور، وحنة فقرابتها من رسول الله قرابتها.

ألا تسمع كيف شهم عليهم بالإفك والبهتان والزور والكذب، بقوله: ﴿سُبْحَنَكَ﴾. يعني: تنزيها لك براءة من العيب.

قال الأعشى: أقول في معنى ﴿سُبْحَنَكَ﴾ أنها براءة من الشيء.

أقول لما جاءني فخره سبحان من علقمة الفاخر^(١)

أي: براءة من علقمة الفاخر، وتنزيها.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفُحْشَةُ فِي الدِّينِ ءَامِنُونَ﴾. يقول: يظهر فيهم القول القبيح.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. يعني: دائم الألم.

﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾. ففي الدنيا الاتباع بالقول القبيح والتأديب والضرب، وفي الآخرة تحت أطباق الجحيم.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. يقول: هو العالم بالأمور كلها لا بتعليم، وأنتم تظنون الأمر في ذلك سهيلا، وهو عند الله عظيم.

(١) البيت للأعشى، ميمون بن قيس بن جندل من بين قيس بن ثعلبة الوائلي أبو بصير، المعروف بالأعشى. وهو في ديوانه هكذا:

أقول لما جاءني فجره سبحان من علقمة الفاخر

قوله: ﴿يَسْأَلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾. وخطواته: زلله وخطياته، وما دعا إليه الناس من الأباطيل والوسوسة.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾. يقول: من يتبع أمره وزلله ﴿فَإِنَّهُ يُأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾. خير بها يأمر به إبليس، وأن مراده والجنس الذي يدعو إليه المعصية.

قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾. يعني: القاذفين والمستمعين الراضين، والخائفين المحيين لذلك.

﴿مَا زَكَا﴾. يعني: ما طهر.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾. لا يزكي ولا يطهر إلا من استحق التزكية. وهذه تزكية الحكم والتسمية.

وقوله: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ من الناس.

﴿وَالْخَبِيثُونَ﴾ من الناس ﴿لِلْخَبِيثَاتِ﴾ من الكلام.

﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾ من الكلام ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ من الناس.

﴿وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾. يقول: الطيبون من الناس للطيبات من الكلام.

والطيب من الكلام فهو الصواب المبين، والحق الحسن الجميل، والخبيث من الكلام الفاحش المتروك المذموم. ألا تراه يقول: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

قوله: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِنْكُمْ يَقُولُونَ﴾. يقول: ما يقال فيهم.

وقد يقال: إن الطيبين هم الذين لم يخوضوا فيها خاض فيه الآفك، ولم يسمعوا له استماع قبول ولا تصديق، فبرأهم الله من المذمة التي لحقها غيرهم.

﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾. يقول: غفران بحسن ضمايرهم.

﴿وَرَزَقْ كَرِيمٌ﴾. أي: جزاء على أفعالهم.

وقد يقال غير ذلك. وهذا أصح الأقوال عندي.

قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى

تَسْتَأْذِنُوا﴾ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾. يقول: الذين صدقوا بأعمالهم، ﴿لَا

تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾، فالاستئذان: الاستئذان

بالنحنة، والتسبيح والكلام، والقول بين القولين.

قوله: ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

يقول: وتحبوا أهلها بالسلام، والسلام هاهنا: التحية.

قال الشاعر:

ألا يا نخلة من ذات عرق عليك ورحمة الله السلام^(١)

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. يقول: لتذكروا ما يجب عليكم.

قوله: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾. لغيبة أهلها عنها. ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى

يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾. فهو أن يكون رب المنزل قد أذن لضييفه، وللوارد من أهله أن

يدخل إلى منزله، إذا لم يكن فيه.

قوله: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ﴾ إذا كان أهلها فيها. ﴿أَرْجِعُوا فَأَرْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾.

يقول: انصرفوا فهو أطهر لكم، يقول: أنفى للريب، وأحسن في الأخلاق.

(١) البيت لأبن الوردى، عمر بن مظفر بن عمر ابن محمد رأس الفوارس، شاعر أديب مؤرخ.

والبيت بهذا اللفظ:

لقد أصبحتا طرفي نقيض ألا يا نخلة من ذات عرق

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾. يقول: عليم بما يكون منكم عند الأذن، وعند الرد، وعند غيبة أهل البيت. فحذّر في جميع هذه الوجوه وأنذر.

قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾. يقول: ليس عليكم ضيق ولا جرج ولا إثم. ﴿غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ﴾ فهي المنازل والأسواق، وغير الأسواق وعلى طريق الرفاق.

والمَتَاعُ فهو: البلغة والإستار من البرد والحر والأمطار. وقد يكون فيها متاع من أمتعة الحرم.

قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾. يعني: تظهرون وتسترّون. وقوله: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾. فهذا أمر من النبي صلى الله عليه وآله وسلم لمن اتبعه من المؤمنين، ومن وصل به خيره من الخلق أجمعين: أن يغضوا أبصارهم، ولا يُحْدُوا النظر إلى ما حرم الله عليهم، وغض البصر فهو كسره عن النظر.

قال الشاعر:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً^(١)

يقول: اخفض بصرك ممن لا يجوز لك أن تنظر إليه.

قوله: ﴿وَيَحْفَظُوا أَرْوَاجَهُمْ﴾. فهو رعايتها وصيانتها من الحرام، وما قد نهي عنه من الآثام. وحفظ الشيء صيانتُه عن التضييع وإحرازه.

(١) البيت لجريز بن عطية بن حذيفة الخطفي بن بدر الكلبي البربري، أبو حرزة، من تميم، أشعر أهل عصره. ولد ومات في اليمامة.

قوله: ﴿ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾. يقول: أظهر لقلوبهم وأعمالهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾. حذرهم وأنذرهم أن يفعلوا الفاحشة، سرّاً ولا علانية، وجعل من ذلك الحلال بدلاً وكفاية، وسترة ورحمة.

قوله: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾. فالجواب في الرجال في هذا المعنى هو الجواب في النساء سواء.

قوله: ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾. فهذه خاصة هن من بين الرجال. يقول: لا يظهرن زينتهن.

﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾. والزينة المواضع الممنوعة من الأيدي، كالخلي والخاتم والخضاب، وموضع القلادة، وما توارى الثياب.

قوله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾. فالخمر: جميع ما خر به الرأس وغطاه، والخمر: الغطاء من الثياب والشجر.

وكن يبدین النحور، ولا يسترن الصدور، فعلمهن الله كيف يلبسن.

قوله: ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾. هو الشعر وما أشبهه من البدن، مما يجوز أن يراه الابن والأخ والحمأ وأشباههم.

﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾. والبعل: الزوج المالك.

﴿أَوْ آبَائِهِنَّ﴾. والخطاب فحمل في جميع الآباء من الرضاة والنسب.

﴿أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾. فهم أبناء زوج المرأة.

﴿أَوْ إِخْوَانِهِنَّ﴾. فهم الأخوة.

﴿أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾. كذلك.

﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَالِكَتِ أَيْمَنَهُنَّ﴾. يريد: من كان غير بالغ من الخدم.

﴿أَوِ التَّائِبِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾. ﴿غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ﴾ فهم:

الذين لا أرب لهم في النساء من الرجال، من هُزم مذهب، أو مرض شاغل.

﴿أَوِ الطَّافِلِ الْأَيْمِ لَمْ يَطْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ﴾. فهم الصبيان الذين لا يعرفون مواضع العورة من النساء.

قوله: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾. كن نساء يلبسن الخلاخل في أرجلهن، فإذا مررن بمجلس ركضن بأرجلهن، فسمع صوت الخلاخل، فسمعهن أهل الرب، ويعلمون أنهن متبرجات غير عفيفات، فأدب الله النساء بأدب حسن، ووقفهن على هدى كريم، فيه التستر والخفر.

قوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. أي: يقول: أيها المصدقون، يقول لهم: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقِلْهُو﴾. أي: لتفعلوا، خوفاً المؤمنين أن تكون بهم أمور لا يعلمونها، فأمرهم بالتوبة منها.

وقد روي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إني لأرجو أن أكون أملككم لأربه، وإني لأتوب إلى الله في اليوم والليلة مائة مرة». هذا من لطف النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأمرته، رافة بهم وشفقة وكريم خلقه، ومبين دلالته على الخير ودعوته.

قوله: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَ مِنْكُمْ﴾. ﴿الْأَيْمَ﴾: اللواتي لا أزواج لهن.

وروي أن امرأة أتت إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فقالت: امرأة لا أيم، ولا ذات زوج، في شكوى لزوجها يطول ذكرها.

إذا جئت تبغي أيماً عن جهالة تراها بها فانظر أباهها وخاها

قوله: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ﴾. فهم: المؤمنون من الرجال.

وقوله: ﴿وَأَمَّا بَكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٤٠). فاطلق تزويج الإماء، وتزويج الفقراء، بقوله: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾. عطف بهذا القول بعضهم على بعض.

يقول: لا تمتنع من تزويج الفقراء، فإن الله يغنيهم من فضله، ولا تزهد في المرأة لفقرها، وارغب في صلاحها.

كما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «تزوج المرأة لجمالها، تزوج المرأة لنسبها، تزوج المرأة لمالها، تزوج المرأة لدينها، فعليك بذات الدين تربت يداك». ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٤١). في العطاء والرزق، بمصالح الخلق.

قوله: ﴿وَلَيْسْتَ عَقِيفٌ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾. يقول: لا يقدرُونَ عليه لما هم في من قلة، وإعجاز مقدرة، ﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾. أمره بالصبر على وقت الإمكان والجدّة.

والإستعفاف فهو: الإمساك عن الطلب بالمسألة واليد والحيلة، والكف عن الأمر المحرم.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ أَلْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾. فهؤلاء المالك الذين يطلبون المكاتب، وليس هذا بأمر فرض، ولكنه أم ندبة وترغيب.

قوله: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾. يقول: إن كان عندهم أمانة، ولهم وفاء، ولكم في ذلك صلاح.

وأما قوله: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾. يقول: أعينوهم من مال الله الذي رزقكم، ويقال: أعينوهم بترك ما عليهم من المكاتب، وهذا على التفضل والإحسان، وليس بفرض.

وقد ضرب الله لهم في سهم الرقاب من الزكاة المفروضة.

قوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾. وهذا أن يقول الرجل: لا أزوج حرمتي إلا من ذي شرف ومال، ويسار وحسن حال، فيدعوه المنع من التزويج إلى ما حرم الله عليها، فنهاه الله عن تعريضها للفتنة، وأمره بتزويجها.

والفتاة: المرأة التي لم تزوج الحدة، والإحسان إليهن والتأدب بأدب الله خير من حية الجاهلية. والبغاء: الزنا المشتهر بعلامة تكون لصاحبه.

وروي أن فتيات كن بالمدينة أتين إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلن: يا رسول الله، إن أهلنا يكرهونا على الزنا، فنهى عن ذلك. يقول: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾، يعني: تعففا وتسترا من الفاحشة.

والأول أشبه التأويلين، لأنه لا يحل للأمة أن تزني ولو أن مولاها لم يكرهها على ذلك، والنظر يؤيد القول الأول.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ﴾. ف ﴿أَنْزَلْنَا﴾: أهبطنا، والآيات من القرآن، و ﴿مُبِينَاتٍ﴾: واضحات منيرات.

قوله: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾. يقول: وضربنا لكم الأمثال من الذين خلوا من قبلكم. و ﴿خَلَوْا﴾: فهو: مضوا وتقدموا.

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾. يقول: تذكرة وتخويف لمن يتق الله ويخافه من المتعبدين.

وقوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. فهو: المظهر للحجج القاهرة، والأعلام النيرة الباهرة، والدلالات الواضحة المنتشرة. مما يدل به رب البرايا، ومنشئ الأشياء، ومبين الحق، والقائم بالقسط، وأنه منير السماوات والأرض

بذلك، لا على أنه نور من الأنوار فتضاده الظلمة، ونحوه الأمكنة، ونحوه الأزمنة، ليس بنور ضوء فيزول، ولا بنور حر فيحول، ولكنه الدال بالحق المبين، الذين لا شبهة فيه، ضربه مثلاً، حيث يقول: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾. ولم يقل: مثله، إذ لا مثل له، ولا شكل، ولا شبه، ولا عدل.

والنور يخرج في كلام العرب مخارج كثيرة، منها:

أن يقال: كلام فلان نور، وقوله نور، وفعله، والفعل والقول ليسا بنور، إلا على المثل السار، والله لا تلحقه صفات الحدث، ولا تدركه الحواس ولا الفكر.

قال الشاعر:

وقد جاء نور في الكتاب مبيناً جلا الشك عنا والضلال فنوراً^(١)
قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكُورٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾. يقول: مثل احتجاجة وبرهانه، وتبيينه لخلق الدليل، ونصب السبيل، ﴿كَمِشْكُورٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾، والمشكاة: الكوة الضيقة غير النافذة، وإذا كانت كذلك كان أقوى لضوء المصباح، والمصباح السراج المتوقد في الذبال المفتول.

قوله: ﴿أَلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾. فالزجاجة: القنديل، استغنى باسم الزجاجة عن القنديل، لمعرفة المخاطب بذلك.

قال امرؤ القيس:

نظرت إليها والنجوم كأنها قناديل رهبان تشب لقفال^(٢)

(١) لم أعثر عليه.

(٢) البيت لأمرئ القيس.

والبيت بهذا اللفظ في الديوان:

مصاييح رهبان تشب لقفال

نظرت إليها والنجوم كأنها

قوله: ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾. يقول: أبيض شديد البياض، يشبه بالدر وهو اللؤلؤ.

قوله: ﴿يُوقَدُ فِي النَّارِ، مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ﴾. ثم خبر ما هي وفسر، فقال: ﴿زَيْتُونَةٍ مَبْرُكَةٍ، يقول: بارك فيها فأخرج منها حلها تاما صافيا، لا فساد فيه، ولا تغير في حبه.

قوله: ﴿لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾. يقول: لم تكن في ظل المشرق، ولا ظل المغرب، فيستولي إحدى الجهتين، وتنسب إلى إحدى الناحيتين، صحت للشمس، وصحت من كل آفة.

قوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾. يقول: نور الزيت الصافي من السواد والعكر، والمستخرج من خير معدن ومعتصر، ونور النار الممدة بخير الأدهان الموقدة، في أحرز مكان، المصفاة من الشواظ والدخان، ونور الزجاجاة المصفاة من الجوهر النفيس، الخالص من اللون اليس، فكَذلك حجج الله وآياته وبرهانه، ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾، وبيان لأهل السماء والأرض، ومفصل للحق والفرض، فهو لأهل السماء برهان وعليهم حجة، ولأهل الأرض نور وعليهم حجة، وفيما بين ذلك نور وحجة، فكل ذلك ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾.

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾. يقول: لدينه من اهتدى، يزيد من اهتدى هدى، لأنه يشاء أن يهدي المهتدين، ويضل الضالين، فهدى المهتدين بهداهم، وأضل الضالين بضلاتهم، وذلك قوله: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَاتَّبَعَتْهُمْ ثَقُوتُهُمْ﴾ [عند: ١٧]. أي: عَرَفَهُمْ ما يتقون، ويضل الله الظالمين، وهذا مثل ضربه الله للدين، فقال: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثِلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. يقول: هو العالم بالأشياء كلها، لا يخفى عليه شيء منها.

قوله: ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ ﴾. هن المساجد التي تبني للذكر، ودراسة العلم، والصلاة، وتعلم الخير، ورفع البيوت فهو بنانيها وعمارتها، و ﴿ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ ﴾، يقول: أذن أن ترفع.

﴿ وَيُذَكِّرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْعُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ ﴿١٠﴾ رِجَالٌ لَأُتْلِهِيهِمْ بُحْرَةَ وَلَا يَبْتَغِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ ﴿١١﴾. ﴿ وَيُذَكِّرَ فِيهَا أَسْمُهُ ﴾: يذكر بها يجب من التنزيه والمدح، والتسبيح والذكر.

في ﴿ بِالْعُدُوِّ ﴾: أول النهار.

﴿ وَالْآصَالِ ﴾ ﴿١٠﴾: وقت العشاء.

﴿ رِجَالٌ ﴾: قوم من المؤمنين.

﴿ لَأُتْلِهِيهِمْ بُحْرَةَ وَلَا يَبْتَغِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾. فالتجارة والبيع في البضائع التي تباع وتشترى، والصلاة والصوم فما لا يجهل معرفته.

﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ ﴿١١﴾. يقول: يوم البعث الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار، حالاً بعد حال، على قدر الحوادث والأحوال، والحساب والأحوال.

والصلاة والصيام فاحفظوا حدودهما، وأثوابها على رسومها.

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُتْهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَخَسِبُهُ الظُّلُمَاتُ مَاءً ﴾. والسراب: هو الذي يطرد في حر الشمس على وجه الأرض ورقاقها، وفي الفياضي وخروقتها، وفي القيعان وفلواتها، كأنه ماء للناس العطشان، والصدى الضمآن.

والقيعة: فالמושع من الأرض لا نبات فيه، فبكسر حر الشمس الواقع بمطرده السراب.

و ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً﴾. يقول: بحاله ويظنه ماء، لغروره وجهله.

قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّيْنَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ﴾، مثل الكافر المغرور، أنه إذا أتى على عمله، لم يجده شيئاً، كما أن الآتي إلى السراب لم يجده شيئاً، وهو شيء في نفسه ينظر، ولكن لم يجده ما كان يُتوهم من الماء، كذلك من عمل يغير بصيرة، وركب الهوى، وترك الهداية.

قوله: ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّيْنَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. فإنه وجد أمر الله عند حقيقة اليقين، أن عمله باطل عندما صار إلى الله فوفاه حسابه، يقول: حاسبه حساباً سريعاً لا يشغله شأن عن شأن.

قال الشاعر:

وداوية قفر قطع نياطها ضحى وقرن الشمس بالآل تطفئ^(١)

قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرْدُهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾. فهذا مثل مضروب أيضاً للكافر.

أما البحر اللجي: فالكثير الماء، البعيد القعر.

والموج: فهو الذي تصفقه الرياح في الماء، يكون في البحر اللجي كأمثال الجبال.

﴿مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾. يقول: من فوق البحر غمام.

﴿ ظَلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾. يقول: ظلمة السحاب، وظلمة الموج، وظلمة البحر.

﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ رَنَّهُ ﴾. يقول: لم يرها أصلاً.

و ﴿ لَمْ يَكْذِبْ ﴾: على التقديم في اللفظ، والتأخير المعروف في لغة العرب، وكذلك الكافر لا يرى ثواب ما عمل، إذا كان لغير الله عمله.

﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾. يقول: من لم يؤته الله ثواباً على عمله، فما له من ثواب.

وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْطَّيْرِ صَبَّحَتْ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾. يقول: ألم تعلم أن الله يسبح له من السماوات والأرض؟! فالتسبيح: التنزيه لله. والتسبيح: الصلاة.

فمن كان من المأمورين المنهين من الملائكة والنبين والإنس والجن أجمعين، فسبح وصلى، فإن الله عليم بفعله، غير مضيع حقه فيه، ومن لم يسبح لعته وكفره، أو لبلهه أو صغره وعجزه، أو كان غير ناطق، أو كان مواتاً، فأثار الصنعة فيه ثابتة، وهو بالخضوع والمذلة لله شاهد على نفسه بالربوبية، فقد دخلوا جميعاً في التسبيح والخضوع من هذه الجهة، لأن الصلاة قد تصرف على غير الركوع والسجود، وتكون ممن لا يفعل الحمد، كما قال الله سبحانه: ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن: ٦]. قال الشاعر:

بجيش تصنل البلق في حجراته ترى الأكمل منه سجداً للحوافر^(١)

(١) البيت لزيد الخليل الطائي، زيد بن المهلهل بن منهب بن عبد رضا، من ظي كتيبه أبو مكعب، من أبطال الجاهلية لعن زيد الخليل للكثرة طيلة، أو لكثرة طراده بها، كان طويلاً جسيماً من أجهل الناس.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. فهو المالك الذي لا مالك لها غيره، ولا خالق لها سواه، ولا إله إلا هو العزيز الحكيم.

وقوله: ﴿وَالِىَ اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾. يقول: المرجع والمآب في الآخرة.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِى سَحَابًا﴾. يقول: يُسَيِّرُ سَحَابًا.

﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾. يقول: يجمع بعضه إلى بعض.

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾. بعضه فوق بعض، وهو السحاب الغليظ الكثيف المثقل بالماء.

وقوله: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾. الودق: الغيث.

﴿مِنْ خِلَالِهِ﴾، يعني: من خلال السحاب، من بينه.

قال الشاعر:

فلا مزته ودقت ودقها ولا الأرض أبقل إقبالها^(١)

قوله: ﴿وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِثْرًا فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾. فكلما ارتفع وعلا فهو سماء، والسحاب سماء من دون السماء.

قوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ... يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾. يقول: يصيب به من يشاء عقوبة، ويصرفه عمن يشاء برحمته.

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ﴾. يقول: يكاد ضوء هذا البرق الموثلق في هذا السحاب، أن يذهب بالآبْصَرِ ﴿يَكْنُفُهَا بِلَمْعَانِهِ﴾. يقول: يختطفها بلمعانه، ويغشيها بتابع وميضه.

قوله: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾. يجريهما خلفه.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾. يعني: عبرة للبصير العارف، والمتفكر المنصف، أنه إذا أعاد الليل بعد ذهابه، والنهار بعد انصرامه، غير عاجز عن إعادة العبد بعد موته، والخلق جميعاً بعد فوته، فيكون حياً بعد أن كان ميتاً، كما كان ميتاً بعد أن كان حياً.

وكما أنشأ سبحانه فجمعه بعد تفرقة، وفرقه بعد التفاف قُزعه، وأرسلت السماء ودقها بعد امتناع، ثم امتنعت بعد قلة إقلاع، كل ذلك آيات معجزات، واضحات شاهدات، لمن ابتدأهن بالقدرة على إعادتهن، وأنه الواحد القهار، الذي لا شبه له وهو على كل شيء قدير، ولا وزير له ولا ظهير، ولا معين ولا مشير. سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾. هذا على الأعم الأكثر، وعلى الجمهور الأشهر، لأنه تبارك وتعالى قد خبر أنه خلق آدم من غير ماء، وخلق حواء من غير ماء. ويروى أن ناقة صالح صلى الله عليه من غير ذلك. ولكن الأعم والكثرة من ماء دافق.

﴿فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾. الحية وما أشبهها.
 ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾. ابن آدم، وكثير من الطيور، وغيره.
 ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾. من الخيل والبغال والحمير والجمال، وغير ذلك من الأنعام والدواب.
 ومنهم من يمشي على أكثر من ذلك.

فذكر الله الأعم الأكثر، وترك القليل المغمور. إذ كان ضئيلاً في جنب الكثير المشهور، مع أن من كان يمشي على أكثر من ذلك، فقد يمشي على أربع وعلى رجلين في البطن.

وقوله: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١). يقول: يقدر ما يشاء، وكلما قَدَّر فهو مخلوق.

﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢). يقول: لا يعجزه شيء، ولا يمتنع منه شيء.

وقوله: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْنَا بُرْهَانًا مِنَ اللَّهِ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٣). فالآيات: القرآن، وما آتاه محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الدلالات والصراط المستقيم: الطريق الذي استقام بأهله التي أمروا به.

قال جرير:

أمير المؤمنين على صراط إذا عوج الموارد مستقيم^(٤)
﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ
وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾^(٥). فهؤلاء قوم صدَّقوا بالستهم، ثم تولوا، أي:
أعرضوا عن الحق.

﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾^(٦). يقول: بالمصدقين، الذين صدَّقوا أقوالهم
بأعمالهم، وتموا على ما أظهروا من انتحالهم.

وقوله: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾^(٧). عن ذلك، مخافة أن يحكم عليه بالحق، وأن تكون عليه الحجة، والمعرض عن
الشيء: المائل عنه، المنحرف منه، انحراف الكراهة.

وقوله: ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾^(٨). يعني: سلسين
مطيعين، غير معاصرين.

قال الشاعر:

وخرق بعيد قد قطعت نياطه على ذات لوث سهلة السير مذعان^(١)
يريد: مطيعة لينة مواتية.

قوله: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ أَرْتَابُوا﴾. يريد: مرض النفاق، وإعراض
الخلاف والشقاق. ومرض القلب: شكوكه في الشيء.

﴿أَمْ أَرْتَابُوا﴾، يعني: شكوا، وتحيروا في دينهم.

وقوله: ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾. يقول: أم يحذرون
ويخشون أن يجور الله عليهم فيما أنزل من الحكم، أو أن يتعدى عليهم رسول الله غير
ما في الرسم، فيمتنعون من هذه الجهة، ويكرهون حكومته. ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ
يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾. لله ولرسوله، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. ﴿إِنَّمَا
كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، معنى جوابهم إذا طلبوا المخاصمة إلى رسول الله، المؤمنين
المصدقين ﴿أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾. يريد: قبلنا القول، واتبعنا الأمر بالطاعة.

و ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ فهم: المفلحون في أعمالهم، الباقي ذكرهم في المواطن التي
تحمد منهم.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

(١) البيت لأمرئ القيس.

والبيت بهذا اللفظ في الديوان:

وخرق بعيد قد قطعت نياطه على ذات لوث سهوة المشي مذعان

الطاعة: اتباع الأمر ولزومه.

والخشية: الخوف من الله سبحانه.

والتقاة: المحاذرة من الله وتوقي محارمه.

والفائز: فهو المبعد من عذاب الله، والصائر إلى رحمته، نالوا فوق المنى، ففازوا بمنزلة لا يقربها العذاب، ولا يحلها الفناء.

وقد روي أن هذه القصة من قوله: ﴿إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ...﴾ إلى هذا الموضع، «نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام، وعثمان بن عفان في الأرض التي أعطاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليا وعثمان، واقتسماها بالمدينة، فصار لعثمان خير النصيبين، فقال له علي بن أبي طالب عليه السلام: اشتر مني نصيبي، أو بعني نصيبك. فاشترى عثمان نصيب علي، فلما اشتراه ندم عثمان، فقال علي: قد اشتريت ورضيت، فالحق أخاصمك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال الحكم بن أبي العاص، والمغيرة بن أبي العاص لعثمان: لا تخاصمه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن إلى غيره، فأنزل الله فيه ما أنزل».

وهذا وإن كان الحكم به أول مرة خاصاً في بعض دون بعض، فإنه باق مثبت واجب، على كل من كره المخاصمة إلى كتاب الله، وإلى أوليائه، وأئمة الحق من عباده.

قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾. ﴿أَقْسَمُوا﴾: حلفوا.

﴿جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾. يقول: أشد قسّمهم وأكثره.

﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾. يقول: لئن حرمت عليهم بالأمر ليخرجن من الحق الذي يطالبون به.

وقوله: ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَّعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١). يقول:
لا تحلفوا، ولتبين منكم الطاعة.

﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٢). يقول: بصبر بما تعملون، وما تسرون وما
تعلنون.

قال الشاعر:

وأقسم أن لو التقينا وأنتم لكان لكل يوم من الشر مظلم^(٣)
فهذا القسم يمين.

وقوله: و ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ
وَعَلَيْكُمْ مَا حَمَلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾^(٤). الطاعة: اتباع الأمر ومراعاته.

قال الشاعر:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا محال في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن أحب مطيع^(٥)

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾. يقول: رجعوا وأدبروا.

﴿حُمِّلَ﴾، يعني: ما أمر به من التأدية، وعليكم ما أمرتم به، كل مأخوذ بجرمه،

(١) البيت للمسيب بن علس، المسيب بن مالك ابن عمرو بن قنابة بن ربيعة بن نزار، شاعر جاهلي،
كان أحد المقلين المفضلين في الجاهلية، وهو خال الأعشى ميمون، له ديوان شعر، شرحه الأملدي.
والبيت في الديوان بهذا اللفظ:

فأقسم أن لو التقينا وأنتم لكان لكم يوم من الشر مظلم

(٢) البيت لأبي العتاهية إسماعيل ابن القاسم بن سويد العيني العنزي، أبو إسحاق، شاعر مكة، سريع
المخاطر في شعره إبداع من مقدمي المولدين من طبقة بشار وأبي نواس، ولد ونشأ قرب الكوفة،
وسكن بغداد، توفي في بغداد.

لا تسألون عن عَمَلِهِ، لا تؤخذون به، ولا يُسأل عن أعمالكم ولا يؤخذ بها، عدلاً ورحمة، ومنة ونعمة.

﴿ تَهْتَدُوا ﴾. يقول: طريق الحق لأنه يرشدكم الطريق، وبين لكم ما عليكم من فرض ربكم في كل سعة وضيق.

قوله: ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ الْمُبِينِ ﴾. يقول: أداء الرسالة، والتبيين لما كُلف من النصيحة.

وقوله: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾. ﴿ آمَنُوا ﴾: صدقوا أقوالهم بأفعالهم.

﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾، يعني: المفروضات من البر والنوافل في كل خير.

وقوله: ﴿ لَيْسَتْ خَلْفَهُمْ ﴾ ليمكنهم، ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾، وليدعونهم إلى القيام بالفرض، ﴿ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم، ﴿ وَلَيُمْكِنَنَّ لَهُمْ دِينُهُمُ الَّذِي آرَضْنَاهُمْ لَهُمْ ﴾. أي: يعليه ويظهره، ويؤيده وينصره على الأديان، حتى يكون مُكِّنَ القرار، مؤيد الأنصار.

﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾.

يعوضهم من الخوف أمانة، حتى يعبدوه عبادة ظاهرة مكشوفة، لا يتاقون فيها أحداً.

... ﴿ لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾. يقول: لا يجعلون في عبادتهم معي شريكاً.

وقوله: ﴿ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾. يقول: ﴿ لِمَنْ كَفَرَ ﴾، أي: من تغطى واستتر فأولئك هم الفاسقون، الخارجون عن أمر الله وحدوده.

وقوله: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾. فهذه الصلاة المفروضة، والزكاة

الواجبة. وإقامة ذلك فتأديته وإيتاؤه في وقته ومواضعه.

قوله: ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٢٤). يقول: اتبعوا الرسول لترحموا. والرحمة وجوب النصر، ووقوع الثواب، والحكم لهم بالشهادة.

وقوله: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِي النَّارِ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (٢٥). ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ﴾: لا تظن. ﴿ مُعْجِزِينَ ﴾. يقول: غالبين لنا في الأرض. ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي النَّارِ ﴾، أي: مصيرهم ومرجعهم. ﴿ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (٢٦). يقول: بنس الدار والمنزل، نعوذ بالله من سخطه وعذابه، وما أعد لأعدائه من اليم عقابه.

وقوله: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَنَازِدَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ﴾. يقول: هذه الأوقات التي يحتاج الناس فيها إلى الخلوة، فيكشفون فيها، ويدون العورة.

﴿ وَالَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ ﴾، فهم إماءكم وعبيدكم الصغار، الذين لم يبلغوا الحلم. ثم ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ ﴾ بعد هذه الثلاثة الأوقات ﴿ جُنَاحٌ ﴾. والجناح: الإثم، أن يدخل بعضكم على بعض ﴿ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ ﴾ في آخر الليل، و﴿ الظَّهْرِ ﴾ وقت المظيل، و﴿ بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ﴾ فهو بعد العتمة.

وقوله: ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢٧)، عليم بأعمالكم، حكيم في تدبيراته. و﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ﴾، أي: يوضح لكم طرق النجاة، وأسباب الدلالات.

وقوله: ﴿ إِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ ﴾. يقول: احتملوا وبلغوا مبالغ الأمر والنهي والفرص.

﴿ فَلْيَسْتَعِذُّوْا كَمَا اسْتَعِذُّنَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾. لا يدخلوا في هذه الأوقات إلا باذن.

وقوله: ﴿ وَالْقَوْعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾. ﴿ الْقَوْعِدُ ﴾ التي كبرن. ﴿ لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾، لا يخفن نكاحا.

قال الشاعر:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وخالفها في بيت نوب عوامل^(١)

﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ ﴾. يقول: إثم.

﴿ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾، يعني: جلابيهن، وهن الأردية، وما شبهها من الثياب واللباس.

﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾، غير مبديات لما يحظر عليهن من شعورهن وأبدانهن. ﴿ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ ﴾، وأن يستترن ولا يضعن ما عليهن خير لهن، على التأديب لا على الحظر.

﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾، سميع لدعاء الداعين.

﴿ عَلِيمٌ ﴾، بأفعال الفاعلين.

وقوله: ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ ﴾. يقال: «إن هذا

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي خويلد بن خالد بن محرز، شاعر فحل مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وسكن المدينة، واشترك في الغزو والفتوح، وعاش إلى أيام عثمان، فخرج في جند عبد أمه ابن سعيد بن أبي السرح، إلى أفرقيته سنة ٢٦ هـ غازيا. والبيت في الديوان بهذا اللفظ:

إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها وخالفها في بيت نوب عوامل

نزل في قوم من الأنصار، تورعوا عن الأكل مع الأعمى، والأعرج، والمريض، وقالوا: نأكل أكثر من أكلهم إذا اجتمعنا، وكان الأنصار أهل تركم وتزُّه، فقالوا: إن الأعمى لا يبصر الطعام، وإن الأعرج لا يستطيع الزحام عند الطعام، وإن المريض لا يأكل كما يأكل الصحيح، فعزلوا لهم طعامهم على ناحية، وكانوا يرون أن عليهم في مؤاكلتهم جناحا.

وكان الأعمى والأعرج والمريض يقولون: لعلنا نؤذيهم إذا أكلنا معهم، فاعزلوهم واتركوا مؤاكلتهم. فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سألوه عن ذلك؟ فأنزل الله عليه ما أنزل.

وقوله: ﴿عَلَى الْأَعْمَى﴾. فهن بمعنى: مع، لأنها من حروف الصفات، يقوم بعضها مقام بعض، كأنه قال: مع الأعمى.

وقوله: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾. كانت حالهم أن يأكلوا من جميع هذه البيوت المسماة، والمنازل الموصوفة، فقالت اليهود: ليس لكم أن تدخلوا بيوت غيركم فتأكلوا من طعامه وهو غير حاضر، فأعلمهم الله أن ذلك جائز لهم، لأن كل ما كان في هذه الحال مطلق لهم، حتى يحظره أمر من الله، أو ينهاهم عن أكله.

أما ﴿وَمَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحُهُ﴾. فقد قيل فيه: إنه ما كنتم وكلاء عليه.

وقيل: ما كان لما ليكنكم. وكل حسن جميل.

والصديق: فالخليل والصفي والولي. والإخوان: هم الإخوة في النسب.

وقوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾، علمهم ذلك ليعظم لهم البركة، ولا ينسوا ذكر الله في كل حال. وإن كان في البيوت ساكن، فالتسليم عليهم واجب، فإن كان ليس فيها أحد، قال: السلام علينا من ربنا.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. يقول: يوضح الآيات لتعقلوا.

والعاقِل: فهو المميز للأمور، والمستدل بما يرى على النظائر من التقدير.
وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾. ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾: المصدقون، الذين صدقوا الله ورسوله.

﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾. يقول: قد جمعهم له ودعاهم إليه.
وقوله: ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾. يقول: لم ينصرفوا حتى يطلبوا ذلك منه.
وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾. يقول: لانصراف في وقت حاجتهم.
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. يقول: يصدقون بالله ورسوله، ويؤمنون بالله ورسوله في عملهم.

قوله: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ﴾. جعل الأمر إليه في الأذن لهم، على قدر الحاجة إليهم، والغنى عنهم، ثم أمره أن يدعو الله لهم بالمغفرة.

وصف إنه ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، غفور لمن تاب، رحيم لمن أناب.

وقوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرُّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾. يقول: إذا دعاكم لأمر، فلا تتفرقوا إلا بعد إذن.

وقد قيل: لا تقولوا: يا محمد، ولكن: يا رسول الله، ويا نبي الله. والأول أعرف، لأن شاهده قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾. والمتسلل: المنصرف في خفية وغفلة. و ﴿لِوَاذًا﴾. يقول: يلوذ بالفرار من الجهاد، ويستتر به، ويلوذ بغيره.

ويقال: إنما أنزلت في قوم من المنافقين، كانوا يحضرون الجمعة، ثم يتسللون من قبل الصلاة، فينصرفون.

وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾. ﴿فَلْيَحْذَرِ﴾ فليخف، ﴿الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾، بلية أو مصيبة.

قوله: ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. يقول: عذاب موجه مؤلم، نستجير الله من غضبه وعذابه، وشدة نكاله وعقابه.

وقوله: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾. يقول: هو مالك ما في السماوات والأرض، ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ في دنياكم.

قوله: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. فهو عليم بذلك اليوم، لا تخفى عليه خافية، سرا كانت ولا علانية.

يعلم ما كان وما يكون، وهو العالم بنفسه، الذي لا يحتاج إلى تعلم، ولا يوصف بجهل، سبحانه وتعالى علوا كبيرا.

ما أظهر حكمته!! وأبين دلالته!! وأوضح حجته!! وأبعد من الحد صفته!!

القائم على كل نفس بما كسبت، وهو سريع الحساب، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ
الْسَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وصلى الله على من أنقذ به من شفا جرف هار، وهدى به من ضلال الكفار،
ونعش به من الغفلة والعثار، محمد المطهر، والرسول المتخير، والسراج الأنور، ذي
المقام الأشهر، والحوض الكوثر، والشفاعة التي لا تنكر، وآله النجباء، وُرَّاث
العلم، وأصحاب الحكم، وسلَّم ورحم وكرم.



الفهرس

فهرس الكتاب

- ٥ ----- [شبهة خلق الله للأعضاء التي يعصي بها الانسان]
- ٢٠ ----- [شبهة في الرزق]
- ٣٠ ----- [شبهة في أطفال المسلمين والمشركين]
- ٣٩ ----- [شبهة في موارث أطفال اليهود والنصارى المشركين]
- ٤١ ----- [شبهة من ميز بين الكفر والايان]
- ٨٩ ----- [شبهة في قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾]
- ١٢٣ ----- [شبهة في قوله: ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾]
- ١٣٢ ----- [شبهة هل كلف الله العباد أن يعلموا أنهم مخلوقون]
- ١٤٦ ----- [شبهة فيمن ذكر الله أنهم لا يعقلون ولا يعلمون]
- ١٦٠ ----- [شبهة في قوله: ﴿وَكَاثُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾]
- ١٧٣ ----- الرد على الأباضية
- ٢٢٩ ----- تفسير سورة بني إسرائيل
- ٢٨٢ ----- تفسير سورة النور للحسن بن أحمد بن يحيى الهادي
- ٣٢١ ----- فهرس الكتاب



روائع تراث الزيدية

مجموع كتب

الإمام الناصر أحمد بن الهادي

(الجزء الثاني)

تأليف

الإمام الناصر لدين الله أحمد بن يحيى الهادي

(٢١٥هـ)

تحقيق

عبد الكريم جذبان

